



AUB. LIBRARY

American University of Beirut
University Libraries



Donated by
Constantine K. Zurayk

AUB. LIBRARY

خالد محمد خالد

- من العلماء -

321.03

K451mA

مواطنون .. لارعايا

« اذا ما سئلت : هل الشعب جدير
بأن يكون حرا .. ؟ »

« اجيب سائلا : وهل هناك فرد جدير
بأن يكون مستعبدا .. ؟ »

« جون رسل »

الطبعة الاولى

مارس ١٩٥١

« جميع الحقوق محفوظة للمؤلف »

دار النيل للطباعة

شارع القاضي - عابدين ، القاهرة

تليفون ٥٨٨٥٥

الإهداء

إلى الذين —

ضاقت صدورهم بالظلم ..

وطال شوقهم إلى الحرية ..

ويتساءلون : أين الطريق . . ؟

في هذا الكتاب

- ١ — شعب في السلاسل .
- ٢ — الحرية .. هي الخلاص .
- ٣ — الشخصية .. كي تعمل .
- ٤ — تمصير مصر .

مقدمة

هذا كتاب يجيء مع الربيع ، ليبشر بالحرية أمة أضناها
صقيع الاستعباد . .

ويدعو المواطنين جميعا أن يؤمنوا بالحرية ، ويكرسوا حياتهم
حتى يفيئوا كما ولدتهم أمهاتهم أحرارا . . لا تليفحهم مقايظ
البطش ، ولا يحتدم عليهم أوار القمع والأرهاب . .

وهو قد كتب لتقرأه جميعا . . فإذا توثبت بين صفحاته
وسطوره ، فقد اختصرت رحلة الربيع يا صديقي . . ثم هو ليس
جديدا عليك . . ولا بعيدا عنك . . فكل كلمة فيه خفقة في
صدرك ، أو دمعة في عينك ، أو أمل يتململ بين حناياك . .

كما أنه ليس بحثا علميا في السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة
أو التاريخ . .

بل تصويرا نحسبه صادقا لأحاسيس الشعب حيال أمنيته
الكبرى - الحرية . .



ولقد كان كتابنا الأول - من هنا . . نبدا - دعوة خالصة
لتحرير الشعب من الجوع والوهم . .

وهذا الكتاب دعوة مماثلة لتحريره من العبودية والظلم . .
وإذا الجماهير جاءت ، وخافت ، فقد تقطع ما بينها وبين الحياة
من عروة وسبب . . وحق عليها في مجال مقارنتها بالعالم الحر
قول الشاعر العربي :

ونعمتم أن اخوتكم قریش
لهم الف ، وليس لكم الاف
أولئك آمنوا جوعا وخوفا
وقد جاعت بنو أسد وخافوا

ونحن نعلم أن في بلادنا فئاما من الناس يتساءلون في حنق :-
لماذا نكتب .. ؟ ولماذا ننقد .. ؟ ولماذا لا نغمد أقلامنا ، ونرعى
هملينا ستورنا .. ونأمر أبصارنا أن تغمض ، وتغضى على الدل
أشفارها .. ؟

ولكن - إذا رأينا نارا ماردة تجتاح أهلنا وعشيرتنا - تلفح
وجوههم ، وتشوى أبشارهم ، وتجلجل عليهم جلجلة الجحيم .. .
ثم اقتربنا بمضخات الانقاذ - نكافح النار المجنونة ، ونطفئ
فيظ هذا السعير ..

أكون قد اجترحتنا خطيئة ، واقترفنا وزرا .. ؟

كلا - وهذا هو جوابنا للذين يتساءلون .. واعتذارنا عن الواجب
الذي نهب لبذله وأدائه .. . وانه لمن نكد دنيانا أن يصير الوفاء
بالواجبات العامة أمرا يستحق التبرير والاعتذار .. !

اننا حين ندير أبصارنا في هذه الرقعة المظلومة من الارض .. .
الرقعة التي تضمنا ، وتضم ما حولنا من الأمم الجاثية .. نرى
شعوبا قد أحاطت بها خطيئتها - من استعمار دخیل تتضم
هواجره .. واستبداد وبیل تتوقد لوافحه .. .
على كل شبر من أرضها - آثار أقدام الغزاة .. .
وعلى كل ظهر من ظهور بنيها - معالم سياط العتاة .. .
فلمـاذا .. . والام .. ؟

لماذا يحرمها الاستغلال من لقمتهها .. ؟
ولماذا يحرمها الاستبداد من حریتها .. ؟

ولماذا يحرمها الاستعمار من سيادتها . . ؟
ولماذا ياتمر براحتها ، وحياتها قوم ليسوا من أصلاها
ولا من تراثها . . ؟
والام يذل أهلها ، ويعز فيها الغرباء . . ؟ !



ان أهدافنا اليوم تتركز جميعها في الحرية . .
فلنجرد روح الحكم من الهمايونية والتفرد والبغى . .
ولنجرد روح الشعب من الاسترابة والتربص والخوف . .
ولقد مضى هذا الكتاب يرتاد لنا الطريق . . ثم عاد وعلى محياه
وعشاء السفر ، واشراقة الظفر - ليحدثنا عما رأى - ويستحثنا
للمسير . .
فلنمض معه في خطوات أكيدة مطمئنة . . مسلحين بروح
الحرية نفسها . .

روح الحرية الذى يضع التفاهم مكان العنف - والفكرة موضع
القذيفة . . والوضوح بديل المؤامرة . . والغيرية الفاضلة . مكان
الأنانية الباغية . .



ونحن على يقين بأننا لن نجد حاكما تفىء منه لبلادنا وشائج
القربى والرحم . . يشبط مسعانا ، ويعترض ركبنا ، ويتحدى
مشيئة وطنه ومواطنيه . .

واذا خاب يقيننا ، ووجد هذا الحاكم ، فليقبل منا هذا
النصح الأمين . .

ان الحرية لا تغلب أبدا . . وهى تقتات بالمقاومة ، وتزدهر
بالتحدى ، وتترقرق الحياة فيها كلما هطلت عليها السنة السياط .

وكما قال فيلسوف كريم : « الذين يكافحون الحرية بالبطش -
كالذين يكافحون الحريق بقاذفات اللهب » وانا لاكثر برا بالحاكمين
من انفسهم . . حين نهاهم عن الانانية والعدوان . .

ما صالحهم في أن يفقدوا محبة الشعب ، ويظفروا بعداوته ؟
ما صالحهم في أن يبيعوا مكانهم المرموق في التاريخ . . بلذة
عاجلة ، وحظوة آفلة . . ؟ !



ان الاستعمار يكيد لنا - حكومات وشعوبا - ويريد أن يضرب
بعضنا ببعض ، ويؤلب بعضنا على بعض . . فلنحذر . . ولنؤاخ
بين كفاحنا المشترك من أجل التحرر والخلاص .



ويا أيها الذين ينتظرون موكب الحياة ليستردفهم وراء ظهره
كما يستردف اللقطاء . .

سيروا وحدكم وقابلوه في الطريق . .
سيروا . . قبل أن يطول بكم الانتظار . . .

خالد محمد

شَعْبٌ فِي السَّلَاسِلِ ..

« قبل أن تحملوا مطارق التحرير ،
تبيينوا مواضع الطرق .. وقبل أن تمضوا
إلى الغاية مثقلين ، طهروا أرجلكم من
الأغلال ، وخففوا كواهلكم من الأثقال »

خالد

عصر الشعوب ..

على ظهر هذا الكوكب ألفا مليون من البشر ، قرروا من غير لقاء هم
بينهم أن يحققوا حرية الشعوب، ويرفعوا ألوية الجماهير ..
وهو قرار أزلى قديم .. !

ويوم عزم آباؤهم الأولون على إنفاذه أرسلوا رائدهم .. رهيلا
من البواسل الامجاد ، مضى كالشهاب يرتاد لهم الطريق .. !
وبينما هو ماض الى غايته ، دهمه البغاة من كل فج يحملون المدى ،
والرماح ، والسيوف .. وطفقوا يصلونه من نقمته سعيًا .. واذا
هو يفكر - في غمرة المباغثة - أيمضى قدما أم يعود - صاحت
به الاجيال المستقرة في ضمير الغيب :

تقدم .. فليس الى مرد من سبيل .. !

وانطلق من جديد يحمل الامانة الكبرى في شجاعة وايمان ،
ويشق طريقا محفوقا بالمكاره والاطار .. وكلما مر على ملا
من صنائع الشر سخروا منه وتألبوا عليه .. !

لقيته الجيوش في موج كالجبال .. شارعة حرابها ،
فخاض معها معارك الهول وقضى نحبه فريق .. وتدفق الباقون
يشخون في الارض المجهولة لا يلقون لهواتف اليأس سمعا
ولا بالا .. !

لقيه المرجفون والمثبطون ، وحاولوا ايهاهه ان السفر طويل ،
والزاد قليل ، والمغامرة خاسرة ، والهدف جد بعيد .. فنفاهم عن
طريقه ومضى ..

تصدت له قصور الاباطرة ، والقياصر .. تسد الطريق وتزحم
الافق .. تطأ بقواعدها ارض الناس ، وتتحدى بأبراجها سماء
الله .. فقدم عليها ، وتركها كشيئا مهيلا .. رحلة الضنى

والهول .. كلما تقطعت دون غايتها أنفاس جيل أسلمها الى
جيل .. وكلما أنجز تبعاته رجيل، نهض في أثره رجيل ..

وكانت رواية فذة .. اختلفت مناظرها وتغير أبطالها . لكن
موضوعها لم يتغير .. !

ما أروع هذا الذى حدث من أجل الحرية .. !

انظر ! مشاهد تغرى بالتشاؤم والقنوط .. وأخرى ترفع قبل
العينون منى عذابا .. وآمالا رطابا .. !

مشاهد تتقاذف كهدير العاصفة .. وأخرى تنساب
وديفة ساكنة كأشعة القمر .. !

في بداية الطريق ظلام ، ويأس ، ثم محاولة وتردد ، ثم اقتحام
وتحد .. وعلى طوله أشلاء ودم ومعاصم . وأعاصير وعواصف .
ومن وراء ذلك عالم تشرق عليه من ذلك الافق البعيد شمس
الحياة والحرية والحضارة ..

وعالم آخر لا يزال يلفه مثل الضباب فهو مقرور ضير .. !
وفي ضمير التاريخ وحده يكمن سر هذا التفاوت البعيد بين الذين
غمرتهم الحرية ، فلا يحزنهم اليوم فزع .. ولا يورقهم خوف ..
والذين لا يزالون مقرنين فى الاصفاد .. !

وما أشد حاجتنا الى استطلاع هذا السر الدفين لنفقه ، ونرى .. !
لقد وقف حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ذات
يوم ينشد من شعره ما يثير ذكريات الجاهلية الاولى ...
ولكأنما شق الحديث على عمر فهب فى وجهه بصيحته الزاجرة
.. فقال له الرسول :

دعه يا عمر يذكرنا بأيام الله ، قال لنا فيها عظة وعبرة .. !
فليتنا نستطيع أن نتذكر أيام الله فى هذه البشرية الكادحة ،

لنرى كيف مرقت مروق السهم من قبضة الطفيان والكتب ..
وكيف انتقلت من عهدالوحدانيةالحاكمة - الى عصر الشعوب
وحكم الشعوب ..

فبعد أن كان أمير الاقطاع يتوج بوثيقة سطر فيها : «نبائع
صاحب الحق المطلق في حياتنا» .

أصبحنا نقرأ مكانها .. لكل انسان الحق في الحياة ، وفي
الحرية ، وفي العيش آمنا مطمئنا ..

وبعد أن كان حسن الجواريين أمير وأمير يقوم على تبادل
هذا النص المخزى : « أتعهد ألا أعتدى على أرضه ومواشيه
ورعاياه العبيد » ..!

صرنا نقرأ بدلها : « لا يجوز أن يعيش انسان في الرق
والاستعباد »

وبعد ان كان الناس - كما يقول أوليفيه :

« .. يسخرون لصيد الضفادع من الفدران كى لا تقلق الامير
الاقطاعى من نومه »

« ويجلدون بالسياط اذا نهروا كلاب سادتهم التى تخرب حقولهم
.. ويقذفون فى السجون اذا عارضوا رغبة الملك وبطانته فى
الولوع بزوجاتهم أو بناتهم »

بعد أن كان ذلك كذلك .. اذالواء السيادة ينعقد اليوم لهؤلاء .
فلا يسخرون لصيد الضفادع ، ولا يجلدون بالسياط ، ولا يستباح
لهم عرض أو تنتهك لهم حرمة ، والآن . نتذكر أيام الله فينا ..
فى أمتنا التى أنعتبت التاريخ وأتعبها .. لنبصر مكانها فى عالم
اليوم ، فاذا كانت لا تزال جاثية مصفدة - نقبنا عن الاوتاد التى
تشدها اليها .. وعملنا لتبديد هذا الضباب الجاثم الذى يحجب
عنها ضوء السيادة وحرارتها حتى ينزاح عن أفق طالما بزغت فيه

حضارات ألهمت أشعتها الدافئة- الإنسانية المقررة المرعشة بعد
أن عادت فيها الصقيع ..

نحن نحس أننا في بلادنا مستوطنون ، لا مواطنون . .
ورعايا ، لا أكفاء ..

رعايا كل حاكم مستبد ، وكل أقطاعى كبير ..

رعايا طائفة من التقاليد العفنة التى توجه السياسة والاقتصاد
والاجتماع ..

رعايا استعمار مضى - ولا يزال نالنا بأذاه ، واستعمار قائم يلفنا
فى الضباب والظلمات .

ويوشك الذى حاق بالهند أن يحقق بنا .. فالبرهميون الذين
غزوها وفتحوها - أصبحوا هم الهنود .. أما الهنود الاصيلون ،
فقد جرفهم الموج وألقاهم على الشاطئ البعيد نثرات ! ..
وصار اسمهم المختار - المنبوذين .

فلنحاول قبل أن يبلغ الموج بنا مداه ..

ولننظر السلاسل التى صفت تنابها الحوادث ، ونفضها .. حتى
نقدر على التجديف ومغالبة الطوفان .

واذا نحن علمنا أن روح الامة يسيطر على مصايرها ومستقبلها،
وأن هذا الروح مشحون بالرواسب الضارة التى تقعه وتثقله وتخذله
.. فقد استبان لنا طريق التحرر والخلاص .

تطهير الروح من رواسب الماضى . . .

وتطهير الضمير من مخاوفه .

وتطهير العقل من أوهامه .

وتطهير الارادة من سلاسله الغلاظ ..

وقبل أن نحمل مطارق التحرير - يجب أن نتبين مواضع الطرق

.. وقبل أن ننتقل الى الفاية مثقلين - علينا أن نطهر أرجلنا من الاغلال ..

ان الفساد الذى ارهقنا بمشاقه، واعناته - هو الاستعمار التركى .
لثمائة عام سويا ..

ثم امتداده الذى تلقف منه العهد ، وسار على الدرب ، ولا يزال يسير . وهو الاستعمار البريطانى

ثم النظم التى تقمصتها روح الاستعمار وشهواته ليعملا عن طريقها . وأهمها البرلمان البرجوازى .. ثم النفسية الواهنة المريضة التى أثمرها الاستعمار ، وقسمها على ذاتها - وتمثل فى الفرايز المكبلة الناقمة ..

وستتحسس الآن بأيدينا هذه القيود ، قيذا ، قيذا . ولن نطيل المكث معها - فحسبنا أن نتبين طبيعتها ، ونقف على عوامل بقائها - ثم نعى العناية المستطاعة بقطمها ، والخلاص منها .

طوفان رجيم .. !

ذات يوم ، وأنا اطالع فى كتاب « أزمة الضمير الاوروبى » التقت عيناى بأية رائعة نحيث الكتاب بعد تلاوتها جانبا وشرعت أتدبر المعانى الجليلة التى تشف عنها هذه العبارة الجامعة ، وبلغ من اشراقها ان اضاءت لى ما بين يدي وما خلفى .. ورسمت أمامى نهجا كاملا للحرية والخلاص .. أما العبارة فهذه :

يقول فنيلون - « ان الغزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التمجيد .. أشبه بتلك الانهار التى تفيض فتبدو رائعة ، لكنها تخرب الارض الخصبة التى كان عليها فقط أن ترويهها .. »

ترى كم من الغزاة الذين تطفلوا على بلادنا يجعلهم هذا الوصف ، ويحتويهم داخل اطاره الاسود الرهيب .. ؟

سنراهم الآن رأي العين .. أولئك الذين حسبهم آباؤنا

الطيبون أنهارا تجرى بالخصب والنماء ، فشقوا لها الأرض ،
ومهدوا أمامها الطريق - وفي أصيل يومها ومجراها راحوا ينشدون
الحب والثمار ، فإذا الأرض خراب يباب .. ليس فيها ما يهتز سوى
نفحات القر ، وسبرات الشتاء !

لقد استحال نبعها الوديع ، وانسيابها الرقيق غربا هائجا ،
وطوفانا رجيما - تبر الربوع تتبرا .. !

نعم - هذا هو الذى حدث - فالغزاة الذين اقتحموا ديارنا
زعموا أنهم هداة لا غزاة .. ومصلحون لا فاتحون .. وأنهار
غاية سعيها أن تروى الأرض لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج
بهيج .. أنهار ستروى الشعب بالمعارف جميعا .. المعارف
السياسية لينهض ويسود ، والادارية لينظم نفسه ويسوس
أمره ، والعلمية ليشب عن طوق الجهالة . ويمضى مع الركب العليم
الرشيد ..

ثم ألقيناهم جميعا فى سباق جبار نحو الكذب والنكوص بقدر
ما كانوا فى سباق هائل نحو الوعود المبذولة ، والمزاعم الجريئة ..

ألقيناهم طوفانا وسيلا ساق أمام أمواجه العاتية الصاخبة ما
كان الشعب قد ناطه به من منى وأمل .. وجرف فى عنفوان
وجنون بقايا جلده وتماسكه .. والتهم فضل ما خلفته الأيام بيديه
الضامرتين من قوت .. ثم مضى يتجشأ فى استهتار - ويواصل
تساوقه وانحداره فى عريضة منقطعة النظر .. ! ليست هذه
الكلمات شعرا ، ولا مبالغة .. ولنستمع الآن للتاريخ القريب لا
البعيد ، فإن لنا فيه عظة وعبرة .

ولكننا فى هذا النطاق لن نبسط حواث .. ولن نتقصى وقائع ،
فليس هذا الكتاب سجل تاريخ - وغاية ما سنصنع أن نرفع
تجاه الابصار أعتى نماذج الاستعمار الذى عاث فى أرضنا ،
وطوق أعناقنا .

الاستعمار التركى ... والاستعمار الانجليزى

وانما نختارهما دون سواهما لأنهما أثقل وطأة ، وأشد عراما
وكيدا - ولأنهما لا يزالان يلفنانى مثل الضباب من احتلال
بريطانى جائم .. ومن مساوىء خلفها الاستعمار التركى ،
واصطبغ بها حكم هذه البلاد .

١ - الاستعمار التركى ..

تركى = طاغية .. !

وحين نبدأ بالحديث عن الغزو التركى تستبد بنا طبيعتنا
الازهرية التى تولع دائما بتحليل اللفظ ، وتعقب مادته واشتقاقه .
وتأبى الا أن تحلل لفظ «تركى» فما هو .. ؟

ولنذكر أولا - أن علم النفس قد اكتشف علاقة وثيقة بين
الانسان واسمه ولقبه ..

ويضرب علماء النفس لنا مثالا- رجلا اسمه « صعب » ، فإن
دوام انصباب هذه التسمية فى سمعه ، ووعيه يطبع عقله الباطن
بطابعها ، ويسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة .. وذلك لا ريب هو
سر تغيير الرسول أسماء بعض الناس الذين كانت أسماءهم من
هذا القبيل .

فقد أبدل باسم « حرب » - وكان يحمل له بعض أصحابه
« سلما » ... وأبدل باسم «أجهم» اسما آخر هو «سمع» .
هناك اذن وحى مستمر توحىه أسماءنا الينا ، ويلون الى حد
كبير طباعنا ..

أىكون هذا هو سر التلازم بين التركية والطغیان ؟

ولكن - هل كلمة تركى ترادف طاغية ، حتى نشد بينهما هذا

التلازم والانسجام .. ؟

نعم - فالترجمة الحرفية لكلمة تركى هى - طاغية !

يقول العلامة البستانى صاحب دائرة المعارف : -

« وقد خرجت من جبال التابي قبائل ، وتفرقت في انحاء آسيا العليا التي هي الآن تركستان فسمها الصينيون باسم توركوكو ، كما سمي الفرس بلاد تركستان باسم توران ، فكان لفظ ترك أو تورانية - اسما جنسيا للقبائل المتوحشة .. »

وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان تيران ومعناها طاغية ..
أو عات ..

« ويذهب كثير من المؤرخين الى أن الاتراك كانوا يلقبون قديما بالدمرين .. »

ونحن على ذلك من الشاهدين .

فلقد دمرونا باحتلالهم ، وأشاعوا فينا الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .. وسنرى الآن من حكمهم طرازا مقام يوم واحد في هجيرهم عذاب يتواضع ازاءه عذاب الجحيم ! وانها لثلاثمائة عام متشحة بالسواد والفرع لبشاهات تحت وطأة هذا الاحتلال التركي .. فتعالوا لننظر ما خلفه في ضمائرنا من قروح ، وفي أرجلنا من أغلال .. !

فمنذ عام « ١٥١٧ » - يوم غزا السلطان سليم بن بيازيد مصر ، الى ما شاء الله من أعوام ، والشعب المصري في باستيل تركي يروض فيه على الذل والغش والجاسوسية وفي محنة لاهثة جاست خلاله بالسلب والنهب والعلو والاستبداد .

ولقد أفاد الانجليز حين استعمرونا بعقريّة الاتراك القدماء في البغى والفساد .. وطبقوا منا هجهم ، واقتفوا معالمهم حذو النعل بالنعل .. !

ألسنا نعتقد أن مبدأ « فرق تسد » بضاعة انجليزية خالصة ؟ والواقع انه من مخلفات الاستعمار التركي . مارسه طوال عهده البغيض حتى مزقنا شر ممزق . فلما جاء الانجليز وجدوه سلاحا ماضيا فتقلدوه !

لقد كان السلطان سليم صاحب الفضل بأسوأ معانى الكلمة - في وضع هذا المبدأ الفاجر واستعماله ..

فقبل أن يفادر مصر الى تركيا مزق السلطة فيها الى ثلاث مرق - وجعل لكل منها اختصاصات تتنافر مع اختصاصات الاخرى كي يدوم الشقاق بينها جميعا .

وهو صاحب هذه الحكمة الخبيثة :

« اذا اختلف الذباب وتناحر . ضمنت لنفسك نوما طويلا » !!

١ - النهب والاقطاع ..

ولقد شرع السلطان سليم لابنائه وحفدته فضيلة انتهاب الامم وسرقة الشعوب . . فان « جورجى زيدان » يحدثنا في كتابه « تاريخ مصر الحديث » ان هذا السلطان بعد فتحه القاهرة والاسكندرية ، وحين ازمع الرجعة الى بلاده نقل معه ألف جمل محملة ذهباً وفضة وأسلاباً أخرى ! أرايتم ..؟!

لقد هام كالكلب المسعور في بلاد لا تربطه بها سوى صلة التقحم والتسور والعدوان ، ومضى ينهش كل لقمة في كف - وكل درهم في جيب ..

وتولى الخلافة بعده ابنه السلطان سليمان .. فأعلن في فرمان رسمي « أنه المالك الحر لجميع أرض مصر .. » !!

ووزعها اقطاعات على مزارعين دعاهم « الملتزمين » .. نظير خراج باهظ ! ..

ووجد من الاربعة عشر باشا الذين ولاهم حكم مصر في عهده كل عون لمظالمه وتثبيت لسياسته

واذن فنظام الاقطاع هذا آفة تركية جاءنا بها استعمارهم القديم .. ثم لم ترحل معه يوم رحل - بل ظلت على شكل باذخ مثير ..

ب - الرشوة .. !

والاستعمار التركي هو الذى دنس ضمير هذا الشعب بالرشوة .. فلقد وجد نفسه على دين عصابة ضخمة تنتظم الخليفة والباشوات الذين كان ينصبهم على مصر ولاة .. وكل هؤلاء يشهدون أن لا اله الا الله ، وان الرشوة والانتهاك من طيبات ما أحل الله .. !

تصوروا ان الباب العالى نفسه كان يشجع الرشوة ويتقاضاها ، ويثيب عليها . !

يقول « بركهاردت » : (١)

» يطلب الباب العالى الموارد .. ولا شيء سواها . ولكي يتسنى للباشا اشباع هذه الحاجة تراه يعمد الى ارهاق الشعب ، ويضع على عاتقه الابعاء الثقالة .. أما الباشا الذى يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايثار العام ويجعل الغلبة فى مجالسه للعدالة فانه يجلب على نفسه دون ريب سخط مليكه - لا لأنه عادل ، وانما لان عدالته تمنعه من النهب . ومن نقل جانب مما ينهب الى الديوان . واذا أراد الباشا أن يبقى على نفسه ، فليس أمامه من سبيل الا أن يسلم فى صمت رعاياه البائسين الى عصا المستبد .

وكان الارتقاء عن طريق السرقة والرشوة « !! اذن ، ونحن الآن نعيد فقط كلمات هذا المؤرخ ولا نزيد ..

كانت الرشوة طريق الوصول الى قلب السلطان ، وكان الباشا الذى يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايثار العام ، ويجعل الغلبة فى مجالسه للعدل يجلب على نفسه سخط مليكه .

(١) الدولة والنظم الاقتصادية فى الشرق الاوسط - تعريب دكتور راشد البراوى

ويعنى « بركهاردت » بالمليك هنا - السلطان التركى ..
ونحن نعنى ذلك أيضا ..

كان الباب العالى يطلب الرشوة من ولايته ، وولاته
يقتسرونها من الجماهير الجائعة المضناة .. لذلك كانت عملة
متداولة مشروعة !

ويحدثنا كتاب « الكافى » فى جزئه الثالث :

« أن على باشا الصوفى أحد ولاة السلطان سليمان كان
يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم .. مما أغرى الدهماء
والخطـرين بأمن الناس .. » !!

وكان خلفاؤنا الأبرار يبيعون المناصب جهرة ..

فيحدثنا عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة
القومية » ناقلا عن المستشرق مارسل .

« .. أن تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر الى
آخره انحصر فى تعاقب الباشوات الاتراك على ولايتها ..
فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الاستانة
.. ويظل الباشا فى منصبه لا عمل له الا جمع المال
واستصفائه من أهله بمختلف وسائل النهب حتى يفادر
منصبه .. » !!

وبهذا نرى أن الحكام الاتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير
حمايتهم ورعايتهم .. والذين يرشون ويرتشون فى وضح
القانون .. كانوا أساتذة علموا هذا الشعب المطيع السمسرة ،
والرشوة الحرام ! ..

ج - الفقر والارهاب ..

ولم تصب مصر بمثل ما أصابها به الاستعمار التركى المديد من

غدر مسلح ، ومؤامرات موصولة وأرهاب رجيم !..

لقد كان الولاة يتآمر بعضهم على بعض .. بل والخلفاء أيضا يتآمر الابن على أبيه ، والاخ على أخيه .. وتفننوا في الاغتيال وحبك المؤامرات ضد الشعب ، وكانت الجريمة هي الشيء الوحيد الذى يتناولونه بيد الاستاذية البارعة المتفوقة .

ولو انك معى الآن تقلب الصفحات التى أقلبها من تاريخ استعمارهم الاسود لتولاك من الروع والوهل مثل الذى يتولانى

ان القلم ليجفل فى مسيره .. وأكاد أشم رائحة الرصاص ، وترتج سكينتى بأصداء الصراخ المنبعث من الضحايا المضرجين !
وأسال نفسى : مم تخافين ، وقد ذهبوا !.. ؟

ربما تفرعها تلك الاشباح التى تتراءى من وراء جرائمهم كأنها روعس الشياطين . .

وربما من تلك الظلال المديدة المكتنزة التى تملأ علينا حياتنا رعبا !..

حين تقرأ مثلا ان « محمود باشا لتركى » آخر ولاة السلطان سليمان على مصر حين وصل القاهرة لقيه « محمد بن عمر » متولى الصعيد ، ومعه هدايا نفيسة ، وخمسون ألف دينار تقبلها الباشا التركى متظاهرا بالغبطة والشكر .. ثم تواصل تلاوة الخبر ، فترى الباشا التركى يأمر باغتيال « محمد بن عمر » عقب مخرجه من لدنه خوفا من منافسته .. ثم يأمر بخنق القاضى المصرى « يوسف العبادى » .. ثم يأمر باغتيال معظم أعيان القاهرة الذين انتقدوا حكمه وسلوكه .. ثم يخترق شوارع القاهرة ومعه (الشوباصى) عميد الجلادين ، يقتل بأمر الباشا رجالنا ، ويستحى نساءنا .. عندما تطالع هذا النبأ الدامى ، فاعلم أن بجوارحه مئات الانباء والمذابح .. وامش

الهوية ، فالطريق التي امامك مزرقة بجثث آبائنا الذين صرعوا
جهرة ، أو اغتيلوا في الظلام البهيم .. !

- دنشواى .. التركية .. !

واذا كنا نحتفظ بين ضلوعنا بذكرى مرجفة لفضيحة
« دنشواى » التي أعدم فيها الانجليز خمسة من مواطنينا
في ظروف معروفة .. فان هناك في تاريخ الاتراك فضيحة
مشابهة .. تجعلنا نعتقد ان الانجليز كانوا مقلدين في
جريمتهم للغزاة الذين سبقوهم بالقسوة والجريمة !

واذا كانت (دنشواى) .. التركية .. لم تأخذ في التاريخ
مثل المكان الذي أخذته (دنشواى) الانجليزية ، فلأنها
لم تكن (دنشواى) واحدة .. بل كانت تتكرر دائما كوسيلة
لاذلال الشعب ، واسلاس قياده حتى أصبحت من العقوبات
العادية في شرع الاتراك .. !

حدث ان استولى « محمود باشا التركى » على جميع تركة
« ابراهيم الدفتردار » امير الحج وكانت مائة الف دينار ، وجبى
من الناس بواسطة السوط والارهاب مثلها .. ثم رفعها الى
الاستانة ليرضى عنه مولاه .. وعلم القاهريون ذلك وكانوا
قد التمسوا من السلطان عزله علموا ان الرجل قد اشترى
سلطانه وسيده بهذه الهدايا المنهوبة .. فكمنوا له في الطريق
وقتلوه .. وفر القاتلون .

وارسل سوء الطالع في هذه الطريق جماعة من الفلاحين
لم يشتركوا في القصاص من محمود باشا .. بيد ان الحاشية
التركية للحاكم الصريع التمسث لقتلهم ، والتمثيل بهم نفس
الاسباب التي التمسها الانجليز فيما بعد لاعداء ضحايا دنشواى
وبث الرعب في البلد جميعه .

ولعل من الطرائف المسلية ، التى تخفف عنا لأواء هذه
القساوة أن نستمتع لبعض الأشعار التى تغنى بها الناس
عند ماخر ذلك الوحش التركى السائب .

أتى محمود باشا يوم نحس	فساقت منيته غصيبة
تجاه الناصرية خلف حيط	بغيط جاءه منه مصيبة
بيندقة رماه كف رام	فسددها فجاءته مصيبة . !

هـ - الذلة .. والعلة .. !

ورسم الاستعمار التركى سياسة لاذلال الشعب ،
وافنائه .. وان ما نعاينه اليوم من جبن عقلنا الباطن ، وتوجس
عزمننا وارادتنا لأثر محتوم لما أنزلوه بنا من رعب وبطش ..
لقد أنشبووا قسوتهم فى الشعب وشردوا طمأنينته . وضافت
عليه المحاولات بما رحبت .. وبقيت لذلك مثلاً - تلك القصة
التي تروى عن أحد الولاة الاتراك حكم هذا الوالى على مصرى
بالاعدام .. وعند التنفيذ شدوا وثاقه ، و ربطوه الى سارية ..
ثم سألوا : الك حاجة قبل أن تموت ؟ ..

قال : نعم .. أن أنقل الى سارية أخرى ..

ففصموا وثاقه .. واذ هوفى طريقه الى العمود الثانى ،
توفى الوالى الذى حكم بأعدامه . وولى الامر بعده وال جديد ..
ألغى حكم الاعدام ، وافرغ عن المصرى المسكين ! ..

ان هذه القصة لم تقع ، وانما اصطنعها آباؤنا ليصوروا بها مبلغ
القهر الذى أخذ بخناقهم . وهوان الامل الذى ناطوا به خلاصهم .
فالجماهير المضطهدة المغلوبة على أمرها بعد أن عجزت عن مواجهة
جباريها بوسائل عملية حاسمة ذهبت تتمنى .. وتتخيل ، وحتى
خيالها كان مكبلاً يدور فى مدار ضيق مساحته تلك الاشبار التى
تفصل بين ساريتين ! ..

ومن هنا اذن جاء هذا المثل الذى ترتله الملايين اليوم : «من خطوة لخطوة .. يأتى الله بالفرج» .

انه تعبير آخر كتلك القصة التصويرية عن بغى الاستعمار التركى الذى حرم الناس حتى من رحابة الامل ..!

وكان للاسقام والافناء سياسة مرسومة كالسياسة المرسومة للاذلال ..

ولكن ماصالح الاستعمار فى اذلال الناس بالعلة ، وافنائهم بالجملة وهو فى حاجة اليهم لخدموه ..؟

والجواب على ذلك - ان سليمان بن سليم كان قد أصدر فرمان الذى جعل نفسه به المالك الاوحد لجميع ارض مصر - وهو لن يزرعها بيده طبعاً فأعطاه .. للملتزمين .. نظير ضرائب فادحة لاتبقى للملتزم سوى مسكه الرmq ولكن هذا القليل المتبقى للملتزمين لم ينج من اطماع سليمان . غير الحكيم . فاشتراط ان تؤول اليه جميع تركات المتوفين الذين لاقب لهم ولا وارث ، وبقي هذا المرسوم نافذا بعد خلافته ومماته .

ثم تطاول العهد - فكان الباشوات الاتراك يجنون هذه التركات لانفسهم ، وليرشوا بها السلطان أيضاً - فاشتد حرصهم على ان يموت أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين تتوافر فيهم الشروط ..!

وطبعاً لا سبيل لتمييزهم فأتاحوا للأوبئة ان تتخذ من بلادنا مزاراً ووطناً لتحقيق لهم الغرض الدنيء .. ولتعصف بكل محاولة للمقاومة والنضال .

ومن هذا الاحصاء المتواضع ندرك مبلغ ماكان بين الأوبئة وبين حكم (آل عثمان) من صداقة وائتلاف ..!

ففى عام ١٠٢٨ اجتاح مصر طاعون صرع ستمائة الف نفس

وفي عام ١٠٣٥ اجتاح مصروباء صرع ثلثمائة ألف نفس
وفي عام ١٠٥٠ اجتاح مصرطاعون خرب مائتين وثلاثين قرية
وفي عام ١٧١١ اجتاح مصرطاعون اسماعيل - وصرع ستين
الفا .. (١)

هذه الوبئة المنقضة الموصولة جعلت من آبائنا الاقدمين - حملة
ميكروبات - للوهن والسقم توارثناها .. ولا تزال أرحام
الامهات تنشق كل يوم عن نماذج واهنة لتلك الوارثات !.
ونلاحظ ان الاستعمار الانجليزى قد ورث فيماورث
عن سابقه هذه المؤامرة السفهية المتوحشة .. فسلط علينا وباء
الكوليرا في أعقاب الحرب حتى لا نجد قوة نشور بها في وجهه
.. ورفض رجاء الحكومة المصرية في منع القيادة البريطانية
عن بيع فضلات الطعام الملوث بالوبئة المتبل بالامراض .. وحتى
الوقت الذى نكتب فيه هذه الكلمات لا تزال بريطانيا ترفض
حق مصر القانونى في انشاء محطة رقابة صحية بمنطقة «فايد» كى
تتمكن من اشراف صحى كامل على وسائل المواصلات فى تلك
الاراضى المصرية !..

ولم تكن وسيلة الاذلال لدى الاستعمار التركى - السوط
وحده - بل والسلوك أيضا .. فالوالى التركى ذو سلوك
خاص مع الشعب .. سلوك يمتاز بالصلف والفطرسية
والتعالى - وهونوع السلوك الذى كان السلطان يعامل به الولاة
والرعايا ..

فالسلاطين حين يخاطبون الولاة والباشوات يقولون :
« .. أما بعد ، فقد تمت ارادتنا السنية الشاهانية

(١) تاريخ الحركة القومية - ج أول - عبد الرحمن بك الرفاعى

(كذا) فاذا أردت اكتساب رحمتنا الملوكانية ، فتعال الى
اعتابنا ، واقسم على طاعتنا ، والاخلاص لنا . . »

هكذا يخاطب السلطان الولاة ثم تتم مراسم الهوان بالسعى الى
اعتابه والقسم بين يديه على الطاعة والاخلاص . . !

وهـم اذا خاطبوا الشعب لا يوجهون الحديث اليه لهوان
شأنه . .

بل يخاطبونه بواسطة الباشوات قائلين :

« بلغوا عبيد بابنا العالى » . . !

ثم لكى تكون سيادتهم مقدسة وعبودية الرعايا ضربة لازب
يعلمون فى قحة انهم « اعتلوا عرش اجدادهم الامجاد طبقا للاوامر
الواردة من ملك الملوك » . . ! ولم يكن هناك ما يربطهم بملك الملوك
جل شأنه سوى هذا الانتحال .

لقد راض الاستعمار التركى رعاياه على الذل . وراض ولاته
على التزلف ، ويمثل الاخير اصدق تمثيل خطاب الخديو
توفيق المرفوع منه الى الصدر الاعظم بمناسبة تعيينه مكان
والده المخلوع .

نحن الآن مع الصفحة « ٢١٦ » من الجزء الرابع لكتاب الكافى فى
تاريخ مصر . وأبصارنا تقترب مشدوهة لتقرأ :

« وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الامر ان فراغ محسوبكم
والدى المحترم عن الحكومة المصرية . وتوجيه مقام الخديوية
من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية لعهد رقيقكم
هما من مقتضى على ارادته السنية السلطانية . وبالحقيقة
ان تكرم حضرة صاحب الخلافة الاقدس الذات بتوجيه مقام
الخديوية لعهد هذا العبد كان دليلا على وجود عبدكم مشمولاً
بفيض النظر الملوكانى . .

« فلذا رفعت الى مقر اجابة الرب القدير اكف الادعية الخيرية
يبقاء عمر ، وعافية ، وارتقاء شأن ، وشوكة الحضرة
السلطانية . عالمعلم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسعادتها
وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية
والتابعة للسلطنة السنية . » !

من هذا الذى يتكلم .. ويكرر كلمة عبدكم ورقيقكم مرات
عديدة .. ؟

أهو فرد عادى من الشعب . ؟

انه الخديو يبذل تواضعه بسخاء .. لان السلطان التركى
لا يفتخر بدون هذا التواضع من تابعيه وموظفيه . ونستطيع على
ضوء هذا الخطاب أن نتصور مبلغ اعتداد الشعب بشخصيته
— اذا كان هذا مبلغ اعتداد خديويه وحاكمه ونستطيع أيضا
أن نقف على تفسير علمى صحيح لقول توفيق للمصريين « أنتم عبيد
احساناتنا » واختياره كلمة (عبيد) بالذات ..

انها عملية تعويض لا غير .. وهو فيها معذور .. لقد تواضع
كثيرا للذين فوقه فلا بد أن يتقاضاه من الذين تحته .. من
الجماهير والرعايا .. !

و — الخداع بالدين .. !

ولم يترك الأتراك وسيلة يستغلون بها الرعايا الا انتزعوها
واذ كان شعبنا متدينا عميق الدين ، فقد استغلوا فيه هذه
الفضيلة اسوا استغلال ..

فالسلطان سليمان الذى جرد الأمة من جميع ارضها واملاكها .
جاد عليها بكثير من المساجد والكنائس التى بناها .. ! وفى
الوقت الذى وقع فيه فرمانا يجعله « المالك الحر لجميع ارض
مصر » ..

وقع فرمانا آخر هذا نصه : « لا تخرج امرأة قط الى الاسواق والشوارع ولومتنقبة الا العجائز .. ومن خالفت تضرب ، وتربط من شعرها في ذيل حمار ويطاف بها في القاهرة » !!

وفرمانا ثالثا : « نطلب من الناس جميعا أن يسيروا بمقتضى الشريعة - ويعملوا بموجب السنة » !
يا سبحان الله !!

نهب واقطاع .. ثم دعوة الى القرآن والسنة .. !
عتو وفجور . ثم تشييد للمساجد والمعابد .. !
هذه شجاعة ضمير لا يقدر عليها سوى الأتراك أحد . ان خالق هؤلاء وخالق نيرون واحد

فحين ولى « نيرون » الامبراطورية الرومانية ، قدمت اليه اوراق محكوم عليه بالاعدام لتوقيعها ، فبكى .. بكى نيرون وصرخ :
ليتنى ما تعلمت الكتابة .. !

ولكنه فى الفصل الثانى من الرواية .. رواية حياته الآثمة ، سفك دمه بيمينه .. وأحرق روما وهو يقهقه أمام مشهد صاحب من مشاهد الجحيم . !

ان الحكام الأتراك كذلك .. يؤمنون أول النهار ، ويكفرون آخره .. ويخدعون الشعب بمجاملة نزع الدين فيه ثم يأكلون حرثه ونسله ، ويسومونه سوء العذاب ..

والشعوب حين تبلى بهذا اللون من السلاطين ، ولا يكون فيها رجل كالعز بن عبدالسلام يقرع الجرس ويبيع أمراء المماليك بالمزاد .. فان عاقبة أمرها تكون خسرا .. وهكذا كان عصر الاستعمار التركى لمصر والعرب .

ألم تر مرة أو مرات .. رجلا يشكو ويئن ، فيقول له صديقه متهمكا أو مسليا : ادع للسلطان بالنصر .. ! ان لهذه الكلمة

الذائعة قصة في تاريخنا القديم الحديث .

فقد دخل امام احد المساجد ليخطب الجمعة في عهد بعض السلاطين الأتراك . فوجد المصلين جميعا رقادا يثنون .. فسألهم عن سر هذه المظاهرة الصامتة فأجابوه : ان الباشا هاجم بيوتنا ومعه « الشوباصى » والجند ، وانتهبوا ما فيها من حبوب وقوت زاعما أنه سيرسلها الى جيش السلطان .

فسألهم الشيخ : أليست جيوش السلطان تحارب الكفار؟

أجابوا في سداجة : نعم !

قال الشيخ : اذن - ادعوا للسلطان بالنصر !!

وذهبت مثلاً ..

ولقد أفاد نابليون من هذه التجربة يوم غزا مصر، فاستغل الدين ورجاله وشهدت شوارع القاهرة منشورات كبيرة هذا نصها:

((نصيحة من علماء الاسلام بمصر))

« .. نخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية . يحبون المسلمين وملتهم .. وهم أصحاب لمولانا السلطان . قائمون بنصرته، وأصدقاء ملازمون لمودته .. يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه .. ولذلك بين الفرنسيين وموسكو غاية العداوة الشديدة وهم يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكو ان شاء الله .. » !

ان استغلال الاستعمار التركي للدين لم يكن مصادفة ولا اتفاقا .. بل هو ثمرة خطة واعية هادفة أصاب البلاد منها شر وبيل .. بل وكان الدين نفسه مجنيا عليه فيها .

وآية ذلك ما لا نزال نراه من التعصب ضد المرأة باسم الدين - فليس هذا من الاسلام في شيء .. ولكنها الخرافة الدينية التي روجها الأتراك .. وأصدروا بها فرمانا ومرسوما وعلينا أن نعيد تلاوة مرسوم السلطان « سليمان » الذي مر

بما أنفا .. والذي حرم به على المرأة أن تخرج لحاجتها ولو
منتقبة .. ومن فعلت تربط بشعرها في ذيل حمار !

أهذا هو الاسلام الذي خاطب رسوله النساء قائلا : « ان الله
أذن لكن ان تخرجن لحاجتكن » وأباح لهن الخروج حتى بغير
نقاب وحجاب ؟

لكن أمة تعيش ثلاثمائة عام في ظل الجهالة التركية، والتنطع
التركي والسيطرة التركية لا بد أن تثمر مانعائيه اليوم من
رجعية وانحطاط وتعفن !

لقد قال أحد الخلفاء الأتراك : « سأصنع بكم كما يصنع قيصر
الروس برعاياه » مخاطبا شعبه وشعوب مستعمراته . فماذا
كان يصنع القيصر ؟

هنا سيتبين صدق قولنا - ان استغلال الدين كان خطة
مرسومة ، ولم يكن مصادفة طارئة
فقد كان القيصر - أي قيصر - بارعا في استغلال دين بلاده .
وكان رجال الدين في الكنائس يصلون بالناس « صلاة القيصر »
أيها القيصر ..

نحن عبيدك المخلصون ! ..

يا ظل المسيح ! ..

ويا روح الحق ! ..

نعيش لخدمتك ! ..

ونطيعك فيما تقول ! ..

وهكذا أراد الأتراك أن نعبدهم من دون الله .. وأفهمونا ،
وهم يتولون الملك كائنا عن كابر ، أو صاغرا عن صاغر .. انهم
كما يقول الفرمان « يتولون العرش طبقا للأوامر الواردة من ملك
الملوك » !

وهذه الامية التى لاتزال لطخة سوداء فى وجه مصر اثر من امجد آثار الاستعمار التركى ، وأحقها بالاشادة والتنويه .. فقد عاشت مصر أعوامها الثلاثة محرومة من الثقافة والمعرفة .. ودبر الأتراك مؤامرة للاجهاز على لغة البلاد .. وأسماوا اللغة العربية «لغة الفلاحين» وكانت اللغة التركية لسان السادة والقصور ..

ولا تزال مظاهر هذه الاستهانة بلغة البلاد ماثلة امامنا - فعلى بعد خطوات منا، وفى داخل القصور السعيدة المترفة - يعيش اقوام لا يعرفون عن لغتنا القومية شيئاً سوى انها الهمهمة التى تتحرك بها شفاه الرعايا .. وتضطرب بها مشافر القطيع حين يكلم بعضه بعضاً ! ..

والقد كانت مصر قبل استعمار الترك واحة يأتلق فيها علماء نوابغ كابن اياس وابن خلكان والمقرئى وابن حجر وابن العميد والذهبى والدميرى وابن نباته وصاحب «صبح الاعشى» وسواهم كذلك كانت مهاجر الاحرار المفكرين حين يمسهم فى بلادهم نصب واضطهاد . فقد هاجر اليها ابن خلدون وابن تيمية وابن القيم وآخرون .

فلما جن ليل الأتراك، وكان ليلاً بهيماً ، ران الجهل على البلاد وعاش قرير العين فى حمى حلفائه وأصدقائه الأتراك .. ترى هل كان اضطهادهم للعلم تشييعاً للجهل ؟

هنا نلتقى بكارل ماركس ، على غير موعد بيننا .. حيث تضىء لنا الطريق، نظريته التى يرد بها جميع الظواهر والاشياء الى اسباب مادية واقتصادية .

فلقد كان للمدارس أوقاف كثيرة يانعة . تلفت الأتراك نحوها ثم قالوا : يا ليت لنا هذا الطول العريض .. وما أسرع

ما تتحقق لهم الأمنيات .. فنهبوا أوقاف المدارس ، وباعوا جميع المكتبات الكبرى التى كان الفاطميون قد خلفوها - وجاوز جشعهم واستكلاهم كل حد .. فاقتلعوا أبواب المدارس ، وأخشاب النوافذ والسقوف ثم باعوها !

يقول على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية» «.. أهمل أمر المدارس .. وامتدت يد الأطماع الى أوقافها، واحتجرت مرتبات المدرسين والطلبة والخدم ففارقوها جميعا وانقطع التدريس فيها، وبيعت كتبها، وانتهت. فخربت وصارت زرائب ..» !

لماذا نبش القبور ..؟

هل تظن ، وأنت تقرأ هذه السطور .. وتستعرض بعض مشاهد الماضى ، انك امام عرض تاريخى .. أو حديث نرجى به الفراغ ، ونملاً به الصفحات ؟ لا - أنت أمام غرض أجل ، وغاية أسمى ..

ونحن نبش قبر الاستعمار التركى حقا لنكتشف الاوتاد المظمورة تحت ترابه والتي لا تزال تصلنا بها سلاسل وأغلال .. أن نشوء الجريمة يلقى ضوءا ناصعا على أطوار نمائها، وعوامل تشبثها بالبقاء ..

ونحن شعب تعيث فيه جرائم الاستبداد السياسى، والاستغلال الاقتصادى ، والاقطاع المتفشى، والرجعية المنحدرة ..

وتحتل نفوسنا عقد غليظة تحملنا على الخنوع والعجز والاضطراب ..

ويجثم فوق ظهورنا ماض موقر بالأوزار يوبقنا عن الحركة ويعتاقنا عن التقدم ..

فليس لنا بد من تطهير آبارنا

ان علماء الاجتماع يقررون أن «روح الأمة يسيطر على مصايرها ومستقبلها»

والأمة .. ما هي ؟

انها ليست جيلا يقيم على ارضها ثم يزاور ويختفى - بل هي تيار يشرى متساوق الموجات، يجري لا مستقر له .. وكل موجة فيه دافعة مدفوعة .. مؤثرة متأثرة - معطية آخذة .. وهي في نقل تطورها تأخذ من ماضيها وتصب في حاضرها - وتتدفق نحو مستقبلها .

وما لم ننظف روحنا المسيطر من رواسب الماضي فسنظل دائما نعيش في ذلك الماضي برجعيته وفساده واستبداده .. وسيظل الشعب جاثيا تحت الاثقال التي أنقضت ظهره ، وهدمت قواه لا بد لنا من روح جديد مظهر من ذكريات الاخفاق والفشل .. تسويه وتنفع فيه ضرورات حاضرا ، وتبعات مستقبلنا .. واذا لم نصنع ، فسنظل امتدادا لظلمات الحكم التركي . ومطايا ذللا تحمل فوق ظهورها أخطاء وأعباء ماضيها .. وقطيعة ابله ، يضرب في المرعى القاحل ويدور .. يرى هشة العصا فيتراكم .. ويصك الزحام بعضه ببعض فيتهاresh .. والراعي هناك فوق الهضبة السامقة ، يسوس القطيع بنظراته الزاجرة .. وهو يقلب يديه البضتين شرائح الشواء على المدفأة .. حتى اذا غص بطنه الكريم .. ألقى على القطيع نظرة فاحصة .. واستل سكينه المخضب ، وخاض بين قطيعه المطيع .. يتخير منه ذبيحا آخر .. لوجبة أخرى ..

فلنفادر الماضي ..

وان هذا العرض «السيكولوجي» للحقبة التي قضيناها في قبضة الاستعمار التركي لتكشف عن المأساة .. المأساة التي تتمثل في اننا - الدولة والشعب - لا نزال نعيش في ذلك الماضي السحيق .. وان كل نصيبنا من التقدم ومزاملة الزمن .. بل كل ما يربطنا بالحياة المتجددة السيارة هو تواريخ الشهور والاعوام ..

فنحن نؤرخ وجودنا الآن بعام «١٩٥١» بيد اننا نعيش في عام «١٥١٧» حيث بدأ الاحتلال التركي ، وفيما تلاه من اعوام وقرون ..

فالعجز السياسى .. والرجعية الاقتصادية .. والانهار الخلقى والشعب المستسلم .. والحكم الأتقراطى .. والفساد الادارى .. والحريات المصادرة . واستغلال الدين .. كل هذه الخطايا تقترب اليوم بنفس الهمة العالية التى كانت تجتربها فى تلك القرون ..

ودلالة هذه الحقيقة المؤسفة اننا لانزال نعيش فى ظل الاستعمار التركى .. صحيح أن اشخاصه اختفت وطواها التراب .. ولكن أخلاقه وشعائره لايزالان يثمران كل ما اثمره بالأمس من فساد فأول أغلالنا التى تصفدنا - هذا الماضى .. فلنغادره، ولنصنع لنا حاضرا جديدا حرا باسلا

وستكون فصول الكتاب الآتية بمثابة القنطرة التى نقترح اقامتها لنعبر عليها .. مغادرين هذا الظلام ، ميممين وجوهنا شطر حياة تستحق أن تسمى حياة
والآن - فالى ثانى أغلالنا.

٣ - الاستعمار البريطانى

ان الفساد التركى الذى أجزناه فى السطور السالفة .. كان القنطرة التى عبر عنها الينا الاستعمار الانجليزى وبقاء آثار ذلك الفساد . هو العامل الاوحد فى بقاء الاستعمار الانجليزى ..

فالاثنان مرتبطان نشوءا ، وتطورا ، وبقاء ..
وهذه حقيقة يجب أن تملأنا البصائر والاذهان
عند ما بدأت الامبراطورية الباغية - التركية - تترنح تحت وطأة الترف الذى بددها - والفتن التى مزقتها .. كانت

طبايع الاشياء تهيب بسيد جديد كى يتقدم ليستولى علينا . .
وكان هذا السيد هناك . . وراء الحوادث ، واقفا يترقب . .
لم يكن نابليون . . فقد ذهبت محاولته فى نفس الطريق الذى
ذهبت فيه محاولة لويس التاسع فى القرن الثالث عشر . . وكان
هذا الناهب الجديد . بريطانيا

لماذا دخلت بلادنا . . ؟

لقد أعلن الجنرال «هتشنسون» بلسان حكومته أن القوات
البريطانية جاءت لتثبيت سلطة الباب العالى . . اذن فلا تراك
هم الذين أدخلوهم ديارنا بعد أن قبلوا حماية الانجليز لهم من
الفرنسيين أولا . . ثم من الشعب ثانيا . . وأعلن الانجليز أنهم
مسؤولون عن حماية الباب العالى ومنافعه ونفوذه .

وقبل أن يغادروا مصر هذه المرة احتفروا وقية غائرة بين
الاتراك الذين يدعون الحرص عليهم وبين المماليك . . ثم أوعزوا
الى «محمد الألفى» أن يذهب الى لندن ليطلب معونة الانجليز
وحمايتهم . . !

وهذه هى اللعبة التى ظلت بريطانيا ولا تزال تلعبها لتبقى
مصر منطقة نفوذ لها . .

فقد تكررت فى المؤامرة التى أوقعوا فى حبالها توفيق وعرابى
وذهبوا يمثلون نفس الدور مع احمد عرابى موعزين اليه
أن يطلب حمايتهم كما صنع الألفى سابقا

فيحدثنا شاهد عيان هو «شاروبيم بك» فى الجزء الرابع
من كتاب «الكافى»

« . . وتقدم كوكسن نائب القنصل الانجليزى من احمد
عرابى أمام قصر عابدين فى يومه المشهور وقال له : ان كنت
تخشى شيئا فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم
واموالكم ، وجميع ما لكم من الرتب والقباب الشرف . . » 1

أرأينا . . ؟ انها نفس اللعبة القذرة التى دخلوا بها . . وعليها
الآن يتكئون ويرتكزون . .

ولقد أجاب عرابى جوابا جديرا بمصرى أصيل فقال :

« بورك فيك أيها السيد ، كيف تحفظ أرواحنا وأموالنا
وعيالنا وأنت نفسك غريب تعيش فى حفظنا وحمايتنا ؟! » وأراد
عرابى أن يبالغ فى احراجهم واذلاله . . فقال :

« وكيف تستطيعون حمايتنا وقد وعدتم بها ومعكم فرنسا ،
اسماعيل صديق باشا . . ثم لم تدفعوا عنه مرارة الكأس التى
شربها قهرا ؟! »

ان عرابى يومذاك كان يمثل كل الوراثة النبيلة والاصيلة
التى نبض بها تاريخ هذا البلد الطويل

وماذا عليه لو دخل فى حماية « كوكسن ، وكولفن » كما صنع
الآخرون . . ؟ - ان وطنيته الاصيله ترفض هذا الهوان .

الكلمة الثانية ١٠٠ !

وسعر الانجليز الفتنة وأججوها . . وتقدم ممثلهم فى
مصر من عرابى وسأله :

- ماذا تفعل اذا لم تجب مطالبك . . ؟

أجاب - أقول كلمة ثانية -

- وماهى هذه الكلمة ؟

أجاب - أقولها عند القنوط .

وعمل الانجليز على أن يقنط أحمد عرابى فحرضوا عليه الحديو
وعندما قال كلمته الثانية كانت الشوارع تموج بالدم والاشلاء

ثم كان منشور الحديو والخليفة التركى يتلى ويذاع مبشرا
بعصيان عرابى ومن معه . .

ثم توالى المشاهد تترى فى تناقض عنيف . .

فالخديو توفيق يعود الى عابدين من الاسكندرية .. وان موكب
ليتهادى بين صفين طويلين من جيوش بريطانيا الغازية .. وفي
نفس الوقت يدفع أحمد عرابى بأعقاب البنادق الى غرفة مظلمة
فى قشلاق قصر النيل ! ..

والخديو توفيق يشرف الوليمة الكبرى التى دعا اليها القوات
البريطانية ويجلس بجوار الدوق « أوف كانوت » تحت العلم
البريطانى الذى يخفق خفقات التحدى والازدراء .. حتى اذا
فرغوا من الطعام قام بين عزف الموسيقى وقرع الطبول ليقلد
نيشان « النجمة المصرية » كل جندى انجليزى شهد موقعتى كفر
الدوار والتل الكبير ! ..

وفى نفس الوقت كان أحمد عرابى هناك .. يستمع الى
عريضة الاتهام :

« يا أحمد عرابى - لقد أتوا بك أمام هذه المحكمة بصفة أنك
متهم بالعصيان والخروج على طاعة « الذات الخديوية » وعقابك
على هذه الخيانة يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من
القانون العسكرى العثمانى ، والمادة التاسعة والخمسين من
قانون الجزاءات الهمايونى ! »

ومشهد آخر ...

فعلى جدران البيوت والشوارع الصق هذا المنشور الكريم -

« ارادة سنية لكافة أهالى وسكان مصر »

« لما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر منافع كبرى ماليا
وماديا ولا سيما بالنظر الى قنال السويس ، فقد أخذت على عهدها
التدخل الفعلى لقمع المفسدين دون أن تمس حقوق السلطة السنية ،
والامتيازات المصرية ... »

« ولتحققنا أن نيتها ومساعدتها فى الظاهر والباطن ليست الا
الاصلاح .. قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الانجليزى

بالتحول نحو جموع العصاة ، واستعمال الوسائل القاهرة
لجديد شملهم وسرعة القبض على رءوسهم ..

« وبما أن العساكر الانجليزية يعدون في هذه الحالة نائبين عنا
في قطع دابر المفسدين فانهم جديرون بالمعونة والمساعدة ..
وعلى كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء
حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم » !
ثم دار الزمن دورته ، ووقف محمود فهمى النقراشى بمجلس
الامن صارخا في وجه ممثلى بريطانيا

- اخرجوا من ديارنا أيها المتطفلون ..

فينهض رجل عملاق فيبرودوثبات وسخرية .. وأشار بيده
كالسهم ... كأنه يومىء الى تاريخ غير بعيد وقال :

- أيها السيد .. اننا لم نتطفل على بلادكم .. ولكننا
دعينا فأجبنا الدعاء ! ..

وأغلق النقراشى فمه ... ودارت برأسه الكلمات .. وصرخ
في أعماقه صرخة مكتومة ، فقد ذكر كل شيء ، وأفاق ! ..

لو سارت الامور كما يريد عرابى وتوفيق .. أكان سيحدث
هذا الذى حدث ؟ ..

لا نظن .. ولكن الانجليز أرادوها فتنة صاخبة ليتسللوا في
دخانها المتكاثف داخل بلادنا

وقد كان .. وهذا درس بليغ فلنذكره حتى نعود اليه بعد حين

الانجليز وجيشنا !

قرر الانجليز أن يكون استعمارهم قفصا كبيرا يسجن
فيه طموحنا وآمالنا .. فرسموا من أول الامر سياسة اضعاف
الجيش - حتى نظل هوانا يسام - لا قوة تسييم ..

ولذلك كان منشأ حقدهم على عرابى وتعجيلهم بتسديد الضربة

الى مصر ، محاولته النهوض بالجيش ، وارباعه الى ثمانية عشر
الفا ٠٠

ولذلك أيضا رأيناهم يلغونه ويسرحونه غداة انتصارهم على
عرايى - واختصروه فى لواء صغير جميع ضباطه من الانجليز
ومحوا العلوم الحربية والعسكرية كلها من المدرسة
الحربية التى كانت تخرج لنا الضباط ٠٠

وهم الذين تعهدوا فى معاهدة سنة ١٩٣٦ يتسليح الجيش
وقبل أن يجف مداد المعاهدة - ويتلاشى من الافق صدى طلقات
المدافع الفرحة ٠٠ وردوا لنا « ذخيرة كذابة » لاتصلح لصيد
العصافير !٠٠

وهم الذين عثروا يوما بسلاح طيراننا على (٥٠٠٠) قنبلة ثقيلة
فاقترضوها ٠٠٠ ثم أبوا أن يعيدها حتى اليوم ٠٠ وهم
الذين حرموا علينا استيراد أسلحة من دولة كروسيا ٠٠ ثم امتنعوا
عن بيعنا أسلحة قبضوا فعلا أثمانها !٠٠ وهم الذين فزعتهم
محاولاتنا الاخيرة ، فجاءوا باسرائيل لتحاربنا ونحاربها ،
وفى قلب المحملة تخلوا عن التزاماتهم حيالنا . لا مجاملة
لاسرائيل كما نتوهم فى سذاجة وغباء ٠٠٠ بل لغرض آخر ، هو
تعريض جيشنا لهزيمة ماحقة تذل كبريائه ، وتزلزل ثقة الامة
فيه ، وثقته بنفسه ٠٠

ونحن على يقين ، أن تلك السرقات والاثام التى اندملت
عليها حملة فلسطين - كانت بتدبيرهم غير المباشر ٠٠ واغرائهم
غير المرئى ٠٠ وتحريك مطامع الجناة وشهواتهم دون أن يعرف
أحد حتى الجناة أنفسهم ٠٠ المحرك الاول لهذه الشهوات ٠٠ وهى
خطة هادفة ٠٠ أراد بها الانجليز أن يحدثوا بها هزيمة معنوية بعد
الهزيمة المادية التى كانوا مؤمنين بها ٠٠ وفى الوقت المعلوم ونحن
ننادى بقدرتنا على حماية خطوطنا ومنطقتنا وندعوهم للجلاء ...
كشفوا الغطاء عن الخبء الكريه وقالوا : ها أنتم هؤلاء !٠٠

ان سفارة انجليزية - غير رسمية - سفارة مجهولة تعمل
فى بلادنا عمل الجبارين لتصيينا بشر ما يميزنا . وهم فى هدم
الجيش يصدرون عن سياسة تقليدية لهم أوصاهم بها
(غلاستون) يوم قال : حذار أن تسلحوا الجيش المصرى !

الانجليز . . ووجدتنا !

والانجليز الذين أثاروا الفتنة بين العثمانيين والمماليك ليسوغوا
بقاءهم . . ثم حملوا الالفى على الاستنجد بهم - ليكون بقاؤهم
مشروعاً من الجانبين - جانب السلطان وجانب المماليك .

والذين فرقوا بين توفيق وعرابى ليعودوا بجيوشهم
ويحتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً مدبراً . . .

هؤلاء هم الذين أغروا سعداً بعدلى ، وعدلىاً بسعد . . وأقاموا
سياستهم على بث الحقد وتعميقه فى نفوس بعض الزعماء على بعض
. . وبعض الجماعات على بعض

ليس الخلاف فى رأى هو هدف الانجليز - فالخلاف فى
الرأى لا يضر . . ولكنه الحقد والخصومة واللد . .

وسنظل ضحايا هذه الخصومات السود مادام للانجليز فينا نفوذ
. . وهم حين يعجزون عن النفاذ الى وحدة الامة باحدى وسائلهم
الكثيرة ، ينفذون من الزاوية الحادة غير مكثرئين

ان نبههم « دزرائيل » يناديهم من مكان غير بعيد :

« لا بأس بالغرر والكذب والوقيعه ، اذا كانت هى الطريق !

الانجليز . . وحررتنا !

ولقد اضطهدونا اضطهاداً موصولاً - ولا يزالون - وساموا
حرية الشعب سوء العذاب ، واضطنّعوا لانفسهم حثيات من
الذين تجرى فى عروقهم مصرية مستعارة وسلطوهم على الجماهير
وأحاطونا بحصار قاس ظلوم - فلا نتصل الا بالدولة التى

يختارونها .. ولا نصادق الا من يصادقون ، ولا نعادي الا من يعادون
حتى حرية البيع والشراء .. حرموها علينا .. ولقد اشتمروا
قطننا ذات عام بعشرة جنيهات للقنطار الواحد - وباعوه على بعد
خطوات منا بخمسين ... في السودان !

بل حتى حرية الاحتفاظ بالعرض والشرف .. سلبوها
منا .. ففي وزارة محمد محمود باشا الاخيرة - هم بالغاء البغاء
فمنعه الانجليز قائلين :

- وأين يقضى جنودنا وطرهم ؟

أى أنه لابد للدولة بعد أن استبيحت أرضها وسيادتها - أن
تقدم للغزاة نساءها بنفس السماحة التي تقدم بها غذاءها
وكساءها .. !

وقد يتكلف الانجليز اليوم التسامح والحلم .. لاننا صامتون
.. ولكن هذه الاردية الكاذبة تنضيتها عنهم المقاومة حين تكون ..
ففي ثورة « ١٩ » لم يتركوا موبقة الا اقترفوها قتلوا .. وصلموا
الاذان .. وسلموا العيون .. وهتكوا الاعراض في عريضة
معدومة النظر .. !

وكل الذي نعانيه اليوم من قهر واختناق ، بقية من القوانين
التي وضعوها .. والتي أوحوا بها .. لتكبييل حرية القول
وحرية العمل ..

ويجب أن نعلم أن الاستعمار البريطاني يقف وراء كل اجراء
شاذ تصدر به حريات الشعب وتسفه به رغباته .. وحين
نتحدث عن واجبنا ازاء هذا الاستعمار في الفصل الاخير
ستزداد هذه الحقيقة تألقا ونصوعا

٣ - البرلمان البرجوازي

ان الاستعمار البريطاني ذكي .. وهو ، وقد ورث مخلفات
سلفه البغيض - الاستعمار التركي - حاول أن يصوغ هذه

الاساليب القديمة فى أخرى مستحدثة .. وأن يسكب الفساد
القديم والبغى القديم والمكر القديم فى قوارير جديدة ثم يقدمها
لرعاياه شرابا سائغا ..

وإذا كانت الشهوات - كما يقول أندريه مورو - فى حاجة
الى أجساد تتقمصها كى تعمل .. فان الاستعمار البريطانى لم يقنع
بتقمص الاجساد .. بل تقمص النظم والقوانين كذلك ..

فقد عاوننا على أن تكون لنا حياة نيايية ، ولكنه وقد شهد
ميلادها - بل وساهم فى خلقها .. صاغها كما يريد - لا كما
تريد ضروراتنا وطموحنا ..

فالحياة النيايية الانتهازية .. والبرلمان الاقطاعى يوما ،
والبرجوازي يوما آخر ... هو الغل الثالث الذى يقيد حياتنا
ويعتاق نمونا ..

ونحن لانعنى برلمانا بعينه ، ولا هيئة نيايية بذاتها .. نحن
نعنى روح هذا النظام التى تتقاصر دون حاجات الشعب
ولا تسعفه بما يريد ..

فالاثرياء والمحظوظون لا يمكن أن يمثلوا كل التمثيل شعبا حالفه
الجوع والحرمان ..

ولكى نخلص من اثبات هذه الحقيقة أولا - ونثبت أن الذين
يتحدثون من زمن بعيد باسم الفقراء - ليسوا .. بل لم يكونوا
ساعة واحدة من أعمارهم فقراء - نطالع أسماء أعضاء أول مجلس
نيابى - ثم ماتلاه من مجالس وهيئات ..

ان أول مجلس كان مجلس شورى النواب الذى تألف عام
١٨٦٦ .. وكان ندوة للطبقة البرجوازية الرفيعة فى البلاد
.. كان جميع الاعضاء من العمد .. وكان العمد يومذاك يمثلون
الصف الثانى - أما الصف الاول فالاقطاعيون الكبار .. وأما
الثالث فالشعب البائس المحروم

مديرية الغربية نجد ممثليها فى المجلس من طراز اتربى بك
أبو العز

على كامل - عمدة القصرية

الحاج شتا يوسف - عمدة أبى مندور

الحاج محمد حمودة - عمدة برما الخ . . .

ومن مديرية المنوفية نجد : -

الحاج على الجزار - عمدة شبين الكوم

محمد افندى شعير - عمدة كفر عشنا

على أبو عمارة - عمدة مليج

وعن الشرقية نجد :

بركات الديب - عمدة القرين

محمد افندى عفيفى - عمدة الزوامل

عبدالله عياد - عمدة كفر عياد

وعن أسيوط نجد :

عثمان غزالى - عمدة بنى رزاح

يوسف محمد عمر - عمدة الشيخ تمي

عبدالعال موسى - عمدة دروة

وهكذا عن بقية المديريات . . كلهم عمد وأعيان ! . . (١)

فاذا جئنا البرلمان الذى انتخبه الشعب سنة ١٩٢٤ وكان أول
هيئة نيابية دستورية - وجدنا الباشوات والاعيان أيضا .

فاذا سرنا على الدرب ألفينا نسخا متعددة لطبعة واحدة
أو طبعات متعددة لكتاب واحد .

(١) عصر اسماعيل - عبد الرحمن الرافعى بك

فتارة نلتقى مثلاً بأصحاب السعادة :

أحمد ذو الفقار باشا

أحمد زكى أبو السعود باشا

أحمد على باشا

إسماعيل سرى باشا

حسين خيرى باشا

وتارة أخرى نلتقى بـ : -

حسين شريف باشا

محمد أفلاطون باشا

محمد العبانى باشا

حسن حسيب باشا

عثمان محرم باشا

محمد البدر اوى عاشور باشا

وهكذا تسير منذ بداية الحياة النيابية حتى اليوم بين صفين طويلين من الباشوات والاعيان . فاذا بلغت الهيئات النيابية الحديثة وجدت نفس الظاهرة ..

وأمامى الآن أسماء خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ لهيئة

قراطا فدانا

برلمانية حديثة - خمسة فقط يملكون - ١٧ ٦٥٠٠٠

ونحن طبعاً ، لا نفكر حين نعرض هذه الظاهرة فى التنديد بهيئاتنا النيابية ، ولا بأعضائها . وإنما نتساءل فى ضوء هذا الواقع هل يمكن لهذه المنظمات النيابية أن تمثل شعباً تسعة أعشاره من الحفاة العراة ؟

هل يمكن أن يوافيها الاحساس الصادق بالأم الجماهير الكادحة ؟

هل يمكن أن تسعى لحرية الشعب وحقوقه كاملة .. وهي تعلم ان كل حظ من الحرية يناله ينقص من حرية الأعلين، وكل حق يأخذه ، يصيب ثراءهم العريض بالنحول .. ؟

ان البرلمان البرجوازي ليس أكثر من تضامن الاعضاء مع الحزب الحاكم لتبادل المنافع والمآرب ..
والحياة النيابية لا تكون حياة .. قوية نابضة ، الا اذا كانت معبرة عن جميع خصائص الشعب .

وانا لنجد من الوقائع والتجربة ما يؤكد اعتقادنا بأن هذا التخطط الذي أصبنا به في الحقبة الأخيرة من حياتنا انما سببه الاكيد سوء تمثيل الحياة النيابية للشعب .

وحسبنا أن نسال :-

ماذا كان يحدث لو وجد بمصر في عهد اسماعيل برلمان قوى يمثل الشعب ، لا يمثل حفنة من أصحاب المصالح والاطيان ؟

وخير جواب على هذا هو سؤال آخر :

ماذا حدث ، ومجلس شورى النواب يومذاك يمثل ذوى المصالح والاطيان .. ؟

حدث ان اقترض اسماعيل :

١ - عام ١٨٦٤ - ٢٠٠٠ر ٧٠٤٥ من الجنيهات بحجة مقاومة الطاعون البقرى - ثم ترك الطاعون يعيث في البلاد والعباد ..

٢ - واقترض عام ١٨٦٥ - ٣٠٠٠ر ٣٨٧٣ من الجنيهات ليشيد بها قصر «ميركون» على ضفاف البسفور .

واقترض عام ١٨٦٦ - ٣٠٠٠ر ٠٠٠ ليشترى بها أملاك الأميرين مصطفى فاضل ، ومحمد عبد الحليم كي يتخلص من منافستهما له

واقترض عام ١٨٧٠ - ٣٠٠٠ر ٠٠٠ دفعها رشوة

للاستانة كى يظفر بلقب «خديو» وسافر بقيتها الى باريس .

واقترض عام ١٧٧٠ - ١٧٨٦ ر ١٤٢ ر ٧ لينشىء بها مصانع السكر الخاصة به ، وبمد سكة حديد زراعية تربط أطيانه المترامية بعضها ببعض .

واقترض عام ١٨٧٣ - ٣٢ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ رهن قبلها بعض مصالح الحكومة

وهكذا ظل يقترض حتى بلغت قروضه ٣٦٠ ر ٣٥٤ ر ١٢٦ من الجنيهات - (١)

حدثت هذه القروض المفجعة التى أروى بها اسماعيل هواه . وملاً الارض قصورا - فشيّد قصر عابدين ، وسراى الجزيرة ، وقصر القبة ، وقصر حلوان ، وسراى الروضة ، وسراى الاسماعيلية ، وسراى الرمل ، وسراى الزعفران ، وقصر رأس التين . وعشرات أخرى سواها

وحدث ان جاع الشعب . . لتشبع حفنة رديئة تعد على أصابع القدمين من بطانة اسماعيل وحاشيته التى يحدثناعبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه - عصر اسماعيل - أنها كانت من الفرنسيين والايطاليين والانجليز الذين لفظتهم بلادهم فوجدوا فى بلاط الخديو مرتعا وملاذا . .

وحدث ان أرهق الشعب بالضرائب ارهاقا منقطع النظر ، حتى جعل على الاغنام ضريبة ، وعلى الحمر ضريبة . . !
والآن : نعود ، فنسأل - ماذا كانت هيئاتنا النيابية ستصنع ، لو أنها تمثل جميع الشعب . . وآلام الشعب . . ؟
كانت ستكره الحكومة يوم امتنع الانجليز عن تسليح جيشنا على أن تتجه فورا الى دول أخرى نوع تلك الدول التى لجأت اليها انجلترا وأمريكا يوما ما .

(١) عصر اسماعيل - الجزء الثانى، عبد الرحمن الرافعى بك

كان سيحدث عند منازل «شاهنشاه ايران» عن جميع اطيانه للشعب أن تسبق الحوادث التي قد تستجيش أحقاد الشعب ، فتطلب الى آلهة الاقطاع في مصر أن يتشبهوا بالرجال .. ويردوا للأمة أرضها .

كان سيحدث عند ما أذاعت محطات العالم وكتبت صحفه « ان مكاسب كازينو ايفيان للقمار قد زادت عام ١٩٥٠ ٧٠٪ عن الاعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الاغنياء الذين يذهبون الى بحيرة ايفيان باحثين عن الاشياء المثيرة » .

ان يصرخ البرلمان في وجه الحكومة ..

من هؤلاء الباشوات .. ؟ وكم من ملايين الجنيهات أخذوا معهم ليشتروا بها لهوا عابثا .. ؟

أفنعجز هنا عن ان نحاسب (باشوات) .. وهناك في بريطانيا يقف بعض أعضاء مجلس العموم يحذرون الحكومة من أن تتحمل نفقات رحلة ملكي انجلترا الى جنوب افريقيا .. ولم يسكتوا حتى وافاهم وعد من الملك بأن نفقات الرحلة ستكون من جيبه الخاص .. ؟!

نعم - ماذا كان يحدث أيضا لو أن برلمانات الشعب هي الشعب .. ؟

كان سيحدث ، عندما تقدمت الحكومة طالبة اقرار مشروع قانون يفصل بين الشعب والقصر ..

قانون يجعل القصر الملكي «منطقة حرام» ويحرم على الأمة أن تتحدث عن مليكها بغير تصريح من وزير - أن ينتفض ويقول :

كيف يتحكم الوزير وهو موظف .. في شئون القصر وأخباره فيجعل بعضها حلالا - وبعضها الآخر حراما .. ؟ كان سيحدث ان يصرخ برلمان الشعب ..

نحن مصر .. ومصر ترفض أن تحاصر أخبار مليكها ، مصر ترفض أى سور يقام بينها وبين عرشها .. مصر ترفض أن تتلقت أخبار الملك من أفواه الإذاعات الأجنبية المفرضة ، والصحف المحرفة ..

ان الله ذاته لم يجعل الحديث عنه حراما .. وان اخبار الملك وتصرفاته السامية ليس فيها ما يخجل أو يريب .. حتى نضعها تحت رقابة وزير .. ! وعندئذ كان هذا القانون سيلقى نفس المصير الذى لقيه قانون الاشتباه ..

وكان سيحدث أن يطلب الى الحكومة الوقوف الحاسم الصارم فى وجه المهربين الذين سربوا اموال الأمة الى سويسرا حتى انخفض سعر الجنيه المصرى بالسوق الحرة بنسبة ٢٥٪ فى الصيف الماضى ..

كان سيحدث يوم اعتدى الانجليز على شرف الأمة اعتداء مسلحا، وزجوا بالكثير من أبنائها فى المعتقلات أن يقوم البرلمان نفسه بالثورة ، ويكره الحكومة عليها ولكن انى يكون ذلك ووراء كل هيئة نيابية من هيئاتنا جميعا دنيا عريضة من المصالح تذود عنها ، وتعمل من أجل بقائها وانماؤها ؟

كان سيحدث طوال هذه الاعوام التى قضيناها فى مفاوضات عابثة ، والتى وعدنا الاستعمار البريطانى خلالها بالجلاء مائة مرة - ثم كذب علينا مائة مرة أن يجتمع أعضاء « البرلمان » - أى برلمان - ويعلنوا بطلان معاهدة (٣٦) ويقرروا أن جيوش بريطانيا الرابضة فى القتال - جيوش معتدية يجب طردها - ويقرروا أيضا أنه لاقية للحياة النيابية تحت خفق الاعلام البريطانية .. واذن فيفلق البرلمان ، ويخرج أعضاؤه الى الشوارع والقرى ليقودوا الشعب كله الى معركة الحرية والاستقلال

والآن - الى القيد الرابع - وهو الفرائز الحاكمة المتربصة -
والحقيقة ان غرائزنا مجنى عليها .. وجانية .. .

لقد جنينا عليها بالكظم ، والقهر ، والاضطهاد .. فانقلبنا
الى قوات شريرة شرسة حين تفزع .. والى مخدر ميثبط
منيم حين تهجع !

وقبل الاستطراد فى الحديث عنها نسأل : ما الفريزة ؟
يعرفها علماء النفس بأنها سلوك فطرى خاص ، يقوم به صاحبه
فى ظروف خاصة ..

أوهى .. ميل فطرى يحمل صاحبه على عمل او اعمال خاصة
عند ظهور مؤثر خاص ..

ويضربون لنا مثلا - الغضب - انه استعداد جسمى عقلى
موروث يحمل صاحبه على الانتفاض حين يتحرش به عدو
معتد ، أو طاغية أثيم ..

ويعرفها علماء التربية والاجتماع بأنها الارادة الكامنة وراء كل
عمل يأتية الفرد أو الجماعة ..

نعم - الفرائز ارادة ، وبقدر ماتكبت غرائز شعب تكبت ارادته ،
وتطمر حياته ..

ودراسة التاريخ الانسانى تركزى اعتقاد المعتقدين بأنها قوة
قاهرة .. بالغة أمرها .. لاتنال منها الهزيمة منالا ، وهى حين
يختفى نشاطها فى سورة كبت أو ضغط .. فليس هذا دليل
انصراعها .. بل تكون آنثذ فى دور تهيؤ للانقضاض والانتقام

انها راسخة رسوخ النوع الانسانى ..

وفطرية تجرى من البشرية كلها مجرى الدم ..

ومريدة لا راد لمشيئتها ..

و ضرورية لبقاء الفرد والنوع معا

ولسنا نملك تجاهها سوى بذل المحاولات لتعليتها، وتقويمها
انها قوى الالهام والابداع ، ولكننا فى مصر والشرق نسيء
بها الظنون - شأنا دائما مع كل شىء نجعله أو نهييه ..
ونمضى نطاردها ونخنقها - دون ما ندرى اننا نطاردا الحياة
ونخنق فينا ارادة الحياة ..!

وقدي حسبنا القارىء مسرفين حين نقول : ان تحرير أنفسنا ،
وتحرير أوطاننا ، وتحرير عقولنا - كل هذا منوط بادىء الامر
بتحرير غرائزنا . بيد انه لن يلبث خلال مزاملته هذه السطور
أن يفىء الى هذا الرأى، ويسرف مع المسرفين ..!

والآن .. لكى نستبين قيمة الغريزة ، وأثرها فى الحضارة
الانسانية نضرب مثلا غريزة الخوف ..

فلقد أنشأنا المدارس - خوفا من الجهل ..

ووضعنا الدساتير - خوفا من الاستبداد ..

وأقمنا الحكومات - خوفا من الفوضى ..

وأنشأنا المستشفيات، ونبغنا فى علوم الطب - خوفا من المرض

وأقمنا المصانع والمخترعات - خوفا من العوز ..

وتحلينا بالفضائل ، وجانبنا الرذائل - خوفا من الله ..

وخطونا نحو الاشتراكية - خوفا من الشيوعية ..؟!!

وهكذا أفضت بنا غريزة واحدة - هى غريزة الخوف الى هرم

بأذخ من الثروة المادية والادبية - ولكن شعبنا العانى، تعاني غرائزه
محنة لا تطاق - هى نفس المحنة التى يعانىها الشعب من كبت
وحرمان - وكثيرا ما يتبادر الى بعض الاذهان أن اطلاق
الغرائز معناه العريضة والفجور.

وهذا اثر وهم موروث .. وجهالة مزمنة، فاطلاق الغرائز

يعنى اطلاق القوى الهائلة التى أودعت فىنا لتعمل وتثمر ..
وهذا الكتاب يضيق حجمه، وتضيق أغراضه عن حديث
مسهب مستفيض فى الفرائز .. وهو يحصر حديثه عنها فى بعضها
الذى تتمثل فى كفته مشكلة بلادنا

ونعنى بهذا البعض :

غريزة الغضب ..

غريزة النفور ..

غريزة الاقتناء ..

غريزة «أنا» .. وتشمل حب الشئ وحب الظهور

نزعة «المشاركة الوجدانية»

فهذه الفرائز، وأخواتها عامل أساسى فى طبيعتنا ، وهى تسمى،
أو تنحط تبعاً للغاية التى تجند لها، والوجه الذى تستخدم فيه
ولكن انحطاطها يكون مؤكداً ومضموناً إذا وكل إلى القهر أمر
تهذيبها ..

فاذا حرم على الشعب أن يغضب ، وحرم عليه أن ينفر
مما يكره ، وحرم عليه أن يذكر نفسه ويعتد بها ، وحرم عليه
أن يمتلك ويقتنى .. فلماذا يعيش ..؟ ولنبدأ بـ :

١ - غريزة الغضب :

ان وظيفتها المحافظة على النفس

ومثيرها - وجود العدو ..

والعدو المثير لها فى الجماعات هو - الاستعمار، والاستبداد ،
والقوانين المعتسفة، والاستعباد الاقتصادى .. إذا وجد شئ
من هذه ، أو جميعها فى شعب فذروه يغضب .. ان غضبه
هذا صمام الأمان - ومحاولة زجره عن الغضب ، كمحاولة

إطفاء النار بقاذفات اللهب ..! ولسنا بذلك ندعو الى شغب
أو فتنة - بل الى سكينه وسلام .. وانما دعاة الفتنة والثورة
بحق هم أولئك الذين يتحدثون طبائع الاشياء ، ويحاربونها
بقانون ..! وما احوج هؤلاء الفلاظ الى درس فى التاريخ ،
ليعلموا انه كان وراء كل ثورة كاسحة ، وانقلاب مدمر ،
واعصار وبيل - ركام هائل كثيف من القوانين حسبوها
زاجرة قاهرة فاذا هى وقود الثورة وخصب الانقلاب ..!

لقد ساهمت احزابنا جميعا، وحكوماتنا جميعا فى قمع هذه
الفريزة لدى الشعب فماذا حدث؟

حدث أن ترنحت بادىء الامر تحت الضربات المتساقطة فوقها
كالرجوم ، فعجزت عن توجيه طاقتها ضد المستعمر الدخيل ..
ثم استيقظت - فاذا طاقتها جميعها قد استحالت الى حقد
اسود على الذين اضطهدها .. وهم للأسف مواطنون من ساسة
وحكام ..!

ولوتواصت حكوماتنا بفريزة الغضب خيرا لحدث النقيض ..
كانت طاقتها ستتجه صخرية كاسحة الى المستعمر ، فتلفظه
من بلادنا - ثم اذا لم تجد منارها ولا اعناتا تتسرب فى مجال
نافع ، وتعبّر عن نفسها بمقاتلة العجز، ومباراة الطبيعة لاستثمار
أرضنا وسمائنا وهوائنا ..

وانه لمن دواعى الاسف والفجيعة - أن يقدر الانجليز
هذه الفريزة قدرها، ويتوسلوا بحسن التفاعل معها الى بقاء
استعمارهم وتنحية أحقادنا عنه

فحين استجاش حفاظنا حادث دنشواى تركونا نغلى كغلى
الحميم - حتى اذا أوشك البخار الحبيس على التفجير
والانقذاف - رفعوا الغطاء ، فتسرب البخار والهواء

وكان ذلك الغطاء - كرومر .. فنقلوه من مصر !

ولما وضعت الحرب الاخيرة أوزارها ، وأخذ غيظنا العظيم

من حادث - ٤ فبراير - يتراكم ويتجمع ويتحفر ، وارثج الاناء
بالبخار المهتاج - خطوا نحوه خطوة .. ورفعوا الغطاء
وكان هذه المرة .. كليرن !.

ولكن حكامنا - كبارا وصغارا - لا يؤمنون بعلم النفس ، ولا
يريدون أن يعرفوا اللحظة التي يجب أن يرفع فيها الغطاء !
لقد كبلت هذه الغريزة وكبلنا معها - بمجموعة من القوانين ،
وبالارهاب الموصول - فما المخرج من هذه القيود ؟

عندما نتحدث في الفصل القادم عن الحرية سنسبط
الطريق لتحرير هذه الفرائز العاملة المنشئة - أمامنا فنحن
فقط نعدد مظاهر اضطهادها ، وما يترتب على ذلك من مخاطر
وآثار ..

ان حكوماتنا من طراز عجيب
فهى تبطش بنا مع الباطشين، وتقول : حذار أن تفضبوا ..
وهى تدعنا نهب السارقين والناهبين ، وتقول : حذار أن
تفضبوا ..
وهى تسلبنا حرياتنا وتقول: ويل لكم ان تفضبوا !..

هى تسلبنا الحلم .. وتحرم علينا الغضب ..! حتى أصبحنا
تعصف بنا الحوادث ، وتذروننا ريع العذاب ، وتصفعنا قوى
الشر بأيديها ، وتركلنا بأقدامها .. فنرفع أبصارنا الخاشعة
الدليلة تجاه السماء .. فتبصق السماء عليها .. ثم تردّها الى
الارض دامعة خجلى ..

او لا يذكر الزعماء والحاكمون يوم كانت تصيبهم بما صنعوا
قارعة .. فيستصرخوا بالشعب .. ويخرجوا له كل يوم نداء
وبيانا ، فلا ينظر ، ولا يسمع ، ولا يجيب ، ولا يغنى عنهم شيئا. !
انهم الملمومون .. فهم الذين أخرسوا فيه صيحة الغريزة

بقوانين القهر التى ساهموا جميعا فى خلقها .. واحالوا طاقتها الى
حقدهم عليهم ، وعلى كل المعانى التى يمثلونها ، والقوى التى
يساندها ..

لقد نصبت حكومة عراقية مشائق الاعداء لشباب باسل
حر غضب من اجل بلاده على الانجليز المستعمرين - والانجليز
المستعربين ! .. ودقت حكومة اليمن اعناق مواطنين غضبوا من
ضلال الاستبداد ، وضراوة الفجور ، ووحشية الضمير ..
واقامت حكومة لبنانية من نفسها خصما وحكما .. واهدرت
حيوات شباب غضب من الرجعية السياسية التى تريد ان تلف
الشعوب فى مثل الضباب .. !

ومثل ذلك فى سوريا .. وامثال ذلك فى الحجاز .. ثم
يراد من تلك الشعوب المقهورة الغرائز وقد هاض قلبها جبروت
سادتها ، ورهبوت قادتها ان تفاضب المستعمر وتجالده .. ؟!
ان كل سياسى يكبل غريزة الغضب فى أمته بالارهاب والقوانين
لخائن أعظم ، وافاك أثيم ..

والحديث عن الغضب كغريزة واجبة الاحترام والرعاية ، حديث
يلتبس فيه الحق بالباطل عند مقام من الناس .. وقد يبارك
هذا الفريق كبت الغضب وقهره ومقته .. وقد يتفضلون فينعتونا
بالاحقاد لاننا ندفع عن الغضب كغريزة .. بينما الدين يستهجنه
كأثم وجريمة ..

وعفا الله عنهم - سلفا - وانهم لمخطئون ! !

فالدين ينهى عن الغضب ، كما ينهى عن الضحك .. بمعنى ان
الاسراف فى كليهما خطأ وفراغ . ثم هو ينهى عن الغضب الفردى
الذى يشيره التحرش بحق شخصى تمكن حمايته بالتودد والرفق ..
ثم هو ايضا يعنى باستهجان الغضب - التماذى والتطرف ،
وازجاءه على وجه فيه طيش ونزق وعدوان ..

ولكنه لا ينهى عن الغضب حين يكون استجابة طبيعية هادفة

لصيانة حرمان الشعب وحقوق الجماعات

فهذه عائشة زوج الرسول تقول :

« ما غضب رسول الله لنفسه قط .. فاذا انتهكت لله حرمة ،
فلا احد اشد منه غضبا ! .. »

ان حرمان الشعب كحرمان الله - فحين تنتهك ، وتتسورها
الذئاب يصبح الغضب بوسائله المشروعة طبيعة وواجبا . .
ولقد غضب الله ذاته في موقف مشابه . .

فحين جابه أبو لهب رسول الله بقوله : تبت يداك . . الهذا
جمعتنا . . ؟ تقاذف الوحي في سرعة البرق ، ورجم الصواعق .
« تبت يدا أبى لهب وتب .. ما أغنى عنه ماله وما كسب ..
سيصلى نارا ذات لهب .. »

فاذا قام في الشعب من المستكرهين الجبارين من يتبه ،
ويعنته كان جزاؤه تنبئنا واعناتا

غريزة النفور ! ..

ومن الفرائز التي حرم الشعب من نشاطها المنشئ ، وانكفات من
طول اضطهادها تعمل ضده ، لا معه - غريزة النفور ..

وانا لنسأل :

هل يمكن ان يساق الانسان الى طعام كريه . ؟
هل يمكن ان يقبل مختارا على شراب مرير يتجرعه ولا يسيغه . ؟
اننا ندعو الحاكمين ان يجربوا ذلك ، ولو مرة ..
خذوا لقمة عفنة .. او حشرة دسمة .. وضعوها في أفواهكم
وامضغوها ، وتلمظوا بها ، واستحلبوها . . ثم انظروا
ما سيحدث ..

سيحدث طبعاً تقرر ونفور وغثيان ..

واذا دلف اللعاب الى الجوف بشيء من هذه الطعمة الكريهة
فسترفضها الامعاء في عنف فيحدث تجشؤ وقيء

ان هذا الطعام المقدوف - يصور لنا قوة الغريزة بوجه
عام - وغريزة النفور بوجه خاص . .

ويدل في معناه العميق - على ان النفس البشرية ترفض بمثل
الطريقة التي ترفض بها المعدة . . كل نظام يرهق كاهلها ، وكل
ارادة تكبل حريتها، وكل مستوى معيشى يزرى بأدميتها . .

وان ضمير الشعب ينفر من كل جور ، وغدر ، ونهب ،
وتفاهة . .

ولكن شعبنا الاسيف محرم عليه ان ينفر ، ومحرم على غريزة
النفور ان تؤدى وظيفتها

مطلوب من الجماهير ان تبسط يدها الى اللقمة العفنة ، او
الحشرة الدسمة . . ثم تدسها في فمها ، وتستحلبها كما تفعل بأى
شيء حلو لذيد . . !

اى فارق بين هذا ، وبين اكرامها على الاقبال على نظم
لا تريدها ، واوضاع لا ترضاها، واشباح غريبة لا تعرفها ولا
تألفها . . ؟

اى فارق بينه ، وبين تجريعها المظالم المريرة المتمثلة في حكم
الفرد ، والاقطاع الفاحش ، والرجعية الراكضة . .

والام نعزو هذا التعفن والبلى والجمود في حياتنا السياسية ،
والاجتماعية ، والاقتصادية . . ؟

ولكن قبل ذلك . . هل في حيواتنا هذه تعفن ، وبلى ،
وجمود . . ؟

نعم . . واكثر من نعم . . !

نعم . . رغم تلك القصور الشاهقة ، والبنائيات السامقة ،

رغم تلك العزبات الفاخرة ، والحفلات الساهرة .. فما هذه وحدها مظاهر البعث والتجديد !

ان بعث الامة ونشورها يتمثلان قبل كل شيء في تجديد حياتها السياسية ، ونظمها الاقتصادية ، ومساريتها ركب الحضارة وموكب الايام . .

ولقد رأينا في بداءة هذا الفصل كيف كانت سياستنا ، واقتصادياتنا ومجتمعنا .. وهى صورة حياتنا الماثلة ، مخلوطة ببعض الالوان الزاهية الملتمة ..

ما ذا طرأ علينا من تغير وتطور .. ؟

كنا بالامس « عبيد الباب العالى » ..

ونحن اليوم - عبيد الحزب الحاكم ..! أى حزب ..

كنا بالامس نعيش فى بلادنا « ملتزمين » وكان السلطان هو « المالك الحر لجميع ارض مصر » .

ونحن اليوم نعيش ايضا « ملتزمين » وعشرات الاسر والبيوتات هى « المالك الحر لجمع ارض مصر » .. !

كنا بالامس لا نملك نقد الوالى ولا معارضته ولا تقويمه ..

ونحن اليوم لانملك نقد الحاكم ولا تقويمه .

كنا بالامس ضحايا النهب ، والرشوة ، والاستغلال ..

ونحن اليوم كذلك أيضا

كنا بالامس نجلد بالسياط ، وليس فينا برلمان ..

ونحن اليوم نجلد بالسياط ، وفينا برلمان .. !

كنا بالامس مسلوبى الحرية ، والارادة .. وليس لنا دستور ،

ونحن اليوم مسلوبو الحرية ، والارادة ، والكرامة .. ومعنا

دستور .. !

كنا بالامس امة مستعمرة باكره ..

ونحن اليوم امة مستعمرة بمعاهدة .. !

كنا بالامس امة تتربص بأعدائها

ونحن اليوم امة تتربص بنفسها .. !

كنا بالامس شعبا تلهبه الشياطين فيتقاذف الى امام ..

ونحن اليوم شعب تلهبه الشياطين ، فيتراكض الى وراء .. !

كنا بالامس نقبل اقدام سادتنا ونعتذر لانفسنا . بأنهم وضعوا
فيها قلوبهم ..

ونحن اليوم نقبل اقدامهم .. ونعتذر بأنهم وضعوا فيها قلوبنا !

كنا بالامس امة معزولة عن العالم . لا تعتمد الا على نفسها .

ونحن اليوم امة في « هيئة الامم » تعتمد على غيرها .. بل
على اعدائها .. !

هذه حقائق امرنا .. في امسنا ويومنا .. اما ما وراء ذلك من
زينة وزخرف . فليس اكثر من طلاء اردناه ليستر مقابح الماضي
الذي نعيش اليوم فيه ، فازدادنصاعة وبيانا .. !

ونعود نسأل :

الى اى شيء نعزو هذا البلى والانحطاط والجمود .. ؟!

انه في نظرنا ثمرة تعطيل غريزة النفور في المجتمع ، وتحويل
طاقتها الهادفة الى نكوص واضطراب ..

فدور هذه الغريزة في التطور الانساني من اهم الادوار واطورها
.. وبها يتأتى التجديد المستمر .. والانشاء والابداع ..

فنفور الانسانية من الدابة . حفزها الى اختراع العربة ،
فالقطار ، فالطائرة ..

ونفورها من حياة البادية والكوخ .. دفعها الى انشاء
المدينة وتشيد القصور ..

ونفورها من الظلم افضى بها الى العدل ..

ونفورها من الاتوقراطية .. دفعها الى الديموقراطية ..

ونفورها من الاستعمار .. قذفها نحو الحرية ..

ونفورها من الاستغلال .. ادى الى الاشتراكية ..

ونفورها من الانقراض .. حتم عليها المسيرة ..

ونفورها من الحرب .. دفعها لنشيدان السلام ..

فلو اننا اطلقنا سراح هذه الغريزة ، وتركناها تؤدى الدور
الذى وجدت لادائه ، وعاونها في نضالها . لكننا اليوم امة اخرى .

ان الحكم المطلق يعتمد في عمله لبقائه على اضعاف هذه الغريزة
ليموت في الشعب كل احساس بالمساوىء وتبتدد كل محاولة
للتفكير او التغيير

فالشعب الذى تحول فيه طاقة هذه الغريزة عن وجهتها -
يصير مأساة مفردة ، وكارثة متفوقة ..

لانه يقع به الظلم .. فلا يفر منه الى العدل .. !

وتعضه الفاقة .. فلا يفر منها الى الرغد .. !

وتهوى على ظهره السياط .. فيزداد انحناء لتلقيها ..

وتسلب اللقمة المعجونة بدمعه من فمه .. فلا يقلب كفيه على
ما انفق فيها ..

وهذا غاية سعى المستغلين والمستبدين .. انهم لا يريدون
شيئا آخر سواه ..

فاذا كنا اليوم نريد لبلائنا تجردا وانبعاثا .. فلنفض عن
غريزة النفور وعن اخواتها - قيودها الظالمة ، واغلالها الائمة .

ج - غريزة انا ..

منذ ثلاث عشرة سنة تقريبا ، كنت استمع مع جمع غفير ، الى محاضرة متوهجة ، كان يلقيها الاستاذ محمد توفيق دياب .. وكان من عباراتها .. كلمات لا تنسى ..

« .. انظروا فيما حولكم من الامم ، تروا مواكب العز والسيادة .. وتسمعوا الانجليزى يقول : انا انجلترا .. والفرنسى يقول : انا فرنسا ، والالمانى يقول : انا المانيا .. فمتى نستمع المصرى يقول : انا مصر .. ؟ »

سمعت هذه الكلمات فى ناشئة العمر وحادثة السن ..

وظل العقل الباطن امينا عليها حفيظا لها .. حتى وجدتها تبرق الآن فى خاطرى على غير موعد او انتظار ..

ونحيت الورق جانبا ، وشرعت اتصور مرة اخرى ذلك المشهد فى قاعة « اليسيه فرانسيه » . وعلى مسرح القاعة ، وقف الرجل كأنه كرة ملتهبة تتقاذف ذات اليمين وذات الشمال .. والى تجاهه جلس حشد من المستمعين تمسه الكلمات مس الكهرباء فيجلجل ويصيح .. !

ثم عدت الى الساعة التى انا فيها .. وساءلت نفسى :

ترى هل استطاع المصرى بعد هذه الاعوام ان يقول : انا مصر ؟ ام هى لاتزال امنية من الالمانى والاحلام .. ؟

ان غريزة حب الذات وتوكيدها احدى الفرائز التى وقعت فى اسر الظلمات - وحيل بين الشعب وبينها .. كما حيل بينها ، وبين طاقتها ووجهتها ..

انها سليقة من انبل وانفع سلائق الانسانية .. والذين امروا عليها فى بلادنا ليسوا فقط الاستعمار والاستبداد .. بل ومعهما - او ربما قبلهما رجال الدين الذين لا يفقهون الدين ..

ورجال التربية الذين لا يحسنون التربية . .

فقد مضى هؤلاء واولئك يلقنون الناس ان احتقار النفس وبغضها ونسيانها . . هو الهدى والفلاح !

وقالوا لهم ، فيما قالوه ، ان الله لم يطرد ابليس من الجنة الا من اجل كلمة واحدة قالها هي : انا . . !

وهناك اثنان من الكتب تدور جميعها حول هذه الافكار الرديئة المدبرة . . وينسى اولئك المربون والمعلمون ان الرسول قال : انا . . انا سيد ولد آدم ولا فخر ، قاله ادون ان تنقص من تواضعه شيئا اننا شعب مستضعف . . لان فيه ضعفا . .

ومستعبد . . لانه يحس العبودية ويركن اليها . . !

وسر ذلك اطفاء احساسه بنفسه ، وتحطيم اعتداده بذاته ، وقمع «غريزة» الانانية المستنيرة الرشيدة فيه . .

وهذا الموظف البسيط الذي يرتجف امام رئيسه . . يمثل في نطاق اوسع . . الامة كلها عندما ترتجف امام مذلها ومستعمرها ! وتمثله ايضا عندما تتهاوى تحت مواد القوانين الزاجرة الرابعة دون ان تملك ازاءها حولا

وتمثله حين تنماع شخصيتها وتتلاشى في كل فكرة تطرق بابها . . وكل دعوة تستثير حماسها . . وكل استثمار يزور ديارها دون ان يكون لها عاصم من ريث واناة . . وتمثله كذلك حين تتهافت على ارضاء حاكميها ، وتهتف بحياة قاتليها . . !

لقد كان اعجب ما صادفني وانا اقرأ تاريخ امتي ان سلطانها الحاكم بأمر الله - ادعى الالوهية ايام اصابه مس الغرور والجنون وامر باعداد « سجل تشريفات » ليستقبل اسماء المهنيين للحاكم ، والمؤمنين بالوخته البلهاء . .

ولم تغرب شمس اليوم الاول حتى كان دفتر التشريفات قد

غص ، وازدحمت صفحاته بتوقعات وبصات سبعة وعشرين ألفا من الشعب المبرور .. !

ثم رجعت البصر الى عصرنا هذا الذى نعيشه ، فوجدت نفس المشهد يتكرر مع كل حكومة تؤلف وعهد يقوم .. بل وجدت مائة ألف او يزيدون - ينتظمون الموظف والعامل والجامعى المثقف يستقبلون « كلين » بعاصفة من التصفيق تصم الآذان ، وهو يطل عليهم من شرفة مجلس وزرائنا .. كأنه القمر ليلة البدر .. !

ثم وجدتهم يحملونه على الرؤوس والاعناق .. كل ذلك صبيحة الامسية الظلماء التى اقترب فيها - ببسالة نادرة - جريمته وحصاره ..

لو كان هذا الشعب تعلم من زمان . ان يقول : انا .. وجرت من روحه وعصبه وكيانه مجرى الدم .. لنهض فى اهابه كائن من الحرية والكرامة والكبرياء يترفع عن كل صفار .. ويستعصى على كل اغراء واذلال ..

غريزة الاقتناء ..

عند ما كان الاتراك القدماء يملكون مصر ، استدعى أحد ولاتهم فلاحا امتنع عن دفع المكوس المفروضة ، وسأله :

— لماذا لم تدفع المكوس أيها الفلاح ؟

فأجابه .. لقد دفعت كثيرا يا سيدى حتى لم يبق لدى ما أدفعه .. وان أرضى لم تغل هذا العام شيئا .. !

وغص الباشا التركى بباء المتكلم فى كلمة « أرضى » وانتفض من مقعده ، ولطم الفلاح المصرى على وجهه وقال :

.. وأيضا تقول أرضى .. انها أرض السلطان ، وأنتم عبيده ومواليه ..

لقد أجليت هذه الغريزة عن مكانها ، وحل بديلها ، غريزة الحرمان .. أو تقول دون أن يكون فى التعبير تجوز :

ان هذه الغريزة جوعت طوال الاستعمار التركي الذى قبعنا فى ظلماته ثلاثمائة عام .. ثم لا تزال تجوع ، وترغم . فاذا كان الساطان التركي الذى يملك جميع أرض مصر قد ذهب وطواه الموت ... فقد حل مكانه عصا من الاقطاعيين تملك البلاد وانعباد .

والجماعات حين تحرم من أن تمتلك أرضها ، وثمار كسبها وكسبها .. أو أن تمتلكها الدولة لحسابها . يكون ذلك وأدأ وقتلا لغريزة من أهم الغرائز اتصالا بوجودها وبقائها وسلامها ..

ان فى الفرد غريزة تسمى « غريزة الاقتناء والتملك » تظهر فى دور الطفولة - فترانا نجتمع للعب ونقتنيها ، ثم تصاحبنا فى أطوار حياتنا جميعا - وتختلف حالها الوجدانية لدى الناس ، فاذا كانت مهذبة سوية عبرت عن نفسها باقتناء وسائل الهوايات الخاصة كالصور ، وطوابع البريد التى تتيح لصاحبها حياة رغدة تقوم على التكافؤ لا على الانانية والشره والعدوان .. واذا كانت جشعة مفترسة تظهت فى اقتطاع الارض ، واقتناء التفاتيش وابتزاز الحقوق والاموال ..

وفى بلادنا هذه - يوجد سادة يعيرون الشيوعية بأنها ضد الطبائع الانسانية ، لانها تحرم الامتلاك وتهدم بذلك غريزة انسانية عاملة .. يقولون هذا ثم يتحدثون هذه الغريزة ويضطهدونها ، ويحرمون الجماهير من الاقتناء والامتلاك .. ؟ !

أتراهم اذن شيوعيين ؟ !

قد يعارضوننا متسائلين :

ألسنا نتيح للناس أن يقتنوا ثيابا ، ويمتلكوا بيوتا ، وحيوانات .. ؟

ونجيبهم . نعم ، والشيوعية أيضا تتيح لهم ذلك ، وأكثر من ذلك .. !

ولكننا نريد حقنا فى هذه الارض التى سقتها وسوتها

سواعد آباء لنا كابدوا فيها الهول والشقاء ، وكان كل عزائهم أنها ستصير لاحفادهم مثابة ورزقا ..

لقد سبقنا في كتابنا -الاول- الاحصاء الرسمي الناطق بأن أكثر من ستة عشر مليوناً في هذا الشعب لا يملكون سوى عرقهم المسفوح ، وعذابهم المقيم .. !

ولقد كانت خطورة المسألة تتبدى هناك في المخاطر التي يفضى اليها هذا التفاوت الفاحش بين من يملكون كل شيء - ومن يفقدون كل شيء .. !

بيد أنها هنا تتبدى أمام بصائرنا أشد تজেها وعبوساً وفضاعة ..

فهى كما نرى الآن تتصل بغرائزنا التي أقامها الله فينا ، وناط بها وجودنا وحياتنا .. .

انها كغريزة الجوع ليس لها علاج سوى الطعام .. وكغريزة الجنس ليس لها علاج سوى اللقاء .. انها كذلك .. ليس لها علاج سوى أن أمتلك كل حقوقى قبل الدولة التى سمحت لى بأن أوجد فيها ، وأسعى على أرضها وأشقى فى العمل من أجلها .. فإذا لم تجد غريزة الاقتناء حظها - فانها كأي غريزة أخرى - لن تموت ولن تفنى . بل ستتغير اتجاهها ، وتنتقم لنفسها ، فبدلاً من أن يتسرب نشاطها فى الإيحاء والتعمير .. يتفجر فى التقويض والتدمير !

هـ - المشاركة الوجدانية

وهذه النزعة مساك الوحدة وقوام التكتل فى الأمم والجماعات .. وإذا أدركنا أبصارنا فى شعبنا فوجدناه مزقاً وأشتاتاً .. والفيناخ حابى الشعور خافت الصيحة ، فلأن حكوماتنا المتعاقبة ، والاستعمار المجهز من ورائها - قد أفسدوا عليه أسمى نزعاته وانغمها ، تلك هى « المشاركة الوجدانية »

وحتمية ترعرع هذه النزعة ليست فقط من أجل تعاطف الشعب وتضامنه بعضه مع بعض .. بل قبل ذلك من أجل تضامنه مع الحكومة، وتضامن حكومته معه في الالتزامات .. انها حين تستقيم تصير صمام الامان الذى يجنب المجتمع عدوان الدولة ، ويجنب الدولة انتفاض المجتمع .. ويؤلف بينهما ، ويؤاخي بين ما لكل منها من مشاعر وخطط وأهداف .. ليتحركا معا صفا واحدا نحو الغايات التى اختارها وآثرا العمل لها ..

ولا يمكن قط أن تقول أمة : اننى بدأت المسير الى المجد .. قبل ان يتم بين حكومتها وشعبها هذا التضام والترابط والمشاركة ولان الاستعمار لا يريد لنا أن نسير ، فقد استغل هذه النزعة وتوسل باضعافها وارهاقها وتضليلها لبلوغ كل ما يريد لبلادنا من ذلة وانكسار وفرقة

لطالما مكن الرسول عليه السلام لهذه النزعة وعمل لانهاضها ورعرعتها حين كان يدعو الى التجمع ، ويحذر من التخاذل والعزلة ويقول ..

« اما يأكل الذئب من الغنم القاصية .. »

وحين جعل مثل الجماعة المتكاثفة كمثّل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر .. وحين اخبر أن أبعد الناس عن قلبه ، وأبغضهم اليه هم المفرقون بين الاحبة .. المشاءون بين الناس بالنميمة .. وحين ألزم نفسه يوم كان المسئول عن أمته وجماعته أن يكون أول جائع اذا جاع الناس .. وآخر من يأكل .. اذا وجد الناس ! ..

وحين رفض ايمان كل رجل يبيت شعبان ، وجاره بجواره طار بطنه على جوع ..

ان المشاركة الوجدانية في الأمة هي عصبها ، وغددها ،
وسبب النماء والقوة فيها ..

يقول ماكدوجل :

« .. انها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التي تحدث عند
الانسان عندما يجد انسانا آخر متأثرا ، فتجعله يشعر بنفس
شعوره .. كما لو كان قد انتقل هذا الشعور اليه بطريق العدوى . »

ومعنى هذه العبارة في دلالتها الواسعة .. انها التيسار الذي
ينتظم مشاعر الملايين ويتجه بها في خط طول واحد الى حيث
يؤدي غرضه على اكمل صورة وأتمها .. . واذا عجزنا عن
الاستنجاد بما في انسانيتنا من حوافز ، فلنتعلم من الحيوان ..
انه قادر على أن يهدينا سواء السبيل !..

يقول العالم الالماني كهلز: (١)

« .. ان قرود المزرغة كلها كانت تندفع نحو أى شيطانزى
صغير وتعايقه الواحد، تلو الآخر، بمجرد سماع صرخة واحدة
تند عنه .. »

ويقول العالم الأمريكى هولمز:

« .. ان جماعة النمل والنحل، وكثيرا من الحشرات يظهر عليها
الغضب ، حين يفضب واحد منها لسبب ما .. فتأخذ في
التجمع من غير أن تدرك له سببا .. »

ويروى لنا بعض تجاربه الشخصية فيقول: انه استثار
مرة قردا فصرخ، فاذا جماعة القروود تخف اليه وتتجه نحو
«هولمز» لتثار وتنتقم ..

يقول هولمز : « .. حتى ان القردة الوديعه «ديانا» هجمت

علي بتوحش ، معانى كنت قبل ذلك بفترة قصيرة الابعها ، واقدام
لها الهدايا .. « !!

اى كارثة ماحقة اصاب امتنا فلم تعد تجد من الأباء والوطنية
والمشاركة مثل ما عند القردة الصغيرة ديانا .. ؟!

لقد استجابت «ديانا» لواجبها نحو جماعتها فذهبت تعض
اليدين التي كانت تطعمها وتناغيها .. لأنها اعتدت على زميلة لها
أو زميل ..

وفي بلادنا قوم لا يطعمهم الاستعمار .. بل يستذلهم
ويمتهنهم ومع ذلك لا يقفون مع الجماعة ضده .. بل العكس ،
ويتروكون القردة «ديانا» تحقق وحدها المثل العليا ، وجلائل
الأعمال .. !

ان الاستبداد والاستغلال هما «الجامبيا» التي تمتص من هذه
النزعة النبيلة طاقتها ..

أفلا ترون .. ؟

هذا الاستعمار الذى يمنحنا كل يوم وعدا مكذوبا .. ويلطمنا
كل يوم لكمة عاتية ..

والذى يتصرف فى بلادنا دون اعتراف حتى بمجرد وجودنا ..
فيتفق مع امريكا على القواعد الحربية فى بلادنا .. !

والذى يحثم على كاهلنا ، ويشير الفتن بيننا لتظل له ..
الكبرياء والنفوذ فى الارض ..

والأ ترون .. ؟

هذا الفساد السياسى الذى جعل مصر أشبه ماتكون بصحيفة
تكتب العناوين الكبيرة بحروف عربية .. ثم تملأ صفحاتها
بحروف تركية ..

اعنى ان سلطاتنا التنفيذية ذات طابع مصرى .. ولكن سلوكها كله ، وأنظمتها كلها ، وتقاليدها جميعها لا تزال بقية مما ترك الأتراك المستعمرون .. هذا الاستعمار ، وهذا الفساد ! أين الشعب منهما .. ؟ انه يهتمهم ، ويفغمهم ثم لايزيد .. بل حتى هممته تخرج متنافرة متخاذلة ليس بينهاتناغم وتشلوك انسجام .. !

لماذا .. ؟ لان نزعة المشاركة الوجدانية فيه لا تؤدي وظيفتها ولا تستثمر طاقتها طبقا لخطة موضوعة تواصى بها الاستعمار والاستبداد .. فصار عاجزا عن أن يصنع صنيع الشمبانزى حين يضام منها قرد صغير .. !

هذه هي المطارق التى تتهاوى فوق محاولتنا ، وتنهال على امكانياتنا :

- ا - الاستعمار التركى الذى ذهب حكامه ، وبقيت أحكامه
 - ب - الاستعمار الانجليزى بنفوذه السياسى ، واحتلاله العسكرى ..
 - ج - البرلمان البرجوازى الذى يمثل غفلة الشعب وطاعته لاوعيه ومشيشته ..
 - د - الفرائز الناقمة التى أضناها طول الاضطهاد ، فمضت تعمل ضد المجتمع لا معه ..
- والخلاص من هذه الاوزار لايتأتى بوسائل مناقضة للقانون .. بل الطريق اليه سوية ممهدة .. تعتمد على النظام والحب والمثابرة .. وكلها خليقة من الحكومة والشعب بالتقدير والاحترام .

وسنبدع الآن الاستعمار البريطانى حتى نلتقى به فى الفصل الاخير من الكتاب ..

وسنشد في فصل جديد ، هو الفصل القادم .. اسباب
النجاة من الماضي الذي يطاردنا، ومن البرجوازية النيابية المستغلة
التي تعتاق نمونا، ومن الحصار المضروب حول غرائزنا وقوى
الحياة فينا

فالى هناك ..

الحرية .. هي الخلاص

« ان الله الذي وهبنا الحياة ...
وهبنا معها الحرية في نفس اللحظة
ولنفس السبب
جيفرسون

قصة الحرية ..

كان من المقدور للانسانية أن تظل شيئا غير مذكور لو لم يستحوذ على قلبها هذه الحروف الوضاء للكلمة الساحرة الاسرة - الحرية ..

فلما وجدت بردها خاضت من أجلها معركة الدهر - ولا تزال تخوضها .. بيد أن لنشوء هذه المعركة قصة جديدة بالتدبر والامعان ..

انها لم تبدأ كما نحسب يوم الباستيل .. بل يوم بدأ الانسان القديم يحس ، ويسمع ، ويرى .

يوم بدا له ، وهو يتسلق الاشجار فرارا من السيول ، ويأرز الى الكهوف حذرا من الصواعق ، والوحوش .. ان الطبيعة تتحدى حريته : وتناوى طموحه . ومضى يتلفت عن ايمانه وعن شمائله ؛ فلم يجد له نصيرا سواه ..

وانساب في روعة رجوع صوت بعيد مقبل من الازل :

لقد وهبناك الوجود ، ولن نمحك بعده شيئا ؛ ففاضل لتحيا .. أو استسلم فتموت . !

ولم يطل تلبثه وانتظاره ؛ واستبان له هدفه كفلق الصباح ومضى نحوه في اصرار وعزم .
ترى أى هدف آثروا اختار ؟
هو هذا -

● تأمين وجوده .

● واستثمار هذا الوجود .

أترانا بعد ملايين السنين نعرف ؛ أو ننشد سوى هذا الهدف المزدوج الجليل ؟

ولكن ضد من ذهب الانسان القديم يؤمن وجوده ؟

ليس ثمت سفاكون يحذرهم؛ ولا اقطاعيون يتهيبهم . .
نعم ، ولكنه ألقى نفسه وجها لوجه مع الوحوش المتقحمة تعيث
فى الارض باحثة عن ذلك النزىل الجدىد لتماماً بأشلائه
أمعاءها . .

ومن هنا بدأت قصة البغى والمقاومة .
وهناك أملت الوحوش الباغية على الانسانية الناشئة شروطها
دون أن تترك لها حق الاختيار .

فأما أن تختفى فى الجحور والمغارات فتسلم ؛ وأما أن تسير
على ظهر الارض ، وتمشى فى مناكبها فيفترسها كل ظفر
وناب . .

● تماما كما يصنع اليوم المستبدون مع رعاياهم . . فأما
أن يتلفعوا بالصمت والتسليم؛ فيسلموا . . وأما أن يحترموا
آدميتهم ؛ وينشدوا لانفسهم حقوق الآدميين ، فتدوسهم
القوة ، ويهصرهم النكال . .

ماذا صنع الانسان؛ والوحوش تجوس خلال كهوفه . . هل
قبع فى ظلامها . . أم خاطر من أجل حرته . . ؟

لقد خرج بحوله المتواضع ؛ وقوته الناشئة . . وصاح
بالوحوش الوقحة صيحة التحدى . . وكان ذلك الاقدام ثمرة
ادراكه لقيمة الحرية .

لقد رآها ضرورية لبقائه ، وآثر أن يموت فى الافق المتراحب
موتة جريئة باسلة . . على أن ينفق فى جحوره نفوقا بطيئا . .

● تماما - كما يحدث اليوم فى الشعوب المقهورة حين تدب
فيها شجاعة اليأس ، فتغامر بحياتها مغامرة تفضى بها الى
الحياة . .

وكانت خطة الجماعة الانسانية الناشئة أن تتقدمها طليعة

فدائية - ليس مهمتها أن تنتصر بل أن تموت .. ولكن بعد أن تكون قد فتحت الطريق أمام الموكب الزاحف الواجف .. وقد كان .. وفي كل رحلة من رحلاتها المتساوقة كانت لها طليعة تلتحم مع الذئاب والوحوش التحاماً ، ثم يسقط أفرادها صرعى لتكون جثثهم جسراً تعبر عليه الجماعة إلى هدف جديد .

وذات يوم ، والطليعة راكضة دمدمت السماء برعدها ورجومها فازدادت الطليعة ركضاً واقتحاماً .. وتحدث الرعد والصواعق والرجوم ، وأبت أن تدع الأرض التي وقفت عليها حتى تسلمها للزاحفين على أعقابها ..

● تماماً كما يصنع اليوم رواد الجماعات المستعبدة ..

اذ يمشون أمامها ، ويرسمون لها الطريق بأفكارهم ، وأقلامهم فيصرعهم البغي - ولكن دماءهم المراقبة تبقى وهجا يرسل على طول الطريق ضوءه وسناه ..

وذاق الانسان طعم الحرية؛ وأحسها احساساً شيراً فجرفه البصيرة والخيال

وكان من أعضاء الجماعة الانسانية الاولى من انطبعت فيهم سلائق الوحوش من طول معاشرها وكابدوها .. فما أن استقرت الجماعة في مدنها وقرائها حتى كانت هذه الطبائع تتحفز للظهور والسموق بعد أن أنهت فترة الاختمار .. وكانت الوحوش قد غلبت على أمرها ،

ودالت دولتها .. فانطلقت هذه القلة المحاكية الباغية تمثل في جماعتها - دور البأس الوحشي المنقرض ، وتقمصت الحيوانية المفترسة أجسادهم كي تعمل عن طريقها .. فشنوا على اخوانهم الغارات .. واختطفوا الناس واتخذوهم رقيقاً .. ثم احتوشوا الضياع ؛ وأقاموا الاقطاع .. ثم شادوا الامبراطوريات ؛ وجعلوا أنفسهم أباطرة وفراعين ..

هذا تصور ؛ أو تخيل لنشوء الصراع بين الاستبداد والحرية

وتطوره ؛ لم يكن لنا عنه غنى . . ليعلم أولئك الذين يسومون
الشعوب المقهورة اليوم سوء العذاب انهم ليسوا سوى امتداد
معنوى لوحوش الغاب وهم غرباء عن الانسانية دخلاء عليها
ووظيفتهم فى هذه الدنيا - تعويق التقدم الذى يعتمد على الحرية
وانطلاق الكرامة الانسانية من وطأة المهانة . . وفض قيود التبعية
والخضوع عن البشر . .

ولقد سارت المعركة مع وحوش آدم . . كما كانت تسير من قبل
مع وحوش الغاب .

وكان كل ظفر تحققة الجماعة حافزا الى جهاد أشد وأعظم . .
ولكأنما كتب عليها أن تودع الراحة الى الابد ، وألا تضع
العصا عن عاتقها حتى تقضى لنفسها أمرا . . ترى ماذا كان
حظ آباءنا الاقدمين فى هذا النضال ؟

لقد كان عجبا . . أى عجب . ولكن ليس من طبيعتنا ، كما
انه ليس من صالحنا أن نتباهى بعمل أهل القبور . وحسبنا فقط
أن نذكر ، ان بعض مؤرخى التطور الانسانى يقررون ان
أول حركة قامت فى الدنيا ضد الاستبداد السياسى ، والظلم
الاجتماعى كانت فى مصر أيام الفراعين . . وعن مصر أخذ
العالم القديم الدرس فحذقه ، وأبى أن ينساه . .

وكان لشعب مصر أيام حركته تلك . . صلاة يتلوها فى
المعابد .

— أيتها الآلهة .

ان فرعون يذلنا . . ويضربنا

والارض التى يقول انكم وهبتموها له ترهقنا . .

— أيها الآلهة .

اعطونا راحة . .

واعطونا أرضا . . !

ان ظهورنا قد انحنت ..

فأقيموها ! . .

ولكأنما سرت هذه الترنيمية في وجدان الانسانية بصورة
لا تزال مستسرة خافية ولكنها متطورة نامية .

فلقد وجدنا بعض الشعوب المنتفضة تصلى ابان انتفاضها
فتقول :

قفوا - يا عبيد الارض . .

قفوا - يا عبيد الجوع . .

سيروا مع البركان . .

البركان الذى سيأتى على القديم ، ويمحو الماضى جميعه .

سيروا على الشوك . .

سيروا على الجليد . .

وقفوا وقفوا أيها العبيد .

ان عدو لنا أراد الدمارا ولا رضى نعزها اقفارا

فسنلقاه بالجواب الاشد القوى الصدى كقاصف رعد

كسنا البرق يخطف الابصارا

لكن التطور يستحدث وسائله ويجدد أدواته . . فبعد أن كان
لا يحقق أغراضه الا بالقوة والعنف صار من الممكن تحقيقها بالتحول
والاقتناع والالانة . . وأصبح يعزف عن الدم - ويبحث عن الزهور .
ويتقزز من الموت ويريد السلام

واذا كانت مصر اليوم وغير مصر من الامم المغلوبة - تريد
الحرية وتسعى اليها . . فأتحوالها أيها الحاكمون أن تسلك
طريق الزهور ، والحب ،

هل الحرية ضرورة ؟

ولكى ينشأ تعاون وثيق بيننا جميعا ؛ حاكمين ومحكومين ،
تحقق عن طريقه أغراضنا المتمثلة فى الحرية والعدل ؛ فالخطوة
الاولى أن نقتنع بفائدة الحرية وحتميتها
أتريدون أن تتصوروا قيمة الحرية . . ؟

تصوروا اذن قيمة الانسان . وليس يكفى أن نتصوره تصورا
دينيا بمعنى انه خليفة الله فى الارض ؛ ومنفذ مشيئته فيها .
بل علينا أن نتصوره مع ذلك تصورا آخر واقعيائيرزه فى الدور
الذى أداه ولا يزال يؤديه فى عمارة الكون ؛ وخلق جميع صنوف
الحضارة المتبدية فيه

هذا الانسان الذى تعلم وعلم ؛ وبنى وشاد ، واخترع وأبدع ،
وفكر وتفلسف ، وانتقل بنفسه وبالدنيا معه . من بدائية فجأة
غريرة الى رقى عارم ومدنية شامخة . .

هذا الانسان ماكان ليصنع من كل ذلك شيئا -لولا الحرية .
ويوم كان يجد حريته -كانت تجده الحياة . ناصبا فيها حائنا
لها . . فاذا فقد الحرية ؛ افتقدته الحياة ليخصب بوارها فلا تجده
ولا تراها .

ولقد أتى على الفكر الانسانى حين من الدهر وضع فيه تحت
وصاية غبية ؛ ورقابة عمياء ، فلم يكن ثمت أدب ولا فن ولا
اختراع . .

ومثل واحد من مئات المثالات يؤكد هذه الحقيقة ويزكيها . .
فحين اخترع المجهر . . « ميكروسكوب » وقف خصوم
الفكر والجرية من رجال الدين المسيحى وقالوا :

هذا كفر وهرطقة وسلطوا عدسته على جثمان برغوث . .
فرأوه ضخم الجثة - ففزعوا ؛ ولعنوا الشيطان الرجيم . . ثم
حرموا استعمال المجهر لانه يغير خلق الله ؛ ويضاعف أحجام
الاشياء . . !

لو بقيت هذه الآفات تسيطر على الفكر ، وتضطهد حريته، أكان
ما نراه اليوم من حضارة غامرة سيكون ؟

ويوم وقف «ابن رشد» يعلن نظرياته، ويضع « الحقيقة الفلسفية
أزاء الحقيقة الدينية » وقف خصوم الحرية والفكر من رجال
الدين الاسلامي وأغروا به الخليفة وحكموا بخروجه على الدين ..
ودعوا لمكافحته كما تكافح الجرائم والآثام ! ..

فلو بقي هذا الضباب جائما يسد الأفق ؛ ويحول بين الناس
والحرية أكان طريق المعرفة سيمتد أمامها لأحباط مهديا يغمره
مواكب النهي والمشاعل ! ..

مأروع الآفة التي قالها جيفرسون :
« ان الله الذي وهبنا الحياة - وهبنا الحرية معها -

في نفس اللحظة ؛ ولنفس السبب »
في نفس اللحظة - لان الحرية روح الحياة ؛ ولا يتأتى أن يكون
لها بدونها وجود .

ولنفس السبب - لان غاية الحياة أن تنطلق محققة الغرض
من وجودها ، ومنفذة مشيئة الازل الكامنة فيها ..

والحرية كذلك .. بل هي الاداة المفردة لكل ذلك - ومامن
تطور مشكور نافع أخذ بيد الاوضاع القديمة للناس في
السياسة والعلم والاجتماع الا كانت الحرية وحدها رائده
وحاديه . .

* *

الطمأنينة .. أم الحرية ؟

ولكن الحرية مطلب جليل ؛ وهي لا تمنح يدها كل لأمس -
والايدي الناعمة الرخوة حين تمتد اليها لتنالها ؛ ترتد مقبوضة على
زراية وهوان .. ولا يبلغها سوى الصناديد البواسل ،

القادرين على التوقل والتسور والطموح . .

وقديما قال شاعر عربي .

لابد للعاشق من وقفة ما بين سلوان وبين غرام

فلنسأل أنفسنا قبل المسير

أريد الحرية بحق . . . ؟ انها لاتأتى وحدها . . بل تحف بها
حشود من المخاوف والاطار .

ان مهرها غال لمن يطلبها . . انه الكد والتعب ، والمثابرة
وسماحة الافق وتمكن الاخلاص وهما أشق مافيه . .

وهناك فى الوجهة المقابلة للحرية - توجد الطمأنينة . .

طمأنينة الجماد ؛ وسكينة القبور . .

وبهذا النوع من الطمأنينة نستطيع أن نعيش هادئين . .
لانتألم ؛ لاننا لانحس . .

ولانشكو ، لاننا لانشعر .

ولا نقلق ، لاننا لانطمح . .

ولانخاف ، لاننا لانخيف . .

أفختار الحرية ، ومعها أثقالها . .

أم نختار الطمأنينة ؛ ومعها أغلالها . . ؟

لعل من الخير أن نستهدى بأولئك الذين اجتازوا نفس
التجربة من قبلنا . .

فلنصف لرائد كريم هو « فرانكلين » يقول :

« ان الذى يفرط فى مبادئ الحرية وجوهرها ليشتري بها
قدرا تافها من الطمأنينة الموقته لا يستحق الحرية ؛ ولا
الطمأنينة » . . !

وهذا حق . . وهو ليس فقط غير مستحق للحرية والطمأنينة
بل لن ينالهما أبدا ولن ينال احدهما - لان الطمأنينة المندملة

على ذلك الهوان لا تكون جديرة باحترامها ؛ ولا تفيؤها . .
واذا كان شعبنا اليوم قد فقد الحرية ؛ فلانه باعها بالطمأنينة
. . ثم اكتشف آخر أمره انه خسر الاثنين معا - الحرية
والطمأنينة .

* *

السنا أحرارا . . ؟

ولكن كيف نزعم اننا فقدنا الحرية ؟
هل هذا واقع ، أو هو ادعاء وتطير . . ؟
واذن فعن أى معنى تعبر هذه الحضارة ؛ وهذا الدستور ،
وهذا البرلمان ، وهذه الصحافة . . ؟
اليسست جميعا مظاهر صدق لما فى بلادنا من حرية وسيادة ؟
وقبل أن أجيب - نعم ؛ أو لا - دعونى أقصص عليكم قصة :
يوم كان « وشنطن » يقود موجا كالجبال من جماهير
المقاتلين فى حرب الاستقلال ؛ برز له جندى وصاح فى انفعالات
صاخبة :

- فى سبيل ماذا تقاتل - ؟

فأجابه وشنطن :

- فى سبيل الحرية . .

وعاد الجندى يسأل :

- وما الحرية التى تستحق كل هذا العناء ؟ .

فأجابه :

- هى أن تقف هكذا مرفوع الرأس ؛ بارز الصدر ، وتصيح

ملء فمك - أنا أمريكا . . وأمريكا بلادى . .

وعلى حين غفلة من القائد العظيم انتفض الجندى كالمارد ، وضرب

الارض بقدمه ، ورفع رأسه وصاح :

- أنا أمريكا - وأمريكا بلادي

ثم استدار الى « وشنطن » وقال له :

- ها أنذا قلتها ٠٠ فقيم ، مرة أخرى ، هذا العناء وهذه
الدماء ٠٠٠ ؟!

وهناك صوب الجنوب ، كانت المدفعية الانجليزية الباغية تدك
حصون المحاربين ، وتصليهم سـعيرا ٠٠ ودمدمت أصداء
طلقاتها العاوية على سمع الجندي المشدوه فقال له وشنطن :

- أسمع هذه الدممة ٠٠؟

ان المدافع الانجليزية تناديك

كذبت . . كذبت . . كذبت

لست أمريكا ٠٠ وليست أمريكا بلادك !٠

ويوم تقول كلمتك ، ثم لا تتحداك تلك المدافع ، ولا تكذبك
هذه الطلقات ، فأنت يومئذ حرو هذه هي الحرية !٠٠

والآن - هل أنت مصر - ؟ وهل مصر بلادك ؟٠٠ هل تمثل
وطنك فيك كيانا حيا بكل ما فيه من خير ، وبر ، وفرص ،
وامكانيات ؟٠٠

وهل لك من الامر فيه شيء ؟٠ أم أن الامر كله للناهب الظافر ،
والمستعمر الدخيل ؟٠٠ هل أنت مواطن - تمشي على أرضها سيدا
عزيزا ؟٠٠٠ أم أنت تابع يأخذ بخطامك استبداد مطلق
واستغلال دنى ؟٠٠

هل تستطيع أن تقول : لا ٠٠ اذا نيظت بها كرامتك ؟٠٠ وأن
تقول : نعم ٠٠ اذا نيظت بهامروءتك ؟٠٠ هل تقدر أن تقوم
في بلدك اعوجاجا ، أو تنهنه بغيا ، أو تمس القديم العفن

بتغيير وتجوير ؟ .. اذا كنته فأنت حر .. واذا لم تكنه ،
فأنت شيء آخر .. أنت رعوية تافهة ، وعبودية مسخرة .. !

ان بداية خلاصنا أن نعرف ، لا أن نخدع .. وأسباب المعرفة
عندنا كثيرة ، وعناصرها محشودة - تفتح أعيننا على حقيقة صارخة
تؤكد أننا رعايا في « عزبة » .. لا مواطنون في دولة ..

وحسبنا لذلك - مأساة الشيوخ - ١٠٠ !
وهي مأساة لا تحمل وزرها الوزارة .. بل السياسة .. ولا
الحكومة .. بل روح الحكم ..

فروح الحكم عندنا توجهها الرغبة في السيطرة ، وفي
الانتقام والعبت ...

روح الحكم ، ونعنى بها السلائق التي تجعل من السلطة التنفيذية
سلطة ارهابية تعز وتذل ، وتولى وتعزل ، هذا الروح الماكن بماله
من تقاليد وضراوة هو الذي لطم الكرامة القومية لطمة لم يكن
منها بد ، ليعلم الذين لا يعلمون .. أننا سوائهم ، لا مواطنون ! ..
وهذه حقيقة يعرفها الناس ، ولم يك ينقصها لكي تبلغ أوج
اليقين سوى أن يصدر بهامرسوم ، وتنتشر في الوقائع
المصرية ! ..

وقد لا يعيننا أن يظل الشيوخ « المشلوحون » أعضاء أو أن
يخرجوا ...

ولكن الشيء الذي أرحف على سكينتنا هو أن يجيء هذا الاجراء
عقابا لهم ، وتنكيلا بهم من أجل استجواب تساءلوا فيه : عن
أموال للشعب ، كيف انتهبت ؟ وأرواح بريئة كيف زهقت ،
وبيعت حياتها اليانعة للشيطان !

وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور ما يجعلنا فرتد عاجزين
عن الاقتناع بأن لنا في بلادنا حقوقا ترعى ، وحرمانا تصان ..

لكنه لا يأس .. فلا بد من صنعنا - وان طال السفر . .
وسنلاقى الحرية وتلاقينا .. فى مهرجان يضج بأجراس الفوز ،
ويفعم بزهور الانتصار .

لكن علينا أنفسنا ... ان معركة التحرير تبدأ منها ، وفيها

تحرير أنفسنا من أنفسنا ..

قلنا : انه لا جزع على حريتنا فى مستقبلها ، فهى آتية لا ريب
فيها .. ولا خوف عليها من أعدائها .. بل الخوف عليها منا
أنفسنا ..

ماذا يخاصم الحرية ، ويعترض سبيلها ؟ ..

انه الاستبداد ... وهذا الاستبداد نفسه أقرب الطرق
الموصلة الى الحرية والاستقلال !

فكر قليلا ... تجد الامر كذلك .. فنحن كلما استبد بنا
الجوع ، الحنا فى طلب الطعام .. وكلما نفحتنا سبرات البرد
الحنا فى طلب الدثار .. وهكذا كلما لفحنا هجير الظلم
والاستبداد ، اندفعنا فى تراحم الى ظلال الحرية ، وروضاتها
المونقات .. ان الظلم من صنع المظلوم ، قبل أن يكون من صنع
الظالم .. وعندما تشتد وطأته تبدأ نهايته .. لان الذين كانوا
يسمحون له بالبقاء وتتقأأ أمامه محاولاتهم ، يضيقون به ذرعا
وتواتيهم شجاعة اليأس ، فيخاطروا من أجل الحرية مخاطرة
تحطم عنهم الاغلال ...

لقد وقف « أتاتورك » يوما خطيبا فقال :

ليس على وجه الارض شئ اسمه الظلم .. فهذا الذى وقع
عليه ما نسميه « ظلما » اما ان يرفضه ، أو يتقبله ..
فان رفضه ، فقد منع وجوده .. وان قبله ، وخضع له ، صار
لما وقع عليه مستحقا وأهلا .. فلا يكون مظلوما ! ..

وهذا كلام جليل صادق . واذا عجزنا عن تقبله ، وتصديقه
فلن نعجز عن تصديق « فولتير » وهو يقول :

— ما رأيت كالطفيان شيئاً يسوق الناس الى الحرية سوقاً
حنيفاً — !

لا بأس على حريتنا اذن من جلاديتها .. ولكن الخوف عليها
منا وحدنا ..

وقبل أن نطلب الى الآخرين احترام حريتنا ، يجب أن نبدأ
نحن فنحترمها ..

هل يحترم المجتمع لنفسه حرية نفسه .. ؟
ما أثقل عبء الاجابة علينا ونحن نقول : لا ..

فالحقيقة أننا نحن الشعب لم تبلغ بعد الدرجة التي تعامل
الحرية فيها بأضعف الايمان ..

ولكن لن ندع الحاكمين يتوسلون بهذا الى منع الحرية
عن الشعب ، فهو اذا كان لم يقدرها قدرها ، فلأجل أن حاكميه
وقاهريه له يتيحوا له فرصة تذوقها ، ومعرفة قيمتها ولزومها
— ويوم يذوق سيعرف — ويوم يعرف سيفيدها بمثل ما افتداها
به السابقون ..

وكتابتنا هذا محاولة لايجاد تفاهم بين الحرية والشعب ..
وبينها وبين الذين أسرفوا على الناس وعلى أنفسهم بالبغى
والاستبداد .

ولن ننسى ونحن نتحدث عن الحرية أن نقول : انها اذا لم تكن
كبتاً وقهراً .. فهي أيضاً ليست استهتاراً وفوضى ..

ولعل خير ما يصور جغرافيتها هذه القصة الفرنسية :

كان أحد الرجلين يجلس على أريكة باحدى الحدائق العامة ،
وعن يمينه جلس الآخر ، وليس بينهما معرفة ولا الاف ..

وتثائب الجار وبسط ذراعيه وهو يتمطى ، فصكت أطراف
أنامله ذؤابة أنف جاره . فغضب ونبه المتمطى للياقة المطلوبة ..
فأجابه الآخر : أنا حر .. !

فقال له صاحبه : نعم أنت حر .. ولكن حرية يدك تنتهى
حيث تبدأ حرية أنفى .. !

وذهبت مثلاً بليفا .. فحواه أن حريتك تنتهى حيث تبدأ
حريتى . وحريتى تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين - والآن -
لنذكر هذا جيداً ..

إن الموازنة في تمرس الحرية بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض ،
وبين المجتمع والدولة هى خير ما يحقق لنا منافعتها جميعاً .
فواجب الجماهير اذن حيال الحرية هو :

- أن تؤمن بقيمتها وضرورتها

- وأن توائم بين الحقوق المشتركة فيها ..

والطريق الى الاول - أن تفهم انه لا خطر من الحرية على الدين ،
ولا على الفضيلة ، ولا على مصالحها .. وأن الخطر على
هذه جميعاً إنما يهب من ريح الكبت ، وضيق الافق ، ونضوب
التسامح ..

والطريق الى الثانى - أن يمارس كل فرد حريته فعلاً ،
وفوراً ، ودائماً - وسوف نخطئ ويبنى بعضنا على بعض
ولكننا أخيراً سنتعلم من الخطأ ، ونفد من التجربة وتصحو فينا
فطرة الحرية فتمضى سوية مستقيمة لا تضل ، ولا تتجاف
لعدوان ..

وواجب الحكومة تجاه الحرية أن تكون فى خدمتها ، وأن تصوغ
قوانينها ، وتمارس سلطتها على وجه ينمى الحرية لا يضائلها .
والآن - لنمض معاً - مستعرضين الحرية فى أزيائها

المتعددة - مبتدئين بما بدأ الله به ..

لقد تكلمنا فى الفصل الاول عن « الغرائز » .. هذه التى خلقها الله لتكون طاقة دافعة ، فاستحالت بفضل الظلم والجهل الى أغلال معقدة ، وعوائق مانعة .. والغرائز هى القوى التى نظم الله حولها الحياة الانسانية بكافة ضروب نشاطها، بل ناط بها وجهة الانسانية نفسها ..

واطلاق سراح الحرية رهن باطلاق سراحها فمشكلتنا تتمثل فيها ، وخلصنا يبدأ منها

وسنجد الآن أن وراء كل غريزة مضطهدة حرية مضطهدة كذلك ، والربط بين الحرية والغريزة ليس من صنعنا - بل من صنع الله - وهو قمين أن يوفر علينا كل محاولة سفيهة لقمع الحريات .. لأنها على هذا النحو ليست شيئاً هيناً يقضى عليه البطش .. بل هى وثيقة الصلات بأعرق وأعماق ما فى الانسانية من قوة واصرار . وهى الغريزة ..

واذن - دعوها فانها مأمورة !

حين نواجه حقيقتنا المنعكسة على مرآة الحوادث الماثلة - نجد شعباً مخفقاً .. يدور حول وهم وعجز - حتى اذا أدركه التعب خر على الارض ليطويه سبات عميق .. وأعجب ما فى أمتنا وجماهيرنا أنها على بينة مما تريد أن تفعل .. ومع هذا فقد عميت عليها السبل ، ومضت تضرب فى كفاحها وديهاها على غير هدى .. !!

ترى - ماذا يضلها ، ويخلد بها الى الارض ، والحريرة والاستسلام ..

أهو فقط ظلم الظالمين ؟ ..

اذن ، فما بالها لا تتحرك حين تمر بها فرص يرخى فيها

المستعبدون الزمام .. ؟ وتكتفى بأن تتململ تململا غامضا ، لا ينطلق بها الى هدف واضح .. وتخرج أنفاسها الكظيمة المضغوطة فيسمع لها خوار .. ثم فجأة تهجع ، وتأرز الى الوتد صابرة ، وربما شاكرة .. ؟

ان آفة الشعب في دخيلته في نفسه الباطنة .. وكل جهد يبذل للإصلاح بعيدا عن نفسه ، فهو جهد باطل مضيع .. ان في أعماق ضميره شيئا يدعو لمقاومة الحياة .. وفي أقصى نفسه مرارة ويأس ..

وفي وجدانه شعور الريية بذاته ، وامكانياته ، ومستقبله وفي عقله الباطن جبن ، وهوس ، وانقسام - وشخصيته كلها ليست أكثر من اطار يضم هذه المساويء جميعا - ومرد ذلك لا جرم ، اطفاء نور الحياة فينا وتحطيم ارادتها بمصادرة منابعها وردمها ..

فلنطلق غرائزنا هذه .. وهي ستهدى نفسها ، وتهدينا معها الى الحرية والسيادة .

ان الحرية أجمل وأكبر من أن يضمنها قانون أو دستور أو حكومة .. واذا لم تستقر جذورها في قلوب المواطنين فلن يكون لها أغصان ولا ظلال ..

فلنبدا من هنا - من غرائزنا المصفدة المضطهدة الحاقدة - نفرض عنها قيودها ، ونحطم سلاسلها .

ولن نتحدث عنها جميعا ، كما رأيت قبلا - وانما نسوق الحديث عن بعضها الذي له بحياتنا ، كشعب مكافح ، أوثق الصلات ، وله بحريتنا كأمة مستعبدة أدق الوشائج ..

غريزة الغضب - حرية النقد ..

بيننا في الفصل الاول اثر اضطهاد هذه الغريزة في انطوائها على حقد ، واندمالها على تربص .

والحكومات حين تحاربها - فسلحها القانون .. فقانون يحرم
التظاهر ، وآخر يحرم الاضراب وثالث يحرم النقد والكلام ..
والحقيقة أن وضع القوانين سهل ميسور ، وقد يكون تنفيذها
كذلك سهلا وميسورا ..

وليست المشكلة في وضعها .. وانما في جدواها .. ان القانون
هنا - يحارب الطبيعة .. . يحارب الغريزة .. يحارب قانونا
آخر . وضعه الخلاق العظيم ، وصقلته القرون .. وهو لذلك
مغلوب على أمره ، ولو بعد حين

وغريزة الغضب تسرب طاقاتها تسربا مهذبا مأمونا في
المجتمعات والامم بتمكينها من حرية النقد - فكبت هذه الحرية
في شعب تحد لقوة أصيلة فيه أصالة الانسانية نفسها، وتصفية
لطاقته تلعب دورا هاما في بناء الشعوب .

وللعالم الجليل « هاري أمرسون فوردك » في كتابه
« (١) كيف تكون رجلا حقا » كلمات هادية مضيئة تكشف لنا
عن قيمة الغضب الذي تكتم حكوماتنا أفواهه ، وتضاعف
قيوده . فلنستمع اليه :

« .. والنزوع الى الخصام من أعماق الحوافز العاطفية في
الطبيعة الانسانية - والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الانسانية
وتقدمها ، وترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق ، وبالشجاعة
في مواجهة المصاعب الشخصية، وفي كل مظاهر الهجوم على
المساويء الاجتماعية المستقرة .

« .. ولكننا اذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفي الذي
لا غنى عنه - كانت النتيجة مدمرة ، فان البغضاء المزمنة ،
أو أمساك الحق في القلب يمزق صاحبه - والفيظ الشديد قد

يورث مرضا كما تفعل الجرثومة .

« .. واذا كان من سوء حظنا أن يكون لنا أعداء فان شر ما يمكننا أن نصنعه لا للعدو ، بل لأنفسنا - هو أن ندع الفيض يستقر ، والكراهة تزمن .. »

« - حين لامت سيدة - ابراهام لنكون - على عبارة كريمة قالها عن أهل الجنوب قائلة له :

« كان الاولى بك أن تتمنى القضاء على أعدائك .. أجابها وهو موفور الصحة العاطفية والاخلاقية ، ماذا تقولين يا سيدتي ؟ ألا ترين أنى أقضى عليهم حين أجعلهم أصدقاء لى ؟ »
أفلا نستطيع - حكومة وشعبا ، أن يكون بعضنا لبعض كابراهام لنكون مع أهل الجنوب فتقضى الحكومة على الجماهير المنتفضة باتخاذها صديقا .. ؟

ان السبيل لذلك متمثل فى اطلاق حرية النقد فهى الانفعال السامى لغريزة الغضب ..

وان الجماهير فى بلادنا لتعامل معاملة القاصر .. أو معاملة الايتام فى مأدبة اللئام - فهى تسرق ، وتضرب وتباع مصالحها ثم يحرم عليها أن تقول لظالمها ، وسارقها ، هذا حرام .. !!
وهل يمكن أن تحترم أمة أو تقدس ، وهى لا تأتمر بمعروف ، ولا تتناهى عن منكر . ؟

ان الدستور يعطى الامة هذا الحق - والقائمون على تنفيذ الدستور يسلبون هذا الحق . !

والشعب والحكومة شريكان فى اقرار هذه الجريمة . فكلاهما يرفض أن تنقد شعائره ونظمه وتقاليده - وحين أنقد أنا ، أو أنت ، طغيان الاستبداد الذى يطأنا بقوائمه الغلاظ .. وغباء الحكومات وسفها وسوء استعمال سلطتها .. تلف حول عنقك حبال الاتهام ب « قلب نظام الحكم »

أفيكون كل نقد لمساوئنا السياسية والاجتماعية قلبا
لنظام الحكم ..؟

الا فلنتدبر هذه الحقيقة جيدا ..

لقد كانت الديموقراطية يوم بزغت « قلبا لنظام الحكم » بل
لنظام الدنيا جميعها . ثم صارت اليوم مهوى أفئدة البشر جميعا
وفى مصر بالذات كانت المطالبة بالنظام النيابى خيانة وقلبا لنظام
الحكم . ثم اذا هو اليوم مناط الامل والرجاء ..

وكانت الحركة التى قادها الشيخ الشرقاوى ، والسيد عمر
مكرم لتنصيب « محمد على » مؤسس الاسرة العلوية ، على
مصر . كانت هذه الحركة يومها خيانة للوالى القائم ، وقلبا لنظام
الحكم ..

لذلك نرى خورشيد باشا يخاطبهما عندما طالباه بالتنازل
باسم الشعب قائلا :

« .. انى مولى من قبل السلطان ، فلا أعزل بأمر
الفلاحين .. » واتهمها بالخيانة واتهم الشعب كله - الفلاحين -
بمحاولة قلب نظام الحكم .. !

ولكن الفلاحين .. أصرروا على أن ينالوا شرف هذه الخيانة
العظمى ، ووقعوا العريضة التى رفعت للباب العالى طالبين فيها
تولية « محمد على باشا »

وهكذا نلاحظ أن كل قديم عفن يتهم القوى البازغة التى
يثمرها الوعى والتطور بالخيانة العظمى وقلب نظام الحكم ..!
أيريد المرجفون بهذا الاتهام أن يفهمونا أنه لا يتم قط تحول
نافع الا على أكتاف الخيانة العظمى ..؟

أو فليوضحوا لنا مغزى هذا الارجاف .. ؟

اننا جميعا على يقين بأن ولاية محمد على باشا ، كانت فى أوانها

انقاذا للبلاد من فساد كبير .. ونهض هذا الاعتقاد في قلوب
زعماء الشعب وعقولهم فعملوا وفقه - ولكن الحكم القائم يومذاك
فسر عملهم المجيد هذا بأنه جريمة وانتقاض ..

أفئن حاولنا اليوم تهذيب حكمنا ، واستحداث النظم
والقواعد التى تلائم تطورنا وطموحنا ، وكان من وسائلنا
لذلك النقد الذى يستهدف البناء والانشاء .. نجابه بنفس
الاتهام التقليدى - الخيانة - وقلب نظام الحكم ..؟!!

ان الحكومة تسوء نفسها كثيرا وتسوء بلادها حين تزجرنا عن
النقد وتمنع عنا حقنا فيه .. وهى اذ تسكت أقلامنا ، وتخفق
همسنا - تغرى بنفسها وببلادها الناقدين الاجانب الذين يكتبون
عنا مالو مزج بماء المحيط لتركه آسنا عكرا ...

وعندنا مثل لذلك - الكاتب الفرنسى « كوكتو » .. لقد
استضيف فى بلادنا - وكان من حسن حظ مصر أن يهبط
« كوكتو » فى ضيافة فتى مترف حديث عهد بميراث ضخم سمين
.. فبسط للضيف موائد الكرم الباذخ تنوء بما فوقها من مطاعم
ومشارب .. وهىأ له الكثير الطيب من الليالى الحمراء التى
يجاهد فيها المترفون جهادا مبرورا ..!

ولم ينس « كوكتو » وقد جاء مصر - ان يرجو مضيغه كى
يمكنه من رؤية « الحلقة المفقودة » فى تاريخ الانسان - تلك التى
تتمثل فى ملايين الفلاحين والصعاليك المضرجين .. وعلى
هذه النشرات الادمية ركز « كوكتو » عدسته طويلا ..
فوعى كل شئ ، وعرف كل شئ ..!

ولما عاد الى بلاده فرنسا . أخرج كتابه المعروف « فى بلاد
معلش » .. !! ولم نر هذا الكتاب طبعا ، فقد صادرتة
حكومتنا الرشيدة .. صونا لسمعة مصر أمام اهل مصر ..!

اما العالم كله فقد قرأه وتلاه .. ومثل « كوكتو » آخرون
وآخرون ..

والعجيب ان حكوماتنا خارقة القدرة في محاربة النقد ، فهي
لا تخرسه داخل حدودها فحسب ، بل تتعقبه خارج
الحدود ايضا - ولكل بلد وسيلته اللائقة به .. فعندنا مثلا يحارب
النقد بالسجن والتشريد .. وعند غيرنا من البلاد الاخرى
تتعقبه بالاغراء والرشوة .. ولعلنا لم ننس بعدنبا ذلك الباشا
المصرى الذى ذهب فى الصيف الماضى الى جريدة انجليزية كبرى ،
وزار المحرر المختص بشئون الشرق الاوسط .. والتمس منه
ان تسكت الصحيفة عن نقد الاوضاع الفاسدة فى مصر ..
وفى نهاية حديثه قدم للمحرر « شيكا » بمائة ألف جنيه .. !
ونادى المحرر حاجبه وقال له:

اصحب الباشا الى الخارج .. فانه يجهل الطريق .. !

نعم .. انه يجهل الطريق .. ولقد علمه الفساد المتفشى فى
بلادنا ان كل الطرق توصل الى روما ، وان الذمم تشتري بالمال
فى غير مصر من بلاد الله ، ففعل فعلته وهو من الضالين .. !

وليت الحكومات هى التى تحارب وحدها حرية النقد ..
بل ان الشعب كذلك ايضا .. !

فحين تنقد من تقاليد الموروثة وجهالاته المزمنة ما تعتقد انه
ضار به ، عائق له .. ترتفع اصوات كثيرة حاملة اليك نفحة
هائلة من اللعنات والتمنيات .. !

يجب أن نروض أنفسنا على تقبل النقد متأسين بالرجل
العظيم عمر بن الخطاب الذى كان يقول : رحم الله من اهدى الى
عيوب نفسه .

وان الصخرة التى تلقى فى طريق حرية النقد لترطم بها -
لهى التقاليد ...

فتقاليدنا السياسية تصدنا عن نقدها ومحاولة اصلاحها ..

وتقاليدنا الاقتصادية تزجرنا عن نفس الفاية .. وتقاليدنا الدينية تطارد كل محاولة نبيلة لاصلاح دينى .. وتقاليدنا الاجتماعية تريد ان تستعصى على التحوير والتطوير .. !

والحقيقة التى تغرب عن بالناهى ان الاديان جميعها لم تأت الا لتدمم على التقاليد ، وتقتلعها ثم تذروها مع الريح ..

ولو كان للتقاليد سلطان وحرمة ما قامت للاسلام نفسه قائمة . فانه لم يحارب بشيء كما حارب بالتقاليد .. لذلك ذهب القرآن الكريم يصفع انصارها - انصار القدم والبلى والتعفن ، ويسخر من الذين قالوا : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » !

فلحساب من .. تستبد بحرياتنا اليوم طائفة عفنة من تقاليد الحكم وتقاليد الاجتماع ؟

لحساب الدين .. ؟ - ان الدين كما رأينا يرى فى الركون اليها سفها .. بل يراه جريمة ييؤ صاحبها بغضب الله وازدراؤه .. ففى حديث صحيح يقول الرسول :

« انى ممسك بحجزكم عن النار - هلم عن النار - هلم عن النار . ولكنكم تقاحمون فيها تقاحم الفراش او الجنادب ، فأوشك ان ارسل بحجزكم - وانا فرطكم على الحوض تردون على معا واشتاتا ، فأعرفكم بسيماكم واسمائكم كما يعرف الرجل الغريبة من الابل فى ابله ، ويذهب بكم ذات الشمال ، واناشد فيكم رب العالمين ، فاقول أى رب . أمتى . فيقول : يا محمد

انك لا تدري ما احدثوا من بعدك . انهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على اعقابهم » .. !

فهل الركون الى التقاليد الاتقهقر على الاعقاب ، وتخلف معيب مهلك - عن موكب التقدم والحياة .. ؟ !

أم هو لحساب الدنيا اذا لم يكن لحساب الدين .. ؟
لكن الدنيا لا تقوم على الجمود بل على التغير المتغير والتجدد المستمر - ولنضرب لذلك مثلا :

فقد كانت البيوت الارستقراطية المترفة مختصة دون سواها بتوريد الحكام والوزراء والرؤساء . فاذا بأمواج السيادة الشعبية ترفع الى القمة اناسا لم تكن التقاليد لتعترف بمجرد وجودهم ، ولم تكن العين لتقع عليهم في زحام الحياة . .

فابن الخباز « فنسيان اوريول » يرأس جمهورية فرنسا ..
وابن الحداد « ستالين » يتربع فوق الكرملين في روسيا ..
وغاسل اطباق الصيدلية « ترومان » يصير الرجل الاول في امريكا ..

وسائق القطار « بيفن » يوجه السياسة الخارجية لبريطانيا العظمى ..

وهكذا في بقية جوانب الحياة لا قدم للتقاليد ولا قداسة ..
ولكل ساعة تقاليدها المستحدثة واوضاعها الملائمة .

غريزة النفور .. حرية المعارضة .. وحرية الارادة

واذا انتقلنا من حرية النقد الى حرية المعارضة وحرية الارادة وجدنا وراء هذين اللونين من الحرية غريزة أخرى قوية ماضية هي - غريزة النفور . وانفعالها المشروع النافع المعارضة، والارادة فانت حين تنفس من شيء مقيت ينتابك احساس مزدوج بالاعراض عنه .. ثم بارادة تغييره او تحديه ..

ولكن الاعراض موقف سلبي ان صلح في المواقف الفردية لا يصلح فيما يمس الامة والمجتمع وهنالك يستعاض عنه بالمعارضة والتقويم ..

ماذا كان يعنى الرسول بحديثه الكريم .. ؟

« انه سيكون بعدى امراء . من صدقهم بكذبهم ، واعانهم
على ظلمهم ، فليس منى ، ولست منه ، وليس بوارد على الحوض -
ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى ،
وانا منه ، وهو وارد على الحوض »

وماذا كان يعنى عمر حين دعا الناس ان يقوموه اذا اعوج ،
ويرشدوه اذا انحرف ..

ثم ما كان يعنى ستالين عندما عزل احد اقطاب حكومته وحزبه
وكتب فى اسباب العزل : « انه يملقنى دائما ، ولا يعارضنى
أبدا » .. !

ليس لهذا كله سوى دلالة واحدة هى التقدير الواعى الكريم
لغريزة النفور ..

انها اذا طمست فى امة اوضلت - صار امر هذه الامة
فرطا - لذلك رأينا الاسلام يزكى حماسها ويشير انتباهها ، فيقول
الرسول :

« لا تمروا بديار الذين ظلموا انفسهم الا وانتم باكون . خشية
ان يصيبكم ما اصابهم » .. !

ثم يقول :

« اذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك ان يعمكم الله
بعذاب » .. !

ان عبارة « ولم تأخذوا على يديه » هى الانفعال المحتوم
لغريزة النفور - هى المعارضة والتقويم ..

وحرية المعارضة فى بلادنا عملة زائفة يحظر تداولها ! وبينما نجد
كلمة « المعارضة » فى بلاد كانجلترا عنوانا لهيئة سياسية تحترمها
الحكومة وتنتفع بدكائها .. اذابها فى مصر عنوان على طائفة
منبوذة مضطهدة - هكذا دائما فى كل حكم ، وعهد .. !

ولقد قصصنا عليك من قبل، كيف طردت المعارضة البرلمانية بمجلس الشيوخ كما يطرد بواب عمارة ، او خادم - لانهم اجترأوا على رفع الستار عن بعض الذمم الجارحة التى شربت فى كئوس النصر والاستهتار دماء الابرياء ، ودموع اليتامى وثل كل الايامى . . !

ان المعارضة البرلمانية قوام الحياة النيابية ، وای امتهان لها او تقويض لسلطانها ، امتهان للنظام النيابى جميعه وتقويض له

والامر كما يقول « ج . بيورى » فى كتابه - حرية الفكر :

« ان الشر الناجم عن تفهقر الحرية الى وراء ، اعظم من اى شر وقتى مهما بلغ من الاستطارة والايزاء . . »

ان حرية المعارضة وحرية الارادة تأخذان فى الدول المتحضرة مظهرا يبعث على الدهشة والعجب . .

فترى الحكومة البلجيكية التى بذلت جهدا مضنيا لتعيد الملك « ليوبولد » الى عرشه - تقف امام معارضة المعارضين من الشعب منحنية مستسلمة . . حتى لقد تركت الجماهير المتدافعة كالوج تصرخ فى وجه الملك العائد من منفاه « مقام غير سعيد يالليوبولد . . ارجع الى منفاك يالليوبولد » . . !

بل أن أروع من ذلك قد كان . فكتبت جريدة الاهرام يومذاك أن مدينة « لياج » أعلنت الحداد من أجل عودة الملك - ونكست العلم الوطنى فوق مبنى المحافظة!

وخرج المعارضون فى مظاهرة كبرى يقودها « بول هنرى سباك » معلنة رأيها الصريح فى عودة الملك - وبعد يومين اثنين كان الملك يوقع ورقة التنازل عن العرش . وكان « بول هنرى سباك » يتحدث مع مراسل « آخر لحظه » عن المأساة فيقول : « عندما يصبح الملك هدفا لسخط الشعب ، يصير على الفور غير صالح لان يكون ملكا . ولقد شعر الملك ليوبولد بأنه لا يستطيع الجلوس على العرش الا وهو فى حماية المدافع الرشاشة . .

« وهل تستطيع أن تتصور ملكا يجلس على عرشه في حماية الحراب .. ؟ » - ثم يتحدث عن الملك الجديد قائلا : - « ان الامير بودوان في مركز لا يحسد عليه ، وهو يفتقر الى المران والخبرة . ونحن نطلب منه ثلاثة أشياء فقط ..

- أن يحترم مبادئ الدستور .

وان يعيد السلام والكرامة الى شعبنا الجريح ..

وان يكون ملكا سعيدا ، فان الملوك السعداء يخلقون شعوبا سعيدة .. » !

انا نريد ان نظفر في بلادنا بمثل هذه الجراءة في معارضة السلطة التنفيذية والحاكمين المسؤولين . ونريد أن تتوفر لنا حرية الارادة في أن نصنع حياتنا كما نشاء نحن لا كما يشاء الآخرون . والذين لا يمكنوننا من حرية المعارضة يريدون أن تكون مصر بحق « بلاد معلش » ..

لان العجز حين يرين على ارادة المستضعفين ، وترعش السنتهم بكلمة الحق يعارضون بها البغي والفساد لا يملكون سوى هذه الكلمة الرثة « معلش » !

والحاكم الصالح النظيف الشجاع هو الذي تزدهر المعارضة برلمانية وشعبية في عهده وترعرع . لانه لا يخافها ولا يخشاها .

ولقد كان عمر من هذا الطراز حين قيل له ، اتق الله في الناس يا عمر - فقال :

ويل لكم ان لم تقولوها - وويل لنا اذا لم نسمعها .. !

وكذلك كان « لنكولن » حين قال :

« اذا أدركتم أبصاركم في الوطن ، فرائتم لى فيه عملا جليلا . فاذكروا الذين كانوا يخالفوننى في الراى ويعارضوننى .. لقد كانوا من ورائى سياطا تلهبنى ، ومن أمامى أضواء تنير لى الطريق » .. !

المشاركة الوجدانية حرية الفكر ، وحرية الرأي ..

ان نشاط «المشاركة الوجدانية» يترجم في حياة المجتمع بتضامن الشعب والحكومة في حمل التبعات - وتلاقيهما في الاحساس والشعور ..

والعواطف - كما يقولون - معدية ، ولا تقف عدواها امام حجر أو حصار .. فاذا شاعت في الامة عواطف الثقة والمحبة استقام أمرها .. واذا حطمتها عواطف الشك والمقت - طاش سهمها ، وخاب فآلها ..

ولقد أدركت قوى الشر العاملة الناصبة ، هذه الحقيقة . فتوسلت الى تمزيقنا بترييب المواطنين بعضهم في بعض .. وتشويه سمعة الرواد المخلصين حتى لا تستجيب لهم الجماهير وتستغل جهل الناس بحقائق الدين ، وحقائق الدنيا .. لماذا صارت الامة أشتاتا ومزقا ؟ تحسبها جميعا .. بل لا تحسبها .. وقلوبها شتى .. ؟

لان نزعة المشاركة قد كظمت فيها وأحالها طول الارغام الى نزعة تشنيت وتخذيل .. !

ولماذا كان ذلك كذلك ؟

لان المجتمع لم يحاول أن يؤمن بحرية الفكر ، ويقدرها قدرها - ولو قد فعل لغشيتة الثقة ، وأخى بينه التسامح ، وسما به الفكر الطليق الى سماوات من فوقها سماوات ..

لا بد اذن - أن يقر في أذهاننا وضمائرنا الاحترام الاكيد لحرية التفكير والتعبير . ويومئذ سيقبل بعضنا على بعض ، ونتخذ من الخلاف الفكري مزية .. ويضحى بعضنا لبعض ظهيرا ..

فلتفكر أنت كما تشاء - ولتدع غيرك يفكر كما يشاء ، دون أن نجعل من مناطق التفكير حلالا وحراما - فالفكر وحده هو الذي سيقدر في حرية كاملة حلها أو حرمتها .. ان للفكر الانساني

امكانيات ثره هائلة ، وهو أداة الارادة الكبرى للكشف عما في كون
المادة ، وكون المعرفة من أركازوكنوز ..

والعالم الحديث زاخر بالمذاهب والأفكار ، ونحن في هذا العالم
جزء منه يصيبنا ما أصابه طوعا أو كرها - فإذا لم نحط بعقليته
وأفكاره خبرا ، ونسارع الى مسائره أو مسابقته - إذا كانت
مسائره بدعة وضلالا . . فسنظل مكاننا - لنا أعين لا نبصر
بها ، ولنا آذان لا نسمع بها ، ولنا قلوب لا نفقه بها . . حتى يمر بنا
الموكب وهو ماض الى غايته فسنظل مكاننا - لنا أعين لا نبصر
اللقيط ، ويضعنا تحت الوصاية حتى يروضنا على تقبل الحياة
والتفاعل معها ..

أليس هذا - هو منطق الاستعمار حين يعثر على أمة
مقفلة لا تحترم ما أودعه الله فيها من عقل وقدرات .. ؟ !

ان بلادنا محرومة من أن تفكر ، لانها محرومة من أن تقرأ -
ومحرومة من أن تعبر وتقول .. وهى ممنوعة من ذلك كله حرصا
على سلامة الدولة ، وسلامة الهيئة الاجتماعية .. !!

أصحيح هذا - أم خداع وهراء .. ؟

ان الفكر الحر لا يكون خطرا على الدولة والمجتمع أبدا . وانما
مصدر الخطورة فكر غير حر .. فكر مكره ، مضطهد ، موتور ..

ان حكوماتنا تتهب طبيعة بعض الافكار وتأثيرها ، فتحرّمها .
وسنفترض اخلاصها في هذا التحريم ، ونظافة بواعثها . ثم
ندعوها لتسمع من « ميل » في كتابه الحرية نقاشا هادئا بليغا .
» .. هذه الفكرة المراد تحريمها صواب أم خطأ .. ؟

« ان تك صوابا ثم حظرناها ، فقد حرّمنا المجتمع حقه فيها . .
وسلبنا منه احدى حقائقه الكبرى

» وان كانت خطأ ، فمن أين لنا معرفة ذلك .. ؟

« يجب لكى نحكم عليها بالتصويب أو التخطئة ان نمتحنها

فى جميع الظروف ، وتتاح لنا الحرية الكاملة فى مناقشتها ،
ومناقضتها .. وبغير ذلك لا يستطيع كائن ذو مواهب
انسانية أن يتثبت تثبتا عقليا من صواب فكرة أو خطئها ..»

ان هذا القول البليغ ليجهز على أراجيف الذين يحرمون
المذاهب والافكار حرصا على دولة ، أو مجتمع ، أو فضيلة ..
فالفكرة التى تنتصر على النقاش والمعارضة والنقد انتصارا مستمدا
من صدقها وأحقيتها هى التى يجب أن تنظم تقاليد الدولة
حولها، ويصاغ المجتمع والفضيلة وفقها .. لا أن تحظر وتصادر
لكن ، كيف لا تكون حرية الفكر والرأى خطرا على الدولة
وهى المسئولة عن كل ما وقع فى التاريخ من تغير وتطور وانقلاب ؟

وجوابنا - أن هذه - مزية الحرية لا خطيئتها - فكل ما
أحدثه من تغير وتطور تم لصالح الانسانية وأفضى لاسعادها ..

وأما ما حدث من انقلابات صاغت التاريخ وعينت له وجهته،
فلم تتم جميعها على وجه غير مشروع .. والذى وقع منها على
وجه محظور - كان القانون فى انتظاره يصادمه ، ويقف دون
غايته - وهى مصادمة محترمة حتى من الحرية نفسها مادامت
بعيدة عن الافراط والتفريط يقول «ج. بيورى» (١)

«ان الحالات التى يكون تدخل الحكومة فيها ضد الحرية سليما،
هى حالات يلتبس فيها الحق بالباطل ..، فلو حدث مثلا
تحريض مباشر على أعمال عنف معينة لكان هناك مجال مشروع
لتدخل الحكومة .. ولكن الباعث على التحريض ينبغى أن يكون
متعمدا ومباشرا ..»

«فاذا ألفت كتابا ، وهاجمت فيه الأنظمة الحالية ، ودعوت
الى نظرية فوضوية ، ثم قرأه رجل فقام وأعلن التمرد ،
وارتكب جريمة .. فقد يستنتج من هذا أن كتابى هو الذى جعل

الرجل فوضويا وجانيا - ومع ذلك فلا يكون جائزا، ولا مشروعا
أن أعاقب على التأليف ، أو يصادر كتابي مادام لا يحوى
تحريضا مباشرا على ارتكاب تلك الجريمة بالذات ..

«ان الشر الناجم عن تقهقر الحرية الى وراء أعظم من أى
شروقتى مهما يبلغ من الاستطارة

«وان مبدأ حرية الفكر اذا تقرر يوما ما ، باعتباره أقصى
مراتب التقدم الاجتماعى .. خرج من مجال الامر العادى
الى مجال الامر السامى الجليل الذى نسميه «عدلا» أو بعبارة
أخرى ، يصبح حقا يستطيع كل انسان أن يستند اليه -
وان قيام هذا الحق على مبدأ المنفعة لا يبرر أن تقوم حكومة
فى احوال استثنائية ، فتقص من أطرافه بحجة المنفعة نفسها.»

ويعنى «بيورى» بقيام الحرية على مبدأ المنفعة، انها لى تكون
مجدية حاسمة بعيدة عن المهاترة والتعارك والخلاف ينبغى ان
تناط بالمنفعة القائمة على مصالح الانسان المطردة المتطورة ..

واذا عجزت هذه الكلمات الهادية أن تهدينا، وتقف عدواننا
المستمر على حرية الفكر ، فلن نعجز الواقع أبدا .. وهذا الواقع
يتمثل فى أن للافكار والآراء فى هذا العصر . من النفاذ ، والغلبة ،
وسرعة الانتشار ، وقوة الاقتحام، مالا يمكن قوة على ظهر الارض
من وقفها . فبدلا من أن تنفذ الى أفئدة الناس فى خلصة وظلام
.. دعوها تأخذ طريقها السوى لنبصرها ونراها ، ونتفحصها فى
أناة ووعى لناخذ منها الطيب ، وننقى عن مجتمعنا الخبيث .
وارتباط حرية الراى بحرية الفكر خالد وثيق . ولا قيمة
للثانية بدون الاولى

ونحن لا نطالب بحرية الفكر كما نطالب بحرية الراى .. فانت
تستطيع أن تفكر تفكيرا ذهنيا فى أخطر الاشياء ، وأشدّها خصومة
ولdda للقانون ، دون أن يسمع أحد أو يرد ، ودون أن يقدر
أحد - حتى أنت - على وقف التفكير ورجعه .

لذلك ، فان حرية الفكر تعنى في الحقيقة حرية الرأي -
حرية التعبير والقول .

وقمين بنا أن نعلم أن هناك تلازما خلقيا طبيعيا بين التفكير ،
والتعبير .. حتى ان بعض علماء النفس ليقولون :

« الانسان يكلم نفسه وهو يفكر .. ولو راقبنا جباله
الصوتية ، ونظرنا الى حنجرته أثناء التفكير ، لرأيناها تتحرك -
وهو دليل على أنه يتكلم ولو لم يشعر بذلك .. »

أرأيتم الآن ما بين الحريتين من تلازم وارتباط ... ؟

ثم أرأيتم ان مكافحة الحرية مكافحة للطبيعة الغالبة ، وتحدي
لارادة الله .. ؟!

ولا يتمثل الرأي في شيء كما يتمثل في الصحافة ، فهي التي
يتشكل فيها الى حد كبير أسلوب الامة في التفكير وفي الحياة ...
وهي التي تستطيع أن تعبر في افاضة ، واحاطة ، وقوة عن
آلام الشعب وآماله ..

ولما كنا سنتحدث عنها في الفصل القادم باعتبارها أهم
العناصر التي تتألف منها شخصية الامة فسنرجى
الحديث عن حريتها ليأتى هناك مع الحديث عن تبعاتها وقيمتها

اطلقوا سراح العقل ..

والحديث عن حرية الفكر والرأي لا يبلغ مداه حتى يحمل
نصيبه من الدفاع عن العقل ذاته

ان العقل في بلادنا ، وهو مناط التفكير والفهم ، مشرد
محروم .. تطارده الحكومات ، وتطارده أيضا الجماعات .. !

فهو مشبوه سياسي تارة ، ومشبوه ديني تارة أخرى ..
ولا يكاد يبرز من كوى سجنه بزغة خاطفة ، أو يومض ومضة
بارقة حتى يفزع منه « المحافظون » .. !

وماذا ، بعد أن نظل عقولنا مسامة هذا الاضطهاد .. ؟
ماذا ، بعد أن نظل أمة بلا عقل ... ؟

إن المستعمر الذي يستعمرنا ، والمستبد الذي يحكمنا ،
والمستغل الذي يستغلنا - كل هؤلاء إنما يستعينون علينا
بعقولهم .

فإذا شئنا أن نزلزل الأرض تحت أقدام المستعمرين ، ونرد
الرجعية الاقتصادية على أعقابها لتلتزم مكانها الذي أرادها لها
التطور والتاريخ ...

وإذا قررنا الانطلاق مع الموكب الحى ، أحرارا كما ولدتنا أمهاتنا
- عاملين ، تتفجر بالادب والفن والانتاج مواهبنا ..
إذا كنا نريد ، فلا سبيل لشيء حتى يعود الغائب ، ويطلق
سراح السجين .. العقل !

إن الخوف والتقليد هما اللذان يلفان عقولنا فى الظلمات .
والعجيب أنها تخوف بالله .. ترى أين يلمس العقل سكينته
وأمنه إذا افتقدهما لدى الله ؟

إن الشعوب التى لا تحترم العقل لن يحترمها أحد - وستظل
أبدا مباءة تعج بالفسف والحماقات ونهبها يتربص بها كل مستعمر
وناهب .. !

ويجب أن نعلم أن العقل سيد نفسه ، وإذا كان لله خلفاء فى
الأرض ، فخلفاؤه العقل ..

والإنسان الذى يبخل عقله ، وينتزع منه اختصاصه ، لا يظل
إنسانا .. أنه كومة هزيلة من اللحم والعظم والاعضاء والأمعاء
يطلق عليها تجوزا لقب « آدمى » !

وهؤلاء الذين يثيرون العواصف أمام العقل باسم الله جدمفترين !

لقد اختلف الانبياء والمرسلون ، فكان لكل واحد منهم طريقة ومنهاج ...

واختلف أصحاب محمد عليه السلام وهو ثاو بينهم ومقيم ، واختلف أئمة الفقه في أخص خصائص الدين ... واحترم بعضهم لبعض هذا الخلاف ..

وما ذلك كله الا احترام للعقل، وتحريض له على المغامرة والتحليق ..

انظروا - تروا عمر بن الخطاب لا يخاف من الغاء نصيب المؤلفه قلوبهم ، مع أنه مضمون بأية صريحة في القرآن .. !

لماذا .. ؟ لان عمر استعمل عقله ، فاهتدى الى ان هؤلاء المؤلفه قلوبهم لم يعد ثمت ما يدعو للحرص عليهم مالم يأتوا مؤمنين راغبين .

ولو أن عمر ، رجل يعيش في عصر الانحطاط الذي نعيش فيه اليوم ، وصنع هذا الصنيع ، لتزاحمت من حوله الفتاوى بأنه كافر زنديق تحركه الجماعات التبشيرية ، وتموله السفارات الاجنبية .. !

ان استعمال العقل واحترامه بداية ما نريد من بعث ونشور - ولا بأس أن تخطيء عقولنا وتزيغ .. فسنهتدي آخر الامر والخطأ الذي يثمره تحرير العقل من الخوف خطأ فاضل نبيل .. وهذا هو الخطأ الذي يجعل الاسلام لصاحبه اجرا ..

ولقد كان الرسول عظيم ما يوم ضم الى صدره معاذ بن جبل تقديرا لشجاعته الادبية والعقلية حين قال : أجتهد رأيي ، لا آلو .. جوابا على سؤال النبي له :

- ماذا تصنع اذا لم تجد الحكم في كتاب الله ، ولا في سنتي ... ؟

وكذلك كان « جون ستيوارت ميل » بليفا وهو يقول :

« ان الحق ليستفيد من خطأ الذى يعتمد على فكره مع اتخاذ الالهية ، وانعام النظر - أكثر مما يستفيد من صواب الذين لا يعتقدون الصواب الا من باب التسليم دون أن يكلفوا انفسهم مثونة البحث ، ومشقة التروى »

دعوا عقولنا تتحرر من الخوف ، فليس شيء سواها بقادر على تحريرنا وناقذا

ولنذكر أن أعداء الشعب لا يرهبون شيئاً مثلما يرهبون العقل الطليق المستنير . لانه الرائد الباسل أمام كل حركة شابة ، وتطور زاحف .

انه يأتى « الرعايا » النائمين ، فيصيح فيهم صيحة الايقاظ .

- هبوا ، واستقبلوا موكب الحياة والنور .

ويأتى الطفلة المتآمرين ، فيدمدم عليهم بصياحه :

- صبحكم .. ومساكم .. !

انى اذا نزلت بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .. !

ومن أجل ذلك يبغضونه ، ويحاربونه - وعلينا أن نحرقه ليحررنا - ونخلصه ليخلصنا .

انا لنأسف ملء نفوسنا ، حين نرى بعض رجال الدين ، أو القلم ، يسهمون مع الفاسبين فى محاربة العقل وتأليب الجماهير عليه ، وتشكيكهم فى قيمته وفى نفعه ، وتجريئتهم على بهته ورجمه - حين يحصبونه بالحجارة والتهم ، ممثلاً فى آراء بريئة خالصة لأخوة لهم فى الوطن ، والالام ، والكفاح ...

ان هؤلاء لن يكونوا سوى فريقين :

أصدقاء جهلاء للشعب ..

أو أعداء خبيثاء له ..

فليختاروا لانفسهم مايحلو .

أما نحن فنختار لهم ، أن يكونوا أصدقاء علماء ... !

ونأسف أيضا لحكوماتنا التي تجبى منا الضرائب لتسخر بها عن طريق المصروفات السرية والعلمية ، على أولئك الذين يحاربون العقل والوعى بما يكتبونه ويذيعونه ..

وحين تدع كتب العشاء والتضليل تنشر بلا قيد ، ثم تصدر ، أو تهدد دائما بالمصادرة كل كتاب يبشر بالواجب ، ويخافت بالواقع المثير ..

واذا كان الخوف عدوا خطرا للعقل ، فالتقليد أشد خطورة وكيدا .. وهو ديدبان حارس لما للرجعية والتأخر من تراث .

والامم المنحدرة النائمة لا تفيق حتى تومض في حياتها ساعة تؤمن فيها بأن التقليد انتحار ..

ترى هل دقت هذه الساعة فينا ، وآن لها الاوان .. ؟

ان الجواب - مع الاسف - لا .

فنحن أمة تتلقت دائما من غيرها - دون أن يكون لها ابداع وابتكار

وهذا كلام يضل فيه الفهم اذا لم يكن بصيرا ، فقد يظن البعض أن استهجاننا للتقليد يعنى كل محاكاة نافعة ، وكل قدوة بالذين سبقونا الى الحياة .. كلا - والفارق بعيد بين التقليد والمسايرة ...

ونحن ندحض التقليد ، ونؤمن بالمسايرة .

ولكن ما علاقة التقليد بحديث يساق عن الحزبة .. ؟

ان العلاقة بينهما أكيدة وواضحة .

فالتقليد - عبودية ورق - واهدار لكافة مقومات الحرية، والشخصية

والفرد حين يقلد فردا آخر يمحو ذاتيته من الوجود .. .

والدولة حين تقلد دولة تقليد اعمى توقع منشور نعيها وخبر وفاتها ..

وفي بلادنا يكمن التقليد وراء كل عمل نأتيه ، ونهج نهجه
وفي غيرنا من بلاد الدنيا المتحضرة عليت نزعة التقليد
وهذبت ، وصارت تطورا ومسايرة
بالمشاهد المضحكة .. !

جماعات تقف في أقصى اليمين ، وعلى أبصارها غشاوة . وجماعات
أخرى في أقصى اليسار ، وعلى أعينها غطاء ..

ورجال دين يعلنون من فوق منبر الفاتيكان أن ملكوت الله ،
ورحموت الكنيسة حرام على من ينصر الشيوعية ، أو حتى
يتلو صحيفتها ..

فيقلدهم رجال دين عندنا كبار - مذيعين نفس الفتيا معلنين
نفس الاعلان

وهنا يتبين لك الفارق الاكيد بين المسايرة والتقليد - فالفاتيكان
ابتدع هذا النهج مسايرة لأمريكا بعد ان اعتمد له « الكونجرس »
علنا مئات الملايين من الدولارات جزاء وفاقا لحملته ومسايرته !
أما نحن ، فنقلد تقليد العبيد الذين لا ثمن لهم ولا جزاء ..

والحكومات عندنا - الفتى هي الاخرى عقلها - ومضت تقلد في
جنون وشغف -

فهى تارة تقلد « عنترة » ، فتخطب وتصخب ، وتبشش
بالضعفاء لتزجر بهم الاقوياء ، وتمزق الهواء بالسيف ، وتهتف
من « الشرفة » بسقوط الشيوعية ..

وتارة أخرى تقلد « جحا » يوم مضى يؤذن وهو يجرى في الطريق
فلما سئل : لماذا يصنع هكذا ؟

أجاب بأنه يريد أن يعرف الى أى مدى يبلغ صوته الجهير ! ..

فحكوماتنا تحمل نفسها أوزار العروبة ، وسفورها وفوضاها -
لأنها تريد أن تعلم . الى أى مدى يمكن أن يصل صيتها ، وإلى أى
مدى تستطيع أن تسوس إمبراطورية مترامية عندما يمن
الله بها عليها .. !

لقد كان جحا قادراً على معرفة منتهى صوته ومداه لو أنه وقف
مكانه ونادى بالأذان .. ولكنه أراد ذلك ليتيح للفارغين أن
يقلدوه ، وينتفعوا بذكائه .. اننا فى كارثة ، ونحن لاندري ..

فالتقليد لدينا محور حياتنا

وهو يذهب صاعداً - فتقلد الجماهير روادها من كتاب
وصحفيين وبرلمانيين ..

وهؤلاء جميعاً يقلدون الروح المتخلف من سكان الأرض
والقبور ..

ثم يأخذ التقليد ترتيباً آخر تنازلياً ، فنرى الشعب مثلاً
يصيح ..

هيا الى فلسطين - فردد الكتاب والرواد صده ..

هيا الى فلسطين - وإذا الحكومة تصيح هى الأخرى - هيا
الى فلسطين .. دون أن تهيب أو تستعد وتقف على صخر مكين .
والجماهير - تنفس عن غيظها العاجز المكبوت ، فتهتف ..
تسقط الرأسمالية ..

وتقلدها الحكومة ، فتصرخ - تسقط الشيوعية .. !

ان عقليتنا السياسية تقلد ، وعقليتنا العلمانية تقلد ، وعقليتنا
الإصلاحية تقلد .. لذلك نحن أمة تافهة - فقدت نفسها لأنها
فقدت عقلها - فإذا أردنا أن نجد أنفسنا ونفرض على الآخرين
وجودنا واحترامنا ، فلنقدر العقل قدره .. ولنمكنه من أن يفكر فى
حرية وانطلاق - لا يخاف وهماً ، ولا قانوناً - ويساير النابيين
مسيرة مبصرة . ولا يقلدهم تقليد المكوفين .

غريزة « أنا » - الحرية السياسية ...

عندما نتحدث عن الحرية هذا الحديث المتنوع ، فنقول حرية الفكر ، وحرية الرأي ، وحرية النقد - الى آخر هذه التقسيمات ، فليس معنى هذا أن الحرية تتجزأ ..

ان الحرية وحدها متضامة متداخلة لا تقبل التجزئة ، ولا التفيت - ولكننا نكسوها هذه الازياء المتنوعة - تبعا لتنوع الظروف والمقتضيات .. والحرية هي الحياة .. والحياة لا تتجزأ - فأما حياة كاملة - وأما موت كامل -

من أجل ذلك صاح محرر قديم - اعطنى الحرية - أو الموت ! ونريد الآن ان نتحدث عن الحرية السياسية للشعب - وهى الانفعال السامى لاعرق غرائزه ، وأنفعها ، وأغناها .

غريزة « أنا » حب الذات ، وإثباتها ، وتوكيدها - ان الشعوب المستعبدة تعجز دائما عن أن تقول : أنا .. اسمعوا هذه الحقيقة جيدا .

ان الشعب المسترق لا يستطيع أن يقول : أنا ... مشيرا الى نفسه ..

ولكنه يقول : هو .. مشيرا الى سيده !

وعلاج شعبنا اليوم فى لسانه .. أن يقول دائما :

أنا .. أنا .. أنا

أن توكيد الشخصية يتطلب مددا زائدا من قوى الفرد ، وقوى الجماعة .. وإذا كانت التعاليم المغلوطة ، والاهانات المتكررة ، والاستعمار المتفطرس .. إذا كانت هذه جميعا قد نزعنا كبرياءنا ، فلنحاول من جديد أن نكون أهل ثقة واعتداد وكبرياء . لقد قرأ نابليون فى صغره - ان من أراد ان يكون شيئا ما ، فليهدف

كل يوم ثلاث مرات عن وعى وانتباه - يجب أن أكون ذلك الشيء ..

وذهب ، فكتب « لافتة » واضحة الكلمات - وناطها بجدار غرفته - وفي كل صباح يرتدى ثيابه - ثم يستقبلها في وقفة عسكرية - ويقرا كلماتها المكتوبة في قوة :

- يجب أن أكون جنرالاً .. !

وانكم لتعلمون أى شيء قد صار - نابليون ..

نريد ان نكون مجانيين مثل الطفل نابليون ..

فيهتف كل مصرى صباح كل يوم - انا مصر ..

نريد أن تصف كل سيدة صغارها وأشباهها قبل منصرفهم من المنزل في الصباح - وتطلب اليهم أن يصيحوا جميعا - نحن مصر ..

نريد أن تقف « طوابير » التلاميذ والطلاب في ابهاء معاهدهم ومدارسهم لتهتف صباح كل يوم - نحن مصر ..

نريد أن يفتح النواب والسيوخ جلسات البرلمان بهذه الصيحة الواثقة - نحن مصر ..

ولكن بعد ان تمثل مصر في برلمانها تمثيلاً صحيحاً .. ينتظم فقراءها قبل أغنيائها .

لن نعرف حقنا - حتى نعرف أولاً - أنفسنا ..

ولن يعترف أحد بوجودنا .. حتى نثبت أولاً هذا الوجود ..

والسبيل لهذا :

ان تقف - لنرى .

وان نتحدث - لنسمع

وأن نقتحم - لنخشى

وقبل أن نقول : نريد - يجب أن نقول : نحن !

وإذا ما سئلت : أتدعو الناس الى الانانية ، وحب الذات ، وحب
الظهور .. ؟ !

أجيب : نعم .. يجب أن نتحلى بفضيلة الانانية .. الانانية
المستتيرة الفاضلة ، التى تحفزنا الى ادراك قيمتنا ، والعكوف على
مطالبنا ، والنهوض بواجباتنا ، والتشبث بحقوقنا ..

لقد قتلنا التواضع ، وبددنا طول الانطواء والانزواء .. فلنبرز
الى الافق ، ولنبصر أنفسنا من جديد ..

ان الانانية البغيضة هى تلك الفردية التى تطويك على نفسك ،
وتلفك فى اطماعك وشهواتك .. أما الاخرى التى نريدها - فهى
تعرفك بنفسك - لا تطويك عليها - وتشرك ضخما ضخما عظيما ،
لتملاً أفقك وفراغك ..

ولكى يبلغ الشعب هذه المكانة ، ويحقق فى مجموعته هذه الفضيلة
- يجب أن يبدأ أفرادها بذلك ..

غادر نفسك - اذا كانت نفسك قبوا مشحونا بالاطماع ..

وأنشئ لك نفسا جديدة لهامثل ، ونهيج ، وكفاح بحيث تتلاقى
مثلك ونهيجك وكفاحك مع حاجات وطنك ، ومصلحة مواطنيك ..
واعكف على نفسك هذه .. فلن تكون أنانيا بغيضا .. بل أنانيا
مستتيرا .

وإذا كان هناك ما يعين على هذه الطريق بعد أنفسنا ، فهو إتاحة
الحرية السياسية لنا إتاحة كاملة لا تكتنفها عوائق ولا قيود .. فعن
طريقها تتحقق كرامتنا السياسية ، ووجودنا القومى والانسانى .

ان الحياة السياسية للامة تنتظم كثيرا من العناصر والادوات
- ولكنها تتركز أخيرا فى الحكومة ، والبرلمان .

فالبرلمان يشرع للإمة سياستها - والحكومة تقوم بتنفيذ هذه السياسة - وبين الاثنين تفاعل يذهب طردا وعكسا ، فالحكومة تؤثر في البرلمان وتخضع له . . وهو يؤثر فيها ويخضع لها . . والطريق المفضى لتحقيق حريتنا السياسية هو : ديموقراطية الحكم والديموقراطية النيابية - فلنتحدث عنهما -

ديموقراطية الحكم

لكى يكون الشعب حرا - يجب أن يسود . .
ولكى يسود - يجب أن يحكم
وهذه هى الديموقراطية . . حكم الشعب

وما دامت الحكومة ثمرة انتخابات يختار الشعب عن طريقها ممثلين ، ليعينوا بدورهم نوع الحكومة التى ستحكم . . فان الشعب اذن هو المسئول وحده عن نوع حكومته ، وسنوضح هذه المسألة عند الحديث عن الاصلاح البرلمانى . . بيد أننا نريد أن نقرر هنا أن الحكم الديموقراطى اذا غربت شمسُه عن أمة ، فقد غرب معه استقلالها ، ومال مستقبلها للمغيب . . وبعبارة أخرى . .

ان الحكم الاستبدادى يقوض سيادة الدولة ، ويهين الامة للعبودية والاستسلام . لذلك يجب أن يسلك كل حاكم طاغية في عداد « الخائنين العظام » - لانه باستبداده ينزل الشعب منزلة رديئة من الاستياء والقنوط يفقد فيها زمام التصبر والاحتمال . . فيرحب بكل طارق يقرع أبواب بلاده ، ويرى المقاومة ضربا من العبث والجنون . .

ماذا وراءه حتى يحرص عليه، ويدود عنه . . ؟

لقد قال الشاعر العربى :

وحبب اوطان الرجال اليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا

فأذا تلفت الشعب وراءه، فلم يجد له ذكريات سعيدة تستجيشه
وتناديه - ففي سبيل ماذا يقاتل؟

وقال شاعر آخر:

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

فإذا ابصرت الجماهير بالأشجار التي أبت أن تظللها من الهجير ،
وتطعمها من الجوع .. تجتاحها الأعاصير ، أو تعدو على ثمارها
الذئب .. فلماذا تدافع عنها ؟ !

لذلك لا نجد غازيا سار عبر التاريخ الى مدائن ففتحها ، أو
عروش فدكها ، أو امبراطوريات فأذاقها لباس الخوف والذل -
الا كان استبداد الحكم في هذه البلاد المفتوحة الصريعة ، الطريق
المهد الذي دخل منه موكب الغازين ..

انصتوا لغوستاف لوبون -

« استقبل كثير من البلاد المحتلة غزاة فرنسا كمحررين لها
- فقد هرع سكان سافوا الى رؤية الجنود الفرنسيين ، واستقبل
الناس في مايانس هؤلاء الجنود بحماس .. وغرسوا أشجار
الحرية ، وأسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس ..

« .. وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمم
أذلها الملوك المستبدون ، ولم يكن لها خيال تذب عنه - كان النصر
يحالفها .. ولكنه كان يتعذر عليها عند اصطدامها بأناس أولى خيال
وثيق كخيالها .. »

اذن فالحكام المستبدون في أمة هم طابورها الخامس الذي يعمل
بشعور أو لا شعور ، لحساب الغزاة والمستعمرين ... وهم
الذين يحيلون الشعب الصلب المتماسك الى زبد طرى تجرى
فيه السكين ..

واذن فالامة يتقرر مصيرها ، يوم ينهض فيها حكم استبدادى
ولو تلفع بأردية زائفة من الديموقراطية ، وما أروع - اذن
- محمدا رسول الله حين يقول :

إذا وسد الامر لغير أهله فانتظر الساعة ..

أى اذا صارت أمور الامة بيد من ليس للحكم أهلا ، فانتظر
الساعة .. الساعة التى تدق معلنة وفاة هذه الامة .. ناعية
سيادتها واستقلالها .. ! وهل يكون المستبد أهلا للحكم أبدا ؟
انه لا يكفى شكل الديموقراطية بل لابد من حقيقتها .

وليس يكفى أن يكتب فى الدستور : الامة مصدر السلطات
ثم يكون الواقع - ان الامة ضحية السلطات .. !
وليس يكفى أن يحمل حكامنا « جنسية مصرية » بل لابد أن
يجرى فيهم دم مصر ، وآلام مصر وآمالها ..

ان الحاكم الديموقراطى يحترم الشعب ، ويجعله فى عينه
أجل من أن يخدعه ، وأعظم من أن يضلله ويحترم حقوقه جميعا
أدناها ، كأخطرها .. ولطالما تستبد بنا الدهشة والعجب حين
تضطرب أمورنا ، فنفقد توازن الحكم وديموقراطيته ، ونتساءل
مانحن ؟ ..

عرب - أم فراعنة ؟ ..

ثم تتكاثف الدهشة حين نجدانه لادين العرب الذين هم آباؤنا
ولا دين الفراعنة الذين هم جدودنا - يبيح الاستبداد ،
ويمنح الحاكم المستبد حق الطاعة والاحترام .. !

فهذا هو الرسول يقول :

« مامن امام يفلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا
اغلق الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجته .. »

ويقول : « اذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعصمكم الله بعذاب من عنده .. »

ويقول : « اللهم من ولى من امر أمتي شيئا ، فشق عليهم ، فاشقق عليه .. »

ويقول : « ان شر الرعاء الحطمة . »

ويقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، ويصلون عليكم ، وتصلون عليهم .. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم . »

ويقول : « اذا أراد الله بالامير خيرا - جعل له وزير صدق ، ان نسي ذكره ، وان ذكر أعانه .. واذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء - ان نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنه . »

وهذا عمر يعدو وراء بعير شارذ من ابل بيت المال .. حتى اذا سئل :

« ألا نتعقبه نحن ، وتستريح أنت يا أمير المؤمنين ؟ »

أجاب وهو يهدر :

ولماذا اذن أكون للناس واليا واميلا .. والله لو ضاع عقل بعير بالعراق لخشيت أن يسألني الله عنه ، ويقول لى :

« أنستودعك حقوق الناس ، وتنام عنها يا عمر .. ؟ ! »

أى أن عمر رضى الله عنه يقدر مسئوليته ازاء حق الشعب فى عقل بعير - فى جبل من مسدلايساوى شيئا - فكيف كان تقديره اذن لحق الشعب فى الحرية .. ؟

هذا هو الاسلام - اذا كنا مسلمين ..

وماذا فى دين المصريين الاقدمين ؟

انها نفس التعاليم التى تلزم الحاكم باحترام الشعب ، ونشر الحرية والعدل والمساواة بين أبنائه جميعا

لنضع أبصارنا الآن على الصفحة الثالثة والتسعين
من الجزء الثانى لكتاب « قصة الحضارة » .. حيث نطالع
الخطاب التقليدى الذى كان يلقيه الملك على الوزير حين يتقلد
منصبه ! ..

« اجعل عينيك على مكتب الوزير ، وراقب كل ما يحدث
فيه ، واعلم انه الدعامة التى تستند اليها جميع البلاد ..
ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة .. واعلم انها ليست اظهار
الاحترام الشخصى للامراء والمستشارين وليست وسيلة
لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيدا ..

« انظر . اذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ،
فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شئ ، وان يعطى
كل انسان حقه .. واعلم أن المحابة بغيضة الى الاله ، فانظر
الى من تعرفه نظرتك الى من لاتعرفه .. والى المقربين الى
الملك - نظرتك الى البعيدين عن بيته ..

« انظر . ان الامير الذى يفعل هذا - سيبقى هنا فى هذا المكان
.. وليكن ما يخافه الناس منك انك تعدل فى حكمك ..

« ارفع القواعد المفروضة عليك . »

هذه آيات يفسدها التعليق ، فلندعها هكذا متأنقة متألفة
- ولنتساءل مرة أخرى .

من أين لنا اذن ما يصبغ حكوماتنا جميعا بصبغة الفتو
والاستبداد ؟ ..

من الاسلام .. ؟ لا ..

من المصرية القديمة .. ؟ لا ..

اذن . فمن أين .. ؟ من أين تهب هذه الريح السوموم .. ؟

لابد انها من الماضى .. حيث الاستعمار التركى المتوحش .

ومن الحاضر . . حيث الاستعمار الانجليزى الخبيث .!

لقد أتى على جماهيرنا المستعبدة حين طويل من الدهر زيف فيه دينها تزييفا هادفا ليسلس قيادها ، وتتلشى أمام الطفلة ارادتها . فقبل للمسلمين منا : ان نبيكم يقول :

« اسمع لاميرك واطعه ، وان جلد ظهرك واخذ مالك »

« كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب »

« الزموا طاعة امرائكم ، وان ظلموا . . ، فان الله مبتليكم بهم »

وحاشا محمدا . . ثم حاشاه أن يقول من هذا شيئا . .

وقيل للمسيحيين منا ان دينكم يقول :

« أيها العبيد - فلتخضعوا لآسيادكم ، والخوف يملأ نفوسكم . ولا يكون هذا خضوع للخيرين منهم ، ولا للرفيقيين فحسب - بل وللشريرين أيضا - رسائل بطرس .

« أيها العبيد - اطيعوا ساداتكم في خوف ، ورعدة . . - الرسالة الموجهة الى الفيزيين

« على جميع من يخضعون لنير الرق أن يعتبروا آسيادهم جديرين بكل تبجيل - الرسالة الموجهة الى تيموتيوس . . !
وحاشا روح الله - وحاشا حواريه الصادقين أن يقولوا من ذلك شيئا . . !

انها اذن مؤامرة قتل الاستبداد جبالها من زمن وسلك فيها ضحاياها من الشعوب .

فلنحذر . . ولنعش أحرارا كما ولدتنا الامهات ، وتشققت عنا الارحام . .

الديموقراطية النيابية :

واذا كانت ديموقراطية الحكم لازمة لتحقيق الحرية السياسية فى الامة ، فالزم منها وأخطر الديموقراطية النيابية ... فالبرلمان هو الذى يثمر الحكومة ، ويعين اونها .. وعملية الانتخاب هى التعبير الصحيح عن ارادة الشعب وحرية السياسية اذا لم تخالطها رغبة ولا رهبة ..

والديموقراطية النيابية تتحقق بعناصر أهمها : -

١ - حرية الترشيح ..

ب - حرية الاقتراع ..

ولنبدا الحديث عن أولها ..

حرية الترشيح

ان المواطن الذى يتقدم الى الناخبين طالبا ثقتهم ، يجب أن يكون حرا .. ويجب أن يشعر بالحرية المطلقة شعورا غامرا حتى يواتيه الاحساس الصادق بكرامة مهمته وقدسيتها .

ولكن الترشيح فى بلادنا مصفد بهذه القيود .

١ - الدوائر المغلقة ..

٢ - العصبية والحزبية

٣ - القيود البرجوازية ..

أما الدوائر المغلقة فبدعة فى حياتنا السياسية .. وهى نوع مهذب لاسواق الرقيق .. لان فحوى هذا النظام أن تتفق الاحزاب على توزيع مناطق النفوذ .. فيأخذ كل حزب نصيبه من الدوائر ، ثم يفرض عليها من مرشحيه من لا تكون لهم موهبة سوى موهبة التبطل والفراغ ! .. ويحرم على

ذئاب الحزب حرف (ا) أن تعتدى على ذئاب الحزب حرف (ج)
بل لماذا نعلم الذئاب .. ؟

ان نظام الدوائر المغلقة يقضى على المنافسة الحرة فى الترشيح
ويجعل أحزابنا قريبة الشبه (بالتقوات) الذين يتقاسمون
الشوارع والأحياء .. ! ولا بد لكى تنال حريتنا النيابية من
إلغاء هذه البدعة وتحريمها .

وليس بخاف عنا ، أثر العصبية ، وقوائم الترشيح
التي تصدر عن الأحزاب ، فى تسيير المعركة الانتخابية فى طريق
بغيدة جدا عن الحرية والديموقراطية .

ولقد أهدرت من وقتى كثير الكى أتمكن من مراجعة بعض
قوائم الترشيح الحزبى التي صدرت فى بلادنا .. وامامى الآن
منها خليط متنافر ، لأحزاب عدة لن أذكر لك أسماء .. وحسبك
أن تعلم أن تسعين فى المائة من الذين تحمل القوائم أسماءهم
ليسوا أكثر من حزم كبيرة من البنكنوت والجهل والنفاق .. !
لقد آمنت بأن الأحزاب لا تحترم الشعب أبدا مادامت
تختار له هذا الاختيار .. !

ان الحزب - فيما يبدو - لا يريد نائبا يشرفه بعقله ومواهبه
ولكنه يريد - بوليصة تأمين - تؤمن خزينته من الأعواز ونفوذ
من الخذلان .

وهكذا تباع الأحزاب - الناخبين الى مرشحها .. ثم
يعود المرشحون .. لبيعوا الناخبين ومصالحهم الى الأحزاب
ولسنا ننظر الى خطر قوائم الأحزاب من هذه الزاوية وحدها
- بل ومن الزاوية الأخرى حيث تستعمل الأحزاب نفوذها
- غالبا - فتعمل على إنجاح عملائها الذين فرضتهم على الشعب
.. ومن زاوية ثالثة - حيث يتسم النظام النيابى بما قد
يصلح وصفه بالخسة والدناءة .. اذ لا يسجل اسم مرشح فى

قائمة الحزب الا اذا نقد الحزب ثمن هذا الترشيح - هذه جريمة بشعة ..

فنحن نعلم ان المرشح لا يدفع الفامن الجنيهاات مثلا الا ليضمن بها الفوز والانتصار .. والحزب يعده ذلك ويمنيه ويعمل جاهدا لاجله . ويقبض منه الثمن على هذا الاعتبار ..

بماذا تسمى هذه العملية المتبجحة الرخيصة ؟

أهى سمسرة ؟ أهى غش وتدليس .. أهى تجارة رقيق ، يباع فيها الناخبون للمرشحين ؟

نعم - هى كل ذلك .. والغرم دائما على الشعب الاسيف فالمرشح الذى يرشو حزبه بألف جنيه ، وينفق فى المعركة مثلها . يعود فيتقاضى مادفعه أضعافا مضاعفة .. ومن أين .. ؟ من الشعب وعلى حساب مصالحه . فهو اذا نجح فى الانتخاب يصير رجلا ذا نفوذ .. وهذا النفوذ لا يتحرك لقضاء حاجة الا بثمان .. لا يسمونه طبعا رشوة ، ولا سمسرة . انه فقط (مصاريف) الانتقال . وثمان القهوة ، أو ثمن البنزين .. !

وللذين يوضعون فى قوائم الترشيح اثمان متفاوتة ، تختلف باختلاف الدائرة ، والحزب هل الدائرة مقفلة أم مفتوحة ؟ لكل من الاثنين ثمن ! وهل الحزب ضالع مع الحكومة التى ستجرى الانتخابات أم غير ضالع ؟ لكل من التقديرين ثمن وفى أحزابنا تقرر أجراس المزايدة .. والاوكازيون .. ففى هذا الحزب تساوى الرأس .. خمسمائة ..

واذا كنت رجلا رقيق الحال فلا تحزن .. ستجد أحزابا أخرى رقيقة الحال مثلك تثن رأسك بثمان بخس - مائة جنيه مثلا .. وخمسين أيضا اذا هانت عليك رأسك كل هذا الهوان .. !

فاذا غادرنا القوائم الى العصبيات ، ألقينا فسادا كبيرا
فهناك ترى مثلا - رجلا مفرط الجسامة ، منتفخ الاوداج ..
حذار أن تطيل اليه النظر ، وتحملق بعينيك الفضوليتين في
وجهه الكريم .. انه السيد المالك .. الذى يملك القرية
كلها .. وربما يملك معها القرى التى حولها .

حسب هذا السيد حين تخلو الدائرة - أن يعلن فى كلمات
متأففة متكلفة .. أنه سيد دخل المعركة ، فلا تكون قط معركة
.. لن يجرؤ أحدهما تكن ثقافته على مواجهته فضلا عن مزاحمته

ولقد حدث مرة أن اجترأ رجل فاضل جدا ، ومثقف جدا
- على ترشيح نفسه فى إحدى دوائر الصعيد أمام سيد كبير ..
فضرب السيد الارض بقدمه فانشتت - وخرج منها أحد
خدمه وعبدانه .. فانسحب السيد من الترشيح ، واقسم
بعزة آبائه أنه لن يرشح سوى هذا ، ولن ينجح سواه .. هذا
الخدام الاقرع الاعرج الذى يتبول على نفسه ، ويظن أن
السماء تمطر رذاذا ..!!

وقد كان .. واحرج الرجل المثقف الفاضل - كان يمر
بالدائرة فى بضعة أنفار من عصبية المتواضعة ..

وكان خادم السيد يسير فى موكب يزرى بالموكب ، وكرنقال
تهتف الدنيا له ..!!

لابأس ان يرشح الخدم وينتخبوا - فهذه دعوتنا
ورسالتنا - أن يحرر العبيد ، وترتفع قيمة الانسان ..! ولكن
الموقف هنا مختلف اختلافا بعيدا وهو من
الوضوح بحيث يعتبر تفسيره اتهاما لفطنة القارئ وذكائه ..

ان العصبيات وقوائم الترشيح تطأ حرية الاقتراع
بأظلالها وتبدها تبديدا ... والدوائر المغلقة كذلك - ورابعة
الاثافى ، ان كان للاثافى رابعة .. هى :

القيود البرجوازية

انها تسجن امكانيات الشعب فى قانون ...

قانون لايسمح لك بالترشيح الا اذا دفعت مائة وخمسين جنيها
.. والا اذا كانت ضريبة الدخل التى تدفعها عن أملاكك وأطيانك
مائة وخمسين جنيها كذلك اذا كنت ستدخل مجلس الشيوخ !
ان مقاييس الجدارة فى بلادنا لا تزال أبعد ماتكون عن المواهب
الجديرة بالاحترام ..
انها تناط بمالك .. ووسامتك .. ونوع الدوحة الكريمة التى
تنسب اليها .. !

وقد يحسب المثرون أن مائة وخمسين جنيها للتأمين شئ غير
معجز .. وهم معذورون لان أكوام الذهب والورق التى أمامهم
تخفى عنهم ملايين المواطنين الشرفاء .. الذين يعيشون من
اليد للقم ، والذين قد يتقاضى أحدهم ثلاثين ، أو أربعين جنيها
ولكنه يوم يموت لا يجد أهله ثمن الكفن الذى يلف حطامه ،
وعظامه ... !

ثم ان هذه القيود ، حتى مع القدرة قبيحة ، برجوازية ، مثبطة
قد يقال : ان هذا التأمين الذى يؤهلك للترشيح .. أو
ذلك الشرط المادى الذى يشترط ملكية خاصة تؤهلك للشيوخ ..
انما توخى بها القانون تنظيم الترشيح ، وحصره فى نطاق
معتدل معقول .. حتى لا يتقدم كل من هب ودب ..
وسنفترض ان هذا هو الباعث ؛ وانه باعث سليم .
وعندئذ نسأل :

لماذا تناط المسألة اذن بالمال ؟ .. ؟

هنا تبرز الاغراض الرأسمالية الواقفة وراء كل تشريع ؛ والتفكير
الاقطاعى الذى يمسك زمام المجتمع وزمام الحياة ..

فليكن المناط في هذا المجال - العلم ... المؤهل العلمى ...
وحتى هذا نحن لانرضاه . . ونرفض أن تقيد ارادة الترشيح
بأى قيد سوى قيد المواطنة . والصلاحية . .
ومن القيود البرجوازية أيضا السن . .

فأنت ؛ مهما تكن مواهبك ونضجك ، لا تكون نائبا حتى
تبلغ الثلاثين . . وقد تسقط فى أول محاولة لك ؛

وفى الثانية أيضا . . فلا تتمكن أن تخدم بلادك داخل
البرلمان الا ابتداء من الاربعين مثلا . . !

ألسنا نمنح الشاب ابن العشرين ، أو ابن الثالثة ،
أو الخامسة والعشرين شهادات عليا ، تتيح له أن يكون محاميا ،
أو طبيبا ، أو أستاذًا ، أو قاضيا . . ؟ !

فهل هذه الوظائف فى قيمتها والتزاماتها لاتهم الدولة ، فتعهد
بها الى الصبيان . . ؟ !

أى فارق بين وكيل للنياحة فى سن الخامسة والعشرين
يجلس الى يمين القضاة .

وبين وكيل للامة ، فى مثل هذه السن ، يجلس تحت قبة
البرلمان . . ؟

فلتفض هذه القيود . .

فلا يشترط التأمين - ولادفع قدر من الضرائب محدود . ولا
سن الثلاثين - ولا الاربعين .

ان سن الرشد الذى اعتبرته الدولة ؛ وحددته باحدى وعشرين
هى السن اللاتقة للبرلمان بمجلسيه - النواب والشيوخ .
نبدأ منها ، وننظر مادام فينا جلد وقدره وحياة . .

وبعد؛ فان مجالسنا النيابية حتى اليوم لم تمثل الامة ، يقدر

مامثلت الحزب .. وكان هذا سببا مباشرا لكل مانعائه من
ويلات

والبرلمان الذى يأتى ثمرة هذه الاوضاع الفاسدة - لايحكم
الحكومة بل تحكمه ..

ولا يعزف عن تأييدها أبدا - عدم محاولات ناشئة بدأنا نحسها
فى البرلمان القائم .. قد تتضاعف وتنمو - وقد توجه اليها صيحة
زاجرة ، فترتد على أدبارها ، وتنكص على أعقابها ..

فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ - وافق مجلس العموم البريطانى
بأكثريه (٢٣٥) صوتا - ضد (٢٢٩) صوتا .. على تعديل
تقدم به حزب المحافظين بشأن بعض المسائل البرلمانية .. أى
ان حزب المعارضة انتصر على الحكومة فى برلمان لها فيه أغلبية
الاعضاء والآراء ..

فما دلالة هذه الظاهرة التى تتكرر كلما تكررت مقتضياتها ؟
انها تدل على ان النائب هناك ، يعرف نفسه جيدا .
ويدرك انه يمثل الامة فى البرلمان ويمثل الحزب فى الامة .
أما عندنا ، فالنائب يمثل الامة فى الحزب ، ويمثل الحزب
فى البرلمان !

فارق كبير جدا - فمتى نبلغ مبلغ الرجال . ؟

ب - حرية الاقتراع .

الاقتراع - هو الادلاء برأى حرقى اختيار ممثل لمجموعة من
الناس - يثمر تلك المنظمة النيابية التى نسميها « البرلمان »

والبرلمان - هو الهيئة المختارة الممثلة للامة ، والتى تثمر الحكومة
الديموقراطية ، وتراقب سلوكها

والحكومة - هى الهيئة التى تقوم بحماية الدولة ، وتنفيذ
قوانينها ، ورعاية مواطنيها ..

واذن ، فنحن حين نختار نوابنا ، أو شيوخنا - نختار فى

نفس اللحظة الحكومة التي ستحكمنا ، بل والقوانين التي
ستسيطر على مجتمعا . والسياسة الداخلية والخارجية
ببلادنا ...

فاذا كان الشعب اليوم بمعزل عن المؤثرات الحقيقية في سياسة
وطنه - لايسهم في تقرير مصيره . .

واذا تكون كربة يدعى لها - واذا يحاس الحيس يدعى جندب
فمعنى هذا انه - كان الله معه - لاينتخب ، ولايختار . . وانما
يساق سوقا عنيفا ، أحيانا - ورفيقا، أحيانا أخرى الى التصديق
على الذين تضعهم الظروف السعيدة أمامه من مرشحي
الاحزاب ، ومرشحي السلطات، ومرشحي العصبيات !
هذه هي الحقيقة . .

ان الحرية السياسية في بلادنا كالاشتراكية تماما . . . كلتاهما
اكذوبة على شفاه الكبار . . وهم في أحلام الصغار . . !
أصبح أن الناخبين حين يساقون الى الصناديق
بالوسائل المعروفة يتمكنون من صوغ رأيهم واملاء ارادتهم . . ؟
أصبح ان هذا المواطن المحطم المتهالك الذي يحمل
هموم الثقلين . . ويزلزل سكينته صراخ عشرة بطون
جائعة هي بطون زوجه وأولاده .

هذا المسكين الذي برقت أمام حاجته وحرمانه ورقة
بنكنوت ، تتيح له امتلاك خمسين قرشا تجعل جحيمة
فردوسا أعلى . . وتجعله في لمح البصر من الاغنياء والموسرين
. . ! على أن يعطى صوته لرجل لايعرف عنه شيئا ؛ الا انه
أحياء . . يوم كانت حياته منوطة بهذه الخمسين . .

أتظنونه سيأبى . . ويذهب ليختار مرشحا آخر لايرشو
ولا يعطى ؟ . .

كلا - ولو كان مرشح السماء . . . !

ومواطن آخر . . ذلك الذى يقع فى منطقة نفوذ مالك كبير ،
، فيؤمر أمرا باختيار مالكة . أو من يهبه المالك رضاه ، فيمضى
صبيحة الانتخاب أسيفا مكتئبا يحسد الآخرين الذين هم فى
منح أصواتهم أحرار . . يبيعونها بالثمن الذى يشاءون . .
أتسمون هذا انتخابا . . ؟

أعرف فى مصر « تفتيشا » غليظا أنا أحد رعاياه . . وقريتى
كلها تقع بين فكيه ، وفى دائرة نفوذه - ومعها بلاد وبلاد . .
فاذا جاءت انتخابات ؛ لم تجد المرشحين هناك يتزاحمون على
أبواب الناخبين ، ولا يسعون اليهم . . بل يتسابقون الى سراى
التفتيش . .

وهناك يجلس « البك » « المفتش » ينقر مكتبه الاثيق
بأنملة سبابته ، فيهب سكان أربعة بلاد وقوفا ، وصفوفا . .
ثم يومئ اليهم بطرفه ، فيخروا ساجدين . . !

فعندما تزور « البك » المفتش وتصلان معا الى اتفاق معلوم .
ويعدك بأن الصفقة لك ، فقد ضمنت قطعاً أصوات هذه البلاد
جميعا . . وفى يوم الانتخاب « المشؤم » يساق القطيع المسام
يشغوا ثغاء هزيلا . .

من تنتخبوا . . ! التفتيش . !

من نائبيكم . . ؟ التفتيش . !

انظر . . انهم لن يختاروك فحسب ، بل وسيجعلونك
تفتيشا . . . !

حدث هذا ، ولا يزال يحدث . وفى يوم من تلك الايام التقى
أستاذ فاضل باحدى المدارس الثانوية بمعاون التفتيش ، وهو
واقف بين الناخبين ، يذكرهم ويحذرهم فأخذته عزة العلم ،
وكرامة الانسان ، وثار فى عنف . . .

وثار معاون التفتيش فى عنف أكثر . .
كان المدرس الفاضل يتحدث بقوة كرامته وحدها . .
وكان الثانى يتحدث بقوة تفتيش باذخ عظيم . .
كان الاول يترافع عن حقوق الانسان . .
وكان الثانى يترافع عن حقوق الاطيان . . !
ماالكرامة . . أمام تفتيش، فى بلد كمصر . . ؟
وماحقوق الانسان ، أمام الاطيان ، وآلهة الاطيان ، فى
بلد كمصر . . ؟ !

انتخاب هذا . . أم انتهاب ؟
اختيار هذا . . أم اقهار ؟
كل شئ فى بلادنا مظلوم . حتى اللغة - حتى الكلمات ! . .
ان الانتخابات - هنا - ملحمة عظمى ، تصرع فيها ارادة
الشعب وحريته . .

وهذه الجماهير المتراكضة تسخر فقط لحمل الاعضاء
على الاكتاف حتى تبلغ بهم باب البرلمان . . وهناك يسمح لها
بالعودة . . فتعود الى نجوعها، وجوعها تفرع سن الخيبة ،
وتزدرد آمالها اللاعبة وأمانيتها المتعبة . . !

ان حرية الاقتراع تعيش فى هذه الاصفاذ .
ا - الاقطاعيات والتفتيش . وقد ضربنا من واقعها مثلاً . .
نعتقد أنه يتكرر فى كل ضيعة وتفتيش .

ب - الرغبة العامة فى التزييف . .
وهى تبدأ من رجل البوليس - وتنتهى عند رئيس الحكومة .
أما رجل البوليس الذى يقترب هذا الوزر ، فيكون حافزه غالباً
المجاملة ، أو المعاملة . .

ولسنا هنا نعيب هيئة البوليس، أو نتهمها .. فليسوا
سواء .. اننا نشخص مرضامن أخطر أمراض مجتمعا ،
ولبعض رجال البوليس دور ملحوظ فى نشوئه، ومضاعفاته
والبعض الآخر عفا كريم

هذا الرجل البوليسى الذى يخون واجبه، ويسبىء استعمال
سلطته - يستغل ضعف الجماهير وخوفها ، فيمسك
أزمته بواسطة شيوخ الخفراء فى القرى ، وشيوخ الحارات فى
المدن ، ثم يوجهها حيث يريد .. انه يهدر أمانة الواجب من
أجل مجاملة أو معاملة ..

أما الحكومة التى تجرى الانتخاب - فاما أن تكون حزبية
، أو لا تكون .. فان كانت ، فان الحزبية تدفعها الى توكيد
ذاتها ، ونشر لوائها ، فتزيف - وان كانت محايدة تنتابها
الفلسفة المكيافيلية .. فالغاية تبرر الوسيلة - والغاية عندها،
ايجاد برلمان صالح .. حسب فهمها الخاص لكلمة صالح .. !
والوسيلة هى اكراه الناخبين على اختيار الصالحين ..
الصالحين فى نظرها أيضا وهى تقنع نفسها بأن الشعب جاهل،
ولا يحسن الاختيار .. وهذا حق ..

ولكن ، ما السبيل لان يتعلم ، ويحسن الاختيار ؟

الطريق هو الحرية ، والتجربة ..

دعوه يتخير ، ويخطيء - ثم يتخير ، ويخطيء حتى يبرز اليوم
الذى تنمو فيه تجاربه ، وينضج وعيه ، فيختار فى توفيق وسداد
ماذا يصنع أحدنا حتى يصبح واعيا رشيدا .. ؟

انه يمر بأدوار الطفولة والمراهقة والشباب متعثرا
بالخطايا والاعطاء - حتى اذا بلغ أشده ، ورشده ، واستوى -
اتخذ من عشرات ماضيه ، وتجارب أمسه درسا هاديا ،
وعصمة واقية ..

فليعلم رجل البوليس - أن الواجب - أسمى من المجاملة ،

وأبقى من المعاملة .. وليتق الله في أمته التى قطعت فى ممارسة
الحياة النيابية سبعة وعشرين عاما ... ثم كأنها تبدأ اليوم ..
بل كأنها لم تبدأ بعد .. !

وليعلم الحاكمون أن الخطأ وسيلة الصواب .. ولا بد أن
نخطئ اليوم ، لنصيب غدا . وأن الحاكم الذى يزيف ارادة
الامة انما يقف نموها ، ويلاشى شخصيتها .

ج - رشو الناخبين ...

وهذه الرشا التى تقدم للناخبين جهارا علنا تضرب حرية
الاقتراع فى الصميم ..

وقد تسأل : اليس الناخب الذى يبيع ثقته بدراهم معدودة
يصنع ذلك مختارا ، ويصوت فى حرية .. ؟

والجواب طبعاً - لا - لان الاكراه ليس فقط للقوة ، بل هو
ايضاً للضرورة ... وهذا الذى استكرهته ضروراته على بيع
صوته - مكره لا مختار ... ففضوا عن عنقه أغلال ضروراته ،
وحاجياته .. والى أن تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فيجب أن تحرم
الرشا فى الانتخابات تحريماً زاجراً ... وتشرع عقوبة مؤدبة
لا للأخذ - بل للمعطي - فالمرشح الذى يثبت عليه أنه رشا
ناخبيه يحرم من حق الترشيح ثلاث دورات متتاليات من تاريخ
الجريمة لعله يتذكر أو يخشى ، فإذا عاد - حرم هذا الحق الى
الابد .

من كان منكم لم ير .. فقد رأى آخرون ، مرشحاً غير
محترم .. كان سيصير نائباً محترماً .. ! يقف أمام لجنة
الاقتراع بأحد أقسام البوليس ، ويشطر الجنيه شطرين ، ثم
يعطى للمقترع نصيبه ، ويرسل معه رسولا ، يتأكد من انتخابه ،
فإذا عاد تسلم نصف الجنيه الثانى ... !

يحدث هذا - علنا ، وأمام قسم البوليس وبعض رجاله ..
ان نصف الجنيه كان فى المعارك الانتخابية الاخيرة ، خطيبها

الساحر ، وفارسها المغوار ، وسيظل كذلك حتى نقضى عليه،
أو يقضى علينا .. !

وبعد ، فان كثيرين يحلو لهم أن يعزو فشلنا القومى الى ضعف
الرقابة البرلمانية على الحكومة .. ولكن أية رقابة هذه التى
نتهمها بالضعف ، اذا كان البرلمان نفسه لم يوجد بعد .. ؟

ان الحياة البرلمانية الحرة الطليقة المنتجة - لا تزال مقترنة
بالسلاسل التى ذكرناها ، والتى نعيدها لك كى لا تنسى ..

١ - القيود البرجوازية ..

ب - نفوذ التفاتيش ، وآلهة الاقطاع ...

ج - اغراء الناخبين بالرشوة

د - الرغبة التامة فى التزييف

هـ - ضعف الايمان بصلاحية الشعب للاختيار

و - الدوائر المغلقة ...

ز - قوائم الترشيح ، وسيطرة العصبيات ..

وحدث نتيجة لهذا ، أن نظام « حكم الاسر » الذى كان قائما
فى العصر البدائى وفى الامبراطورية الرومانية القديمة .. صار هو
الحكم القائم فى مصر .. !

فالذين يسيرون الانتخابات بأموالهم ونفوذهم هم حملة
« السندات » وأبناء الذوات .. والبرلمانات عندنا لاتمثل الشعب
كما تمثّل الاسر الكبيرة ، والبيوتات الشريفة .. واذا كان
البرلمان هو الذى يثمر الحكومة استطعنا أن نعرف نوع الحكومات
التي تتعاقب علينا ..

لقد طال بنا الجدل ، والخلاف حول لون الحكم فى بلادنا .. أهو
دايمقراطى .. ؟ أم هو أتقراطى ؟

ولكن بعد استعراض الوضع النيابى عندنا على هذه الصورة

لا نشك في أنه لا ديمقراطى - ولا أتقراطى ...
 انه شيء آخر استعرناه من القدم - هو بالأتقراطية أشبه -
 واسمه يا أبناء وطنى - حكم الأسر ...

ولقد كان الركود ، والاهمال أثرا محتوما لكل انتخابات تجرى
 على النمط الكريه الذى شاهدناه حيث تثمر ندوات أعيان ..

خطر لى أن أقف على مدى اهتمام الاعضاء بحضور جلسات
 البرلمان .. ومددت يدى نحو المضابط أسألها وأستفتيها ..
 فوجدت حشدا كبيرا من النظائر والاشباه لهذا الاحصاء الذى
 ستقراه الآن .. وأنا أنقله اليك من مجموعة مضابط دور الانعقاد
 العادى الواحد والعشرين فانظر :

رقم الجلسة نسبة الغياب

الرابعة ٥٤ شيخا

الخامسة ٣٠ شيخا

السادسة ٥٠ شيخا

السابعة ٤٠ شيخا

جلسات تعرض فيها سياسة الامة ، ومشروعاتها .. ثم يغيب
 عنها خمسون عضوا - أو أربعون

كيف يحدث هذا ؟ وهل كانت مشاغل حضراتهم على ميعاد
 حتى يتغيبوا جميعا .. ؟

لعل حضرات الاعضاء حريصون على وقتهم ، فهم لا
 يضيعونها في حضور جلسات لا جدوى لها ...

وتعقبت المضابط ، وواصلت البحث خلالها فوجدت أن الجلسات
 التى تنظر فيها المشروعات الجلية الخطيرة المخرجة تظفر
 بنسبة كبرى من الغياب فى أحيين كثيرة .. وهنا يكون
 التغيب طبقا لخطة مرسومة لوقف المشروع وتعويقه حين

يصير العدد غير قانونى . أو فرارا من التورط فى مخالفة الحكومة ومعارضتها .. !

واللجان البرلمانية هناك غليظة الاحساس وبطيئته بحاجة الشعب وآلامه .. ولانكاد نلتمس دليلا لذلك .. حتى نفر من كثرة الأدلة وازدحامها .. وحسبنا مثلا مشروع قانون تقدم به الشيخ المحترم - محمد خطاب بك بشأن استعمار الاراضى المستصلحة ..

ان قصة هذا المشروع . . قصة كثير من المشروعات الصريعة التى اتخذت من سراى البرلمان ضريحا !..

وفى هذه الخطوات تتوى قصته ، وقصتها ...

(١) قدم المشروع فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩٤٥

(٢) عرض على خمس لجان - الاقتراحات، المالية، الشئون، المالية مرة أخرى، العدل رقم ٢

(٣) اختصر من ٤٨ مادة الى عشرين مادة

(٤) لا يزال المشروع تائها حيران ، منذ عام ١٩٤٥ الى عام سنة ١٩٥١ .. ونحن نخط هذه السطور ، وقد حددت له جلسة يقترح عليه فيها من مجلس الشيوخ ولكن احساسنا يرفض التفاؤل .. ونتوقع أن يرتطم المشروع فى صخرة .. أو يسقط فى حفرة .. لماذا ؟

لنفس الاسباب التى جعلته يهمل ، ويدس فى الاضابير كل هذه الاعوام !.

وتتلخص فى أن المشروع شعبى يهدف الى تحريم بيع الاراضى الحكومية التى تستصلح ، للمالكين .. وبيعها فقط بوسائل ممكنة للمعدين الذين لا يملكون شيئا !..

لقد حدث أن كانت الحكومة تستصلح الارض وتعدّها للزراعة - فيقفز بعض الكبراء والباشوات ويشتريها بأبخس الاثمان .. !!

فيصادف مثلا - أن يشتري قارون كبير ضيعة واسعة من هذه الارض بسعر الفدان الواحد عشرة جنيهات ، ليقتليها ، أو لبييعها بعد حين يسير بسعر الفدان الواحد سبعمئة جنيهه ! فلو ان الناخب وجد الفرصة الواعية الحرة التي يختار فيها نائبه ، أو شيخه ، فاختارهم من الذين ينوعون بمثل أعبائه ، وبلوائه .. لما مكث مثل هذا المشروع أكثر من اسبوع .

واذا كنا نبغض الظروف التي تجعل من الناخب مطية تسخر وتذل .. فلا يفوتنا أن نقول للناخب نفسه: انت أيضا مسئول لماذا لا يستعمل المثقفون حقهم فينتخبوا ؟..

ان الاحصاء الرسمي ينبيء بأن الذين ينتخبون من عام ١٩٢٤ - الى اليوم هم الاميون من عمال وفلاحين - واذا ظللنا نحن الذين أخذنا من الثقافة بحظ . متخلين عن التزاماتنا قبل الحياة النيابية ، فهذه أحسن وسيلة ننتحر بها ، وتنتحر بها البلاد

وأخيرا - الحرية .. لا التسامح

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن حريتنا السياسية ، وعن الحريات جميعا .. حرية النقد ، والفكر ، والمعارضة ..

وبقى شيء يجب أن يختم به هذا الفصل ..

لقد لاحظ القارئ اننا لانخص بحديثنا في هذا الكتاب الشعب وحده ، ولا الحكومة وحدها . بل هما معا .. وهذا ثمره اعتقادنا بأنه في الامكان أن يقوم بين الحكومة والشعب تكافل صادق يحقق للجماهير كل أهدافها .. ولكن الحاكمين عندنا هم الذين لا يريدون .. وحين يتفضلون بمنح الشعب شيئا من حريته ، فباسم التسامح والعطف .. لا الواجب والحق .. ونريد الآن تحديد مطلبنا بالحرية ، لا التسامح . فالتسامح شيء يعتمد على الرغبة ، والتفضل .. أما الحرية فحق محتوم ..

والتسامح يثمر هبة يمكن استردادها .

والحرية تثمر حقوقا مكسوبة خالدة ..

والحاكم الذى يمكننى من حق باسم التسامح يستطيع أن
يسلبنى نفس الحق باسم التعصب

ويوضح الفارق بين الحرية والتسامح ، رجلان كافحا من
أجل الحرية كافحا باسلا .. هما توماس بين ، وميرابو ..
يقول « بين » :

« ليس التسامح عكس التعصب ، بل هو تليق له - وكلاهما تحكم
واستبداد ، فالتسامح يزعم لنفسه حق منح الحرية ، والتعصب
يزعم لنفسه حق منع الحرية (١) »

ويقول ميرابو : -

« ان الحرية تبلغ من القداسة حدا تبدو فيه كلمة
التسامح كأنها نوع من الاستبداد لان السلطة التى يترأى لها أن
تسامح ، قد يترأى لها أن تتعصب . »

هذا كلام جليل ، ويجب أن نؤمن أعمق الايمان أننا - نحن
الشعب - لن ننال الحرية ، بل ولن نكون لها أهلا . حتى تكون
الحرية ، لا التسامح - المحور الذى تدور حوله حياتنا ، وتناط
به وجهتنا .

ان الحاكم الذى يتسامح مع أمته متأله دعى .. وهو لا يوجد
الا فى الامم التى تسودها فلسفة البر والاحسان والخيرات ..
هنالك يتكىء على أريكته ، وينفخ أوداجه ، ويعلن أنه يمنح رعاياه
وعبدانه ما يجود به من حرية وحق .. !

أما الحاكم الرشيد ، فانه يجل الحرية عن أن يبذلها كما
تبذل المنح والصدقات .

ان « توماس بين » يصعد بالحرية الى قمة الاجلال حين
يضرب للتسامح هذا المثل ..

« لو أن أحدا قدم الى برلمان اقترحا بمشروع قانون سمح
لله أن يتقبل عبادة اليهود والاثراك أو مشروع قانون يمنع الله من
قبول عبادة اليهود والاثراك لكان ذلك تجديفا في حق الله
وكفرا به .. »

فهؤلاء الذين اتخذوا الحرية لهوا ولعبا - والنن يتجشأون
كل يوم قانونا يسمح للشعب بنصيب ضئيل من حريته
وقانون يحرم عليه منها كثيرا لا يقدرون الحرية قدرها ، وهم
يجدوفن في حقها ، وفي حق الشعب تجديفا وقحا عنيفا . .

ومن أسف أن الشعب هو الذي يحرضهم على ذلك !..
فأفراده في تعاملهم المادى والادبى يقيمون هذا التعامل على
أساس من التسامح لا الواجب ويبدو ذلك واضحا في مسائل
العقائد والتقاليد والفكر .. فأقصى ما نسمح به لانفسنا فيما
يمس هذه - هو التسامح ، والتسامح كثير !..

ومنشأ هذا التزمت أننا ضعفاء ، فاقدو الثقة بانفسنا ،
واذا كان فاقد الشيء لا يعطيه فقد عجزنا عن الثقة بما في الحقائق
من قوة ذاتية تكفل لها الغلبة والبقاء . ومن ثم جعلنا وسيلة
حمايتها الاملاء ، لا الاقناع .. والتسليم لا الاقتناع .. وحرمنا
الفكر حقه في الحرية ، ومنحناه قليلا من التسامح . وبسبب
هذا الغباء نضبت الحياة من تقاليدنا وأفكارنا .

يا ليتنا نصفى لهذا النبأ ونعيه ...

فقد ذهب الى الرسول عليه السلام نفر من أصحابه ، وقد
استطيرت ألبابهم روعا ومخافة وقالوا له :

- يا رسول الله . أن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى
يصير حممة ، أسر عليه من أن يتلفظ به .. مشيرين بهذا

الى ما كانوا يجدونه فى أنفسهم من شك عاصف فى الله ، كما وضحت ذلك رواية أخرى للحديث .

فأجابهم الرسول :

— الحمد لله ..! هل وجدتموه؟

هذا صريح الايمان ..!

هنا رسول كريم يدرب الناس على الحرية ، لا التسامح
لقد كان قادرا على أن يقول لهم : لا بأس ، عفا الله عنكم ..
أو سيغفر الله لكم . وهذا هو التسامح ..

ولكنه كان أكثر اجلالا للحرية — حتى حرية الشك ، والاسترابة
فاعترف بها ، وجعلها محض المعرفة ، وصريح الايمان — وكان
بها حفيا ..!

ذلك أنه يعلم أن الحرية حق للناس ، وأن تمتعهم بهذا الحق
كاملا غير منقوص ، هو أفضل الوسائل لترقية انسانيتهم ،
وتعلية نزعاتهم ، وهدايتهم الى الحق ، وتثبيتهم على الهدى —
ويعلم ان احترام حرية البشريences فيهم كل قوى الفضيلة
والخير والجمال ، فلم يتسامح معها — بل سلم بها ، وزكاها .

ان اليوم الذى يرفض فيه الشعب أن يساوم على حريته
أو يتناولها من أكف التسامح ، والاحسان — لهو اليوم الذى يبلغ
فيه رشده ويقف على قدم السوائية الفاضلة مع الشعوب
الحرّة ، والعالم المتحضر الكريم

وقبل أن نهى هذا الدفاع عن الحرية نقول : انه اذا كان فى
تصويرنا للكبت الذى نعانيه مبالغة — ، فهى مبالغة طفيفة .
واذا كان فيه قصور ، فهو قصور كبير ..!

ونحن على الحالين لانسى ابداتلك الجهود النبيلة التى بذلت منذ ثورة «١٩١٩» فى سبيل الحرية ، واذا كان الاستعمار الرجيم قد ثبط عزم هذه الجهود وضللها ، فلا بأس ، ولنبدأ من جديد .

ولقد تركنا الحديث عن نوع الحرية المرتبطة بغريزة الاقتناء الى الفصل الثانى من كتابنا - من هنا نبدأ - فهناك يستبين لنا اثمارها وارتباطها الوثيق بحرية العمل وحرية الضمير . . ان غريزة الاقتناء يناط بهاتحرير البشر من اغلال الضرورات وليس نشاطها كما ذكرنا فى حديث الفصل الاول خاصا بطبقة من الناس دون الآخرين . كما أنه لا يتحتم احتواش التفاتيش والضياع . .

ان اقتناء وسائل الحياة الكريمة هو الضرورة الكبرى التى تهتف بها اليوم حضارة الانسان

وبعد ، هل نحن جادون فى نشدان الحرية ؟
اذن ، فلنوجد الشعب الذى يستطيع أن يتقبل امانتها . .
الشعب الذى تثق به الحرية . . ويثق بها .

الخصیۃ کی عمل

» ان کل شیء معہ ..
» اذا كانت شخصیتنا كذلك «
شکسپر

هل ذهبت يوما لعيادة صديقك في مصحة الامراض العقلية ؟

أم ان اصدقاءك جميعهم من العقلاء .. ؟

لقد زرتها يوما لزيارة صديق .. واذ كنت سائرا في وصيد
المستشفى ، سمعت صيحة صاحبة تتعقبني من وراء قائلة :

- هو .. خلفا دور .. !

فلما التفت وجدت عملاقا ضخما طوله شهر .. وعرضه
عشر .. فسألني :

- هل تعرفني ؟

فأجبت : معذرة ، فاني لم أشرف بمعرفتك من قبل

قال : أنا القيصر الاخشيدي !

- مرحبا . سيدي القيصر .

ثم سألني : هل تحب أن أوليك امارة ؟

قلت : هذا شرف عظيم ياسيدي القيصر .

فضحك .. وقال : (خلاص) سأعزل أحد ولايتي ، وأضعك
مكانه - ثم مد الى ذراعين مجدولتين ..

وقال : تعال - تقدم .. !

قلت : الى اين ؟

قال : الى هناك - الى الولاية انها في المريح وسأحملك بين يدي
وتغمض عينيـك ، وأقذفك في الهواء ، فيحملك اليها . !

قلت له : اذن ، فأعطني فرصة للتفكير .. !

وطفق يحرك سبابته في الفراغ - كأنه يدير قرص
« تليفون » - ثم وضع قبضته على أذنه ، وفمه .. وشرع

يهمهم ، ويصدر تعليماته « باللاسلكى » الى المريخ ..
تاليا مرسوم العزل ، ومرسوم التعيين !..

ما أسعد هذا القيصر الذى استراح مما يتعب العقلاء !..
وما أشبه الجماهير به حين تركب ثبج الففلة والغرور
والانخداع ، فتخال نفسها كهذا القيصر الاخشيدي . تولى
وتعزل ، وتضع وترفع ، وتعزمن تشاء وتذل من تشاء !..
وما أظن المستعمرين ، والمستبدين يفرحون بشيء
فرحهم للشعوب حين تصاب بهذه الآفة المسكنة ، والاخشيدية
الواهمة ..

وهم حين يحسون بواكيرها فى شعب - يعملون دائبين على
شيوعها وانمائها - لأنها تشفى قلوب الجماهير مما تجد ...
وتسرب غيظها فى مسارب الاحلام .. وتحول طاقتها الهادفة الى
ضجة فارغة . وتحبس طموحها المتسلق الوثاب فى قمقم هذه
الاخشيدية السعيدة بجنونها ، وغرورها ..

الا أن شعبنا الضريع يعيش فى الوهم .. وقيم داخل اهابه
- قيصر اخشيدي - من طراز قيصر المستشفى ..

ذلك الذى لم يعلم انه قيصر زائف حتى أشرت الى السلاسل
التي يجررها فى قدميه ، والتي صفدوه بها لتثبطه عن الهرب ،
وتصدّه عن الافتراس .. وقلت له : - لو كنت قيصرًا حقًا ،
ما سلوكك فى هذه الاصفاذ !.. والقى على اصفاذه نظرة واجمة
عميقة . ثم ضرب صدره بيده وقال : -

- آه .. لابد أنهم عزلونى .. أنا اذن قيصر مخلوع !..

قلت له ، وأنا أودعه : - نعم .. أنت قيصر مخلوع .

هنا مشابه كثيرة بين قيصرنا هذا ، وبين الجماهير .. ولكن الشبه الوحيد الذى يهمننا وجوده - هو ذلك الوعى الذى يرفع عن ابصارنا الفشاوة ، لنعلم أننا شعب مخلوع ومعزول -

والآن .. فلنحرك أقدامنا ، فان أحسسنا بها ثقلا ، وسمعنا قعقة الحديد .. وقهقهة القيود .. فلنعلم انها الاغلال .

ان بداية البدايات فى نهضة الامة أن تعرف نفسها ، وتبين فى دقة وضعها ومكانها .. ولن تستطيع حتى تتخلى عن أوهامها وتواجه حقيقتها فى مرآة مجلوة لا تخفى من ملامحها شيئا ..

ثم تبدأ من جديد فى تكوين شخصية لها ، عاقلة ، عاملة نامية . وتبعة ذلك كله علينا وحدثنا .. لن يصنعنا أحد سوانا ، فلنصنع لأنفسنا - نحن الشعب - شخصية قوامها القوى الاجتماعية بعد تصحيحها وتنقيتها .

هذا هو الطريق .

وهناك حقيقة جديرة بالتذكروهى أن الطريق الوحيد لأن نهض .. هو أن نوجد ..

وجود الشعب - معناه وجود قواه ، أو بتعبير آخر - وجود قواته الاجتماعية على حال تمكنها من إمداده بالطاقة والحياة لقد تحدثنا عن الحرية . ولما كانت الحرية تضمن بنفسها على الذين لا يستحقونها ، فقد صار لزاما علينا أن نبحث عن المقومات التى تجعلنا لها أهلا .. والتى تجعل لنا قبل ذلك شخصية سوية ناضجة تقاوم المطامع ، وتملأ فراغها فى الحياة - وهذه المقومات والعناصرهى - القوى الاجتماعية التى لها من الحتمية والفائدة ما يجعلها جديرة بالعناية والعمل من أجل حيازتها .

ينقل الاستاذ العقاد فى كتابه « فلاسفة الحكم » عن الفيلسوف

« جايتا تومسكا » هذه العبارة الجليلة ..

« ان الخير لا يتحقق في الطبقة الحاكمة الا بفضل القوى الاجتماعية ، والحصانة الشرعية

» والحصانة الشرعية هي الوازع المستمد من قدرة القوى الاجتماعية على مقاومة مطامع الحاكم الشخصية .. »

اذن فالقوات الاجتماعية هي السيف المعنوى الذى يلاقى الفساد ويتحداه ..

واذا كانت قوانا هذه التى سنتحدث عنها - تبدو اليوم سيفاً متقاصراً ، فلنعمل بوصية الاسبرطى الذى قلد ابنه سيفاً، فهزه الغلام فى قبضته ، وقال :

- يا أبت . هذا السيف قصير

فأجابه أبوه : تقدم به خطوة واحدة فسيصير طويلاً ..! فلنتقدم بقوانا خطوة ، مؤمنين بأن الظروف كائنة ما كانت لا تستطيع أن تعمل ضدنا على صورة شاملة ، ودائمة - الا اذا أردنا نحن ذلك .. وأن ما بنا من ضعف ليس علاجه مضاعفة أسبابه ، وارباء مقوماته .. والضمور المائل فى قواتنا الاجتماعية يتطلب منا أن ننقل إليها من دمائنا لتنتعش .. لان نمتص ما بقى فيها من دماء .

لقد سئل رسام شهير : كيف تخرج ألوان لوحاتك زاهية الى هذا الحد ..؟

فأجاب : انى أخلطها بدمى..!

فلنخلط قوانا بدمائنا - أى لنؤازرها بكل ما نستطيعه من اخلاص وانصاف وانماء . ولنذكر مرة أخرى - أن حقوقنا كشعب - وأن الامم فى نضالها الموصول، ومسراها الكادح نحو الحرية تكتسب بالخبرة والتجربة مزية الاقتناع بنفسها ، واحترام

العناصر المكونة لشخصيتها .. فاذا فقدنا هذه المزية اليوم ،
وسخرنا قوانا الاجتماعية لغير صالحنا ، فقد تودع منا ..
وليرحمنا الله !..

والقوى الاجتماعية كثيرة - ولكننا نركز الحديث عن أهمها ،
وأكثرها اتصالا بقضيتنا ، وفاعلية في حاضرتنا ومستقبلنا -
وهي :

١ - القانون ..

ب - الصحافة ..

ج - الاحزاب ..

د - القيم والمعايير

ولنتحدث عنها واحدة واحدة

١ - القانون ..

القصـد .. والشمول

اول القوى الاجتماعية التى تتكون منها شخصية الشعب
قانونه .

والقانون حين تكون النزاهة والقصـد لـحمته وسـداه - فانه
يصير مثابة الامة وأمنها ، وعامل رقى وتقدم فيها . اما اذا تجانف
لهوى وعدوان ، فانه يكون آفة الامة وكارثتها الماحقة ، ويحق
عليه ذلك المثل الاسباني الطريف

- اذهب أنت الى القانون لتشكو اليه سرقة شاتك ؟..

- حسن .. ستعود ، وقد سرقت بقرتك ايضا !..

والقانون لكى تتم نعمته على الناس يجب - فى نظرنا - أن
يلتزم أمرين - القصـد ، والشمول

أما القصـد - فيقتضينا الانسرف فى وضع القوانين ، لأنها

غالباً ما تكون على حساب الحرية بل وعلى حساب النظام الذى
توضع لحمايته .

وانا لنرجو ان يجد حكامنا جميعاً - الشجاعة التى تحفزهم
الى الاعتراف بانهم أسرفوا على أنفسهم ، وعلينا فى اصدار
القوانين ، ولعلهم قد فاتهم أن قليلاً من القوانين نطقه - خير
من كثير نتبرم به ، ونحقد عليه .. وفاتهم أيضاً أن القانون
ليس الوسيلة الوحيدة لتربية الشعوب - بل لعله آخر الوسائل
جميعاً .

ولنضرب لذلك مثلاً :

منذ شهرين تقريباً قامت بمصر حركة اضرابات واسعة .
حتى لقد أضرب الازهر اضراباً جماعياً اشترك فيه شيخ الازهر
وجماعة كبار العلماء .. فرأت الحكومة أن تعالج هذه الحركات
بقانون يزجرها ، ويفتح ابواب السجون للمضربين ، والمحرضين
وفى فبراير الماضى سنة ١٩٥١ - أضرب سبعون ألف
عامل فى جنوب بلجيكا - كما نشرت الاهرام فى عددها الصادر
بتاريخ ١٥ - ٢ - وطالبوا برفع اجورهم ٥ ٪ ، فلم
تستصدر الحكومة قانوناً مماثلاً للقانون الذى أصدرناه - بل
اجابت مطالب العمال .. !

وفى نفس ذلك الحين ، أوقبله بقليل . أضرب عمال
السكك الحديدية بأمريكا ... أضربوا وجيشهم المحارب فى
كوريا يتدحرج فى مجاهلها ، ويقاتل ، ويتلقى الضربات الشداد
مما يجعل الاضراب حائز جريمة وخيانة - فماذا فعل ترومان ؟

تجيبنا جريدتا الاهرام والمصرى بتاريخ ١٩٥١/٢/٩
« ان المضربين حثوا فى كلمتهم مع الحكومة ، ونقضوا اتفاقية
عدم الاضراب . كما لو كانوا حفنة من الروس » .. !

هذه هى النكتة المرححة التى استقبل بها « ترومان » الاضراب
والمضربين ، ونقلتها عنه صحافتنا

وماذا فعل أيضا .. ؟

عندما ازداد الاضراب اتساعا وخطرا ، أمر بفصل الذين لا يعودون الى أعمالهم - ولكنه قبل ذلك أمر برفع أجورهم فوراً .. بل وجعل الزيادة الجديدة رجعية من عام ١٩٤٨ !

أفلم يكن « ترومان » قادرا على تحريم الاضراب بقانون ؟
نعم - وكذلك كانت بلجيكا قادرة .. ولكن مثل هذا القانون يعتبر تحديا لكرامة الشعب ، واهدارا لحريته ، وهو أمر لا يقدر عليه « ترومان » ولو أوتى بسطة في الحكم .. وبسطة في النفوذ .. !

نحن لا نشجع الاضرابات .. وليس هناك في عالم العقلاء من يشجعها - فهي تشل حركة الامة ، وتهدر من عمرها وقتا نفيسا بلا انتاج ولا عمل ..

ولكننا نرفض أيضا ، أن نعامل معاملة العبيد الذين تشهر دائما في وجوههم السياط .. !

وثقوا أن هذا السرف في التقنين يفقد القوانين قيمتها ووقارها ، ويؤلب عليها الناس الذين ينظرون اليها آنئذ نظرة فيها مقت وعداوة

ونحن حريصون على كرامة القانون وسيادته حين ندعو الى القصد والاعتدال فيه حتى نتيح للمجتمع فرصة جبه واحترامه - فالاسراف فيها فوق انه يصورنا أمام العالم أمة تعيث فيها الفوضى والهمجية ، يئذ في النفوس بغض القوانين برمتها ، ويحفز المجتمع الى التحايل عليها - واذا تكونت فينا عادة التحايل ، فقد فقدنا كل أمل في امتثال القانون ولو كان عادلا وفاضلا ..

أو يظن الحاكمون أن القوانين على كل شيء قادرة .. ؟

فلنأخذ العبرة من قانون الاضراب الاخير .. لقد توعد بالعقوبة المحرضين فهل اختفى التحريض .. ؟

كلا - فقد نشرت جريدة الاهرام بعد صدوره بيومين او ثلاثة، وبخط بارز مثير «سبعون ألف عامل يضربون» وسأقت أخبار الاضراب البلجيكي بأسلوب فيه اغراء كثير ..

وكتبت كذلك « أخبار اليوم» على اثر صدور القانون بعنوان « الازهر يواجه مشكلة جديدة»!

وصاغت الخبر صياغة محرصة مشعلة دون أن يستطيع القانون معها حسابا - فقالت :

« .. وسيترتب على ذلك حرمان ١٢٠٠ متخصص من الامل فى الترقى الى الكليات .. وقد علمنا أن هذا الموضوع سيثير أزمة جديدة فى الازهر»!!

ان هذه الكلمات مثيرة للازهريين لاشك ومع هذا فقد قيلت على سماع القانون وبصره ثم لم يملك ازاءها شيئا .

ولقد كانت صحافة الوفد تلعب نفس اللعبة وهو فى المعارضة . فعندما وقف صدقى باشا بمجلس الشيوخ فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ يدافع عن تصرفه فى الغاء جريدة « الوفد المصرى» قال : انها تدعو الى الثورة بطرق ملتوية وتلامنها هذه الفقرة : «ان البلاد فى ثورة ، والثورة لن تخمد مادام فى الشعب المصرى دم يجرى ، او عرق ينبض .. - تنتهى اليوم المهلة التى طلبها صدقى باشا من وفد الطلبة حين قابله وطلبوا منه مطالبهم القومية .. ترى ما الذى أعده صدقى باشا وقد أجابه الطلبة الى رغبته .. لقد انتهت المدة .. فماذا فعل .. ؟ !»

ان القانون فى بلاد الاحرار خادم عاقل .. وفى بلاد العبيد سيد مستبد .. وليس يكفى ان نزعم اننا احرار ، فللحرية سماتها ، وعلاماتها ..

ولقد قال حكيم : « أرونى قوانين أمة من الامم، وأنا أدلكم

على نصيبها من العظمة ، او الانحطاط ..
وهذا حق .. حق جدا .. لان الدولة التى تصاب بأسهال
تشريعى تكون دولة غير طبيعية ، ودولة عاجزة .. وهى لاتلبث
حتى تستمرىء هذه العادة الرديئة ، فتصنع كما صنع
الحاكم بأمر الله .. حين وضع القانون فى خدمة « الملوخية »
يبيحها أول النهار ، ويحرمها آخره ..!

وكثيرا ما تجيء هذه القوانين مخالفة للدستور ، فى نصه
وروحه .. وكثيرا ما تكون مينة لا ترد يد لامس .. فتفسرها
السلطة التنفيذية تفسيرات مردية ..

قال مثل هذا القول نواب محترمون فى جلسة ١٩٤٨/٤/٢١
- وكانت الحكومة تعرض مشروعا جديدا تعدل به نصوص القانون
رقم ١١٧ لسنة ١٩٤٦ ، الخاصة بمعاينة من يجبذ أو يروج
المذاهب التى ترمى الى تفسير مبادئ الدستور الاساسية ،
او النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية بالعنف ، او الارهاب
او بآلية وسيلة أخرى غير مشروعة - وأرادت الحكومة يومئذ ان
تفسح دائرة هذه المادة باضافة المواد - ١٩٨ ، ب ، ج ، د ،
هـ ، التى أضيفت فعلا ..

فوقف بعض النواب صارخين .. محذرين من عواقب هذا الافراط
- ولا من يسمع أو يعتبر ..! ومع هذه الاضافات الزاجرة
وجدنا النشاط الذى وضعت تلك المواد لمطارده ينمو وينتشر
.. فماذا صنع القانون المسرف على نفسه وعلى الناس ؟

والآن لنستمع الى كلمات هؤلاء النواب المحترمين (١)

حضرة النائب المحترم الاستاذ حنفى الشريف ، قال :
« انه يعارض مبدأ هذا التشريع لانه لو كان فى مصر حزب شيوعى

يعمل علنا ، لكان في وسع الحكومة أن تحكم الرقابة على
أعضائه ، وأعماله ، وصحفه .. ثم قال :

« ان قيام هذه القوانين قدادى الى قيام الخلايا السرية
التي تعمل الحكومة جاهدة للقضاء عليها - وقال :

«انه يطالب الحكومة بان تدع حزبا شيوعيا ينشأ في مصر ،
فان ذلك أبيع في انجلترا وفرنسا وإيطاليا .. وان هذه المذاهب
تدرس في الجامعة ، ويمتحن فيها الطلبة ، وقد يكون من
بينهم من اقتنع بها واعتنقها ، وان محاربة هذه المذاهب تجعل
الجمهور يظن انها صالحة .. لكن الحرية لو تركت .. تنظم
نفسها .. »

وقال النائب المحترم على بك راتب :

« انه يوافق الحكومة كل الموافقة في ان تفرض ما تشاء
من عقوبات على من يحاولون بالقوة أو الارهاب تغيير اصول
الحكم .. لكنه لا يوافقها مطلقا على الحد من حرية الذى يفكر ،
أو يكتب .. »

وقال النائب المحترم فكرى بك أباطه «باشا» :

«ان التشريع المعروض يخالف الدستور ، والمواثيق الدولية
التي ارتبطت مصر بها - وانه يتعارض مع احكام المواد السابعة ،
والرابعة عشرة ، والعشرين ، والسادسة والخمسين بعد المائة
من الدستور .. »

ومضى يتساءل : ماذا يعنى المشروع المعروض بمحاولة سيطرة
طبقة على أخرى .. وما هذه الطبقة ..

أهى الأرستقراطية .. أم الوسطى ، أم الشعبية ؟! ..

ولكى أدلل على مرونة القانون وتميعه - وهى مرونة ضد
المتهم غالبا ، خاصة فيما يتعلق بالحرية، اذكر تجربة شخصية لى
فقد اتهمت فى كتاب سابق بتهم عدة ...

وكان منها الدعوة للانتقاض على الدستور ، وتغيير المبادئ
الاساسية للهيئة الاجتماعية

وكان تكييف الاتهام فى التحقيق على هذا النحو ..

انى ، وان لم اكن قد دعوت الى استعمال القوة .. الا اننى
روجت لمذهب ، قام فى بلاد اخرى بالقوة .. !
ياسبحان الله .. !

اذن ، فالترويج للاسلام جريمة لانه قام فى بلاد كثيرة بالقوة ..
والترويج للاستقلال جريمة - لانه لا ينال الا بالقوة ..
والترويج للحرية جريمة - لانها انتصرت فى بلاد اخرى
بالقوة .. !

وهكذا تطلق الحكومات ، القوانين فى اعقاب المواطنين لتنال
منهم شر منال .

وكل جائع يقول اليوم : يا كبدى . ! شيوخى

وكل كاتب مخلص .. شيوخى

وكل ذى شكاية ، ومظلوم .. شيوخى

وحكام اليوم ، كانوا شيوعيين فى نظر حكام الامس ..

وحكام الامس ، شيوعيون فى نظر حكام اليوم . .

وكلا الفريقين ، شيوخى فى نظر حكام الغد ..

والجانب المضحك فى هذه المأساة يجعلنا اقرب الناس شيها
بجحا .. لقد اراد ان يتخلص من مضايقة بعض الفلمان له ، فدلهم
على عرس موهوم . . ثم عاد المسكين ، فصدق نفسه ، وانطلق

يعدو وراء الغلطة نحو اكدوبته التي صدقها .. !

اننا ايضا ، نضع القوانين احيانا لنلتمس بها للابرياء التهم والعيوب .. ثم نعود ، فنصدق انهم حقا متهمون .. ؟ !

والجانب المزعج فيها .. ان كل حكومة تلى الحكم تشرع القوانين التي تحميها ، وتبقيها .. كأنها من الخالدين .. ! وتتعمد ان تجعل لكل قانون بابا كبيرا يتسع لمدخل كل من تستضيفه .. حيث يفضى الى دهاليز من ورائها السجون والظلمات .. !

ومثل ذلك ، وما اكثر الامثال - مانجده في مؤخره المادة ١٩٨ ، ب ، ج ، د ، ه - وهو :

« .. متى كان استعمال القوة او الارهاب او اية وسيلة اخرى غير مشروعة ملحوظا في ذلك .. »

اما القوة والارهاب ، فحسن هذا .. ولكن ما مدلول عبارة « او اية وسيلة اخرى غير مشروعة » .. ؟

ان كل وسيلة مشروعة تستطيع الحكومة ، والبوليس معها ان يلبساها لباس اللا مشروعية والجريمة . ثم يقدمها للقضاء بهذا الوصف الزنيم ..

وكيما تزداد المسألة وضوحا نستشهد ايضا بالمادة (١٧٦) عقوبات ..

وهي « يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنة ، وبغرامة لا تقل عن عشرين جنيها ، ولا تزيد عن مائة جنية - او باحدى هاتين العقوبتين . كل من حرض على بغض طائفة او طوائف من الناس ، او على الازدراء بها .. الخ »

ان الغموض الشائع في عبارة « بغض طائفة ، او طوائف من الناس .. » غموض مقصود .. وهذه العبارة على ضالتها بشر لا قاع له يستطيع ان يبتلع في لا نهائيته الشعب كله ثم ينادى في سعار وجشع : هل من مزيد ؟

ويا أيها الذين تحتمون به عندما تتلملل الشعوب الخاضعة
ويا أيها الذين تتظاهرون بالخوف عليه من أولى الناس به .
هذا - هو الاسلام .

وهذا هو احترام رجاله للقانون
ولقد استمعنا من قبل الى الملك وهو يلقي على وزيره خطابه
التقليدى . أيام المصريين القدماء فيقول له :

« اذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص
على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء .. واعلم ان المحابة
بغیضة الى الاله .. وانظر الى المقربين للملك ، نظرتك الى
البعیدین عن بيته .. »

ان سيادة القانون ضرورة لسيادة الامة - والويل لمجتمع
ينكمش قانونه امام عليته وكباره عندئذ تشيع فى شخصيته
الفوضى والاضمحلال والاستهتار

وانا لنمر فيما نقرأ عن الدول الاخرى بمشاهد تبهر الابصار .
حدث يوما - وهذه قصة ترويه اخبار اليوم بتاريخ ٧/٥
سنة ١٩٤٧ - أن تزوجت بنت ستالين، ورجت أباه أن يهيئ
لها سكنا تستأجره ، فرفض حتى يحين دورها - كبرت أى
كناس يكنس الشارع ويحمل القمام .. !

وعلم بعض الوزراء ، فجمعوا المجلس سرا ، وقرروا تسليم
بنت المارشال ستالين شقة ذات غرف ثلاث .. !

وحدث أيضا - أن عاد ابنه الاصغر من ميدان القتال مزهوا
بالنصر ، فانطلق بين حانات موسكو ومراقصها مفتونا
بشبابه وحسبه .. فأصدر « برياً » مدير البوليس أمره
باقصائه فوراً الى قرية نائية لمدة عام كامل ..

وسمع « بريا » أن الفتى ساخط على هذا القرار ، فاستدعاه وقال له : - لقد أصدرت أمرى هذا رحمة بك قبل أن يتدخل أبوك فى أمرك .. وأنت تعلم جيدا انى لوأحلت الامر الى أبيك ماكان جزاؤك أقل من النفى خمس سنوات كاملة .. !

* *

ويوم أحب ملك الانجليز .. « مسز سمبسون » .

أى ذنب جناه حين احب . !

لكن لبلاده تقاليد أقدر فى قلوبهم من القانون ..

ألم يكن الملك بقادر على أن يحطمها .. ؟

لا - انه لا يستطيع .. لانه يحترمها .. ولقد انحنى لها .. وترك عرشا يطل من فوقه على دنيا سعيدة مديدة .. وحمل عصاه على عاتقه ، ومضى يثخن فى أرض مجهولة ، رضى النفس مقتنع الضمير ..

لقد احترم فى اللحظة المغربية الحازمة أتمته واحترم تبعات الملك وشعائر البلاد .

وماذا أقول .. ؟

ان التاريخ مفعم بالامثال يضربها للناس .

ولكن أكثرهم لا يعقلون ..

* *

دعوا القانون يسد ويسيطر

فاذا سرق الفقير رغيفا وادخل السجن ..

وسرق الكبير دولة .. فليدخل السجن أيضا ..

اما ان ننحنى أمام اثمه وسرقاته ثم ننشد :

ملك الملوك اذا وهب	لاتسألن عن السبب
الله يعطى من يشاء	فقف على حد الادب
فهذا هو - سوء الادب . !	

لقد علم عمر بن الخطاب ان عمرو بن العاص داهية العرب
ومن وجهاء قريش وكبرائها - قد فشنت له فاشية من الابل
والمال .. فأرسل وراءه من يحاسبه الحساب العسير
ويقاسمه جميع ثروته - حتى اذا انتهى منها جميعا قال :

- أين نعلك يا عمرو .. ؟

فأجاب عمرو مبهورا - لم ؟ فقال محمد بن مسلمة رسول
عمر :

- لنا واحدة ، ولك واحدة !

لم يقف جاه عمرو ، ولادهاؤه ولا قوته دون القانون وهو في
طريقه اليه - بل بلغ منه المبلغ الذي يريد

ان من الخير أن نعترف في شجاعة بمحنة القانون في بلادنا
ولكن الحق ان الحكومات ليست وحدها سبب هذه المحنة - بل
نحن معها .. ونحن قبلها ..

ففي سلم السلطة التنفيذية من أدنى - يوجد كثيرون من
الموظفين الذين لا يحترمون أقل احترام - التزاماتهم ازاء الدولة
والقانون والشعب وهم يعرفون أنفسهم كما يعرفون خطاياهم .
وأولئك الذين يعطلون تنفيذ الاحكام من أجل رشوة حرام ..
وأولئك الذين يضللون القانون عن جناية وجانيها من أجل دراهم
معدودات ..

وأولئك الذين يحرفون القانون عن مواضعه تحقيقا
لغرض .. أو استجابة لشهوة !

فلنؤد واجباتنا نحو القانون في ذمة وشرف وليبذل الحاكمون
من ذوات أنفسهم مزيد احترام للقوانين ، فيعمموا تطبيقها ،
ويعلموا سيادتها .. ومزيدا من الفهم لحكمة مشروعيتها ، فلا
يسرفوا فيها .

وليكنوها من سكان القصور ، وأبناء الاكرمين .

» ... وعندما أغلقت بابي وراء رئيس الوزراء ، دق جرس اللورد « بيفر بروك » صاحب جريدة الديلي اكسبريس ، وقبل أن أروى له مادار بيني وبين المستر بلدوين قال لي :

- لقد ضاع الامل الاخير في المحافظة على هدوء صحف لندن
لقد قرر رؤساء تحرير الصحف أن ينشروا تفصيلات الازمة التي
بينك وبين الحكومة . .

» ووضعت السماعة . . . وشعرت بأن الدنيا قد بدأت
تظلم في وجهي . . ولما نظرت الى ناحية مطابع « فليت ستريت »
شعرت كأن سحبا سودا تخرج من هذه المطابع ، وتوجه الى
قصرى . .

» لقد كان يوما سيئا . . !

» وقد كنت أتوقع ان تتحدث الصحف عن الازمة في صراحة
مؤلمة . ولكني لما قرأتها في صباح اليوم التالي شعرت بذهول
ثم باشمئزاز . آ

» هل يمكن أن يكون هذا الذي يتحدثون عنه هو الملك
أو انه « هلفوت » عادى . . ؟

» حقا ان الصحافة تستطيع أن تخلق ، وتستطيع أن
تهدم . . . !

ليس هناك أروع من هذه الكلمات لنبدأ بها حديثنا عن
الصحافة - والصحافة هي أعصاب الوعي في أمتها . . .
وهي من أهم ان لم تكن أهم عناصر الشخصية الشعبية . .
وان لها حقوقا ، وعليها واجبات .

فأول حقوقها - الحرية الكاملة

١ - حرية الانباء . وتشمل حرية التلقى ، وحرية الاداء .

ج - حرية الرأي والنقد والمعارضة . .

ومن سوء حظ مصر ان صحافتها لا تتمتع بما يجب من حرية . . وحكوماتنا في مباراة هائلة نحو مضايقتها وتكميمها . .

وحين نفاضل بين عهد وعهد نجد أقومها طريقة هو الذي يهبط فيه منسوب الاضطهاد

وليس الذي يبرأ برءا كاملا من هذه الآفة الخبيثة .

في يوم ١٧/٩/١٩٥٠ نشرت جريدة المصرى حديثا لمعالى فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية وازن فيه بين ماذا . . ؟

بين عدد مرات المصادرة في عهده ، وعددها في غير عهده من العهد - فقال :

« بلغ عدد القضايا الصحفية في سنة ١٩٤٦ - ٢١٣ - قضية »

وبلغت عدد الكفالات المدفوعة من الصحفيين المتهمين - ٢٧٦٥ -

جنيتها . .

« وحدث ان جريدة واحدة هي البلاغ ، تعرضت خلال أربعة اشهر لاربعة عشر تحقيقا ، وحبس عشرة من الصحفيين دفعة واحدة فيما نشره المصرى بشأن الاقتراح الكولمبى . . »

« وفي عام ١٩٤٥ ، ابان الاحكام العرفية - بلغ عدد القضايا

الصحفية في ثلاثة اشهر فقط هي - اكتوبر ، ونوفمبر - ،

وديسمبر - ٣٧ - قضية صحفية وجملة الكفالات - ٤٠٠ - جنيتها ،

على الرغم من وجود الرقباء الذين كانوا يحذفون كثيرا كما

يشاءون . . »

ثم ذكر معاليه - عدد القضايا الصحفية في سبعة اشهر من

عهده وهي المدة الواقعة بين اول يناير سنة ١٩٥٠ ، وآخر يوليو

سنة ١٩٥٠ وكانت (٣٢) قضية . . !

لا جرم ان الارقام التى ساقها معاليه خاصة بالسنوات الماضية
أرقام بشعة مزللة . .

ولكن ما دلالة هذه الموازنة فى معناها العميق . . ؟

دلالتها ان مضايقة الصحافة ، وإسالتها ، ومصادرة حريتها
قائمة فى هذا العهد وفى غيره من عهود .

وان الفارق بين عهد وآخر - مائل فقط فى الكم والعدد . .

ونحن نعلم ان العدد فى هذا الامر ، مسألة زمن . .

فاذا كان محصول الحكومة القائمة فى سبعة اشهر (٣٢)
قضية - فكم يكون المحصول فى خمسة اعوام . ؟

لقد ذكر معاليه ان مجموع الكفالات التى دفعتها الصحف
المضطهدة عام ١٩٤٧ هو (٢٢٠٠) جنيها .

فما قوله ، دام فضله - فى ان دارا واحدة من دور الصحف هى
« دار أخبار اليوم » قد بلغت دفعته وحدها من كفالات
- ١٢٥٠ - جنيها فى أسابيع معدودة . . ؟ !

انا بهذا النقاش لا نهدف الى احراج وزير ، او التشهير بحكومة
معينة . . فنحن من بداءة رحلتنا فى هذا الكتاب نلقى اللوم دائما
على روح الحكم وسلأته وطرائقه . . اما الاشخاص فلا
. . لانهم زائلون

أين تقدير حكوماتنا للصحافة . . من تقدير ذلك الملك العظيم
السابق الذى شمر كأن سحبا سوداء تخرج من مطابع الصحافة
وتتجه نحو قصره . . ؟

ثم أين احترام صحافتنا الواجبها ، ولقارئها . . ؟

ان للصحافة فى توجيه الراى العام أثرها البالغ ، فهى قادرة
على هدايته وعلى اضلاله . . وبقدر ما تقدم له من عون ،
تقدم لنفسها ايضا - فكلاهما للآخر قوة ومساك . .

ولعل صحافتنا الموقرة تجرد من الشجاعة ما تصفى به لهذه الحقيقة ..

وهى - ان الاخلاق التجارية تسيطر عليها اكثر مما يسيطر الواجب الادبى .. !

وقد يكون عذرها حاجتها المطردة الى الربح والمال . .

بيد ان ذلك مستطاع ميسور مع الاحتفاظ بالمعنويات الفاضلة التى تجعل منها فى بلادها نبوة هادية ..

ان الروح التجارى هو الذى يدفع الصحافة احيانا الى الاسراف الشديد فى الولاء ، لتظفر بقلب الحكومة وجيبها .. وهو الذى يدفعها حيناً آخر الى التطرف فى الشنآن ، لتظفر بعواطف الجماهير التى تسارع بحكم طبيعتها الى البفض اكثر مما تسارع الى الحب ..

وامامى الآن ركام هائل من الصحف المملوءة بالمناقضات وسأمدي يدى نيابة عنك ، واتناول عفوَ الصدفة صحيفة منها - اى صحيفة .. ثم نقرأ فيها معا .. ونبحث بعد ذلك عن عدد آخر من نفس الصحيفة يكون قد صدر فى عهد آخر - ولننظر ..

» .. واذا كان المنادون بالحريات - يريدون ان تنصرف الحكومة عن واجبها فى صيانة النظام ، ليعبثوا به ، ويسخروا بعض «الصعاليك والمفتونين» لتنفيذ اغراضهم الخبيثة ، وجعل مصر مدينة مفتوحة للشيوعية والفوضى .. فليبحثوا لهم عن « لعبة » أخرى قبل أن ينفذ « السرك » وينصرف عنهم المتفرجون »

اقرأت هذه السطور .. ؟

اقرأوا مرة أخرى كلاماً آخر قالته بعد ذلك بعام واحد من عمرها المديد ..

.. افتحوا أبواب السجون التى ملئت بشبابنا المثقف متهما بالشيوعية .. والله يعلم انه ليس فى مصر شيوعيون سوى أولئك الذين يقضون حياتهم بين سهرات الشتاء الحمراء بمصر وسهرات الصيف الحمراء بباريس .. »

ان الحرية - هى .. هى - لم تتغير .

وحركة اضطهادها تسير على الدرب المرسوم .. فما سر التناقض فيما كتبه الصحيفة . وفيما تكتبه زميلاتها الكريمات ؟ ان الاتجاه النفسى .. تغير فتغير معه كل شىء .. والجماهير القارئة هى التى تدفع ثمن هذا العبث من أعصابها ، وسكينتها ، ونهاها ..

اننا بالاشواق الى ذلك اليوم الذى نسمع فيه عن صحفى مصرى - طرق أحد الكبراء بابه .. وقدم له « شيكا » بمائة ألف جنيه مساوما به على مصالح الشعب .. فيصنع كما صنع الصحفى الانجليزى .. ويدعو حاجبه لاصطحاب الكبير المحترم الى الباب - لانه يجهل الطريق !

ان الصحافة هى الرئة التى تتنفس بها الشعوب .. وتصوروا لو أن رجلا ذا جاه ونفوذ ومال - استأجر رثتى أنا - لتتنفس لحسابه ، لا لحسابى ، كم لحظة من العمر أستطيع بعدها أن أعيش ..

لقد كان « امرسون » صادقاً حين قال : الصحافة الحرة رسول من قبل الله للشعب .

نعم - انها كذلك ..

فهى التى تكشف عن بصره الفشاء ، فىرى ..

وتزيح عن آذانه الوقر ، فيسمع ..

وتمزق عن وعيه الحجب .. فيدرك كل شىء ويعيه .. انها

القوة التي تحيا بها الامة .. وتموت أيضا ..!
ونحن ندعوها الى العمل وفق تبعات هذه المكانة السامية التي
بواتها الحضارة اياه .

ج - الاحزاب ..

التعدد .. لا الوجدانية .

عندما يغم الطريق امام أمة من الامم ، وتتغشاها غواشي
المسكنة والذل - وتكون قد عاشت أمدا طويلا في قبضة
الجبارين ، فانها تحن دائما ، وتنزع الى شئ غير قليل من
التخضع والتخشع .. والارتقاء في أحضان سيد واحد .. ليس
له صنو ولا شريك .

وهذه هي العقبة الكأداء التي تعانيها الديموقراطية وهي في
طريقها الى ضمائر هذا الطراز من الجماعات .

ان هذا الضمير لا يزال يبحث عن جبار جديد .. بعد أن
اصطنع له اسما آخر يهواه ويطيعه - كأن يسميه مثلا -
الحزب الواحد .. المستبد العادل .. الشورى الغير ملزمة .. ولعل
الشرق كله لا يزال يردد في ايمان ونشوة الكلمة المعزوة الى السيد
جمال الدين الافغانى : « لن يصلح الشرق الا مستبد عادل »

وقد يكون « جمال الدين » قائل هذه العبارة - وقد تكون
من صنع أحد المعجبين به ، وبالمستبد العادل ..
أصحيح هذا ؟

أيمكن أن يكون الحاكم مستبدا وعادلا معا .. ؟
كنا نقرأ في الاحاديث المنسوبة الى الرسول ، وهي غير صحيحة
- ان لله ملكا نصفه من ثلج ، ونصفه من نار .. فلا الثلج
يطفىء النار ، ولا النار تذيب الثلج !

إذا كان في الامكان وجود مستبد عادل ، فهو هذا .. !

نريد أن نقول لجماهيرنا الحبيبة - هذا هراء .. !

والرجل الواحد .. والحزب الواحد - استبداد وافك ودمار .

لقد آمنت قبلا بالرجل الواحد وبالْحزب الواحد .. أيام كنت
أؤدى للآخرين تحية العوام ، كما يقول « اسكار وايلد » - التقليد
تحية العوام لأصحاب العبقرية . أدت هذه التحية يوما .. لأناس
طيبين - ليسوا على أى حال متهمين بالعبقرية .. فلما بدأت
أفكر لنفسى وعيت شيئا جديدا .

وأستطيع الآن أن أتصور - وتستطيع أنت أن تتخيل معى
ساعة جلسنا اثر صلاة الفجر نستمع لموعظة - وكنت يومئذ
أومن بالرجل الواحد فى جماعة دينية .. جلس الشيخ يعظ -
فقال :

من قال لشيخه لم .. ؟ فقد حرم بر كته .

قلت للشيخ يومها : ان أصحاب الرسول كانوا يقولون له : لم
- ولماذا .. ؟

فأجاب : عندما تكون كأصحاب الرسول .. قل مثلهم - لم .. ؟
أجبتة أيضا - والى أن تبلغوا انتم منزلة الرسول . سنظل
نقول لكم : لم .. ؟

وأشهد ، وأنا الآن أشرف على الحوادث من مكان بعيد
لا أتاثر فيه بشهوة ولا غرض - أن شيخنا ذاك .. صورة
صادقة لكل رئيس جماعة ، أو حزب فى مصر !

كلهم يؤمنون بأنفسهم ولا يزدون ..

ولو كان الصواب والسداد يقفان بجانب الرجل الواحد ،
لكانا اذن من التفاهة والضالة بحيث يكفى لتحصيلهما عقل
واحد ، قد يكون مريضا أو موتورا ..

ان الدين يرفض حكم الرجل الواحد.. والدنيا له اكثر رفضا
والحزب الواحد ، كالحاكم الواحد. كلاهما شر ، واستبداد
وفي مصر خلق كثيرون يصرخون كلما تكادتهم الامور . اتقوا
هذه الاحزاب

وهذا وهم عريض..! فالحقيقة ان ضعف الاحزاب ، لاتعدها
هو ماتى البلاء .

فاذا قيل : ان تعددها علة ضعفها وفسادها لما يحدثه من
فرقة وخلاف .. نجيب بان التعدد فى احزاب دول كثيرة
هو سبب قوتها وتفوقها، واذن فهو ليس مضعفا بذاته وطبيعته
.. وعوامل الضعف والانحطاط آتية من اشياء اخرى سواه..
بيد اننا ننيطها به للتفسير السيكلوجى الذى اسلفناه ..
وهو حنين الامة التى طال انحناءها للسيد الواحد، والحزب الواحد!



لقد عصفت الحزب الواحد بالمانيا .. وقسم ايطاليا .. وترك
اليابان عبرة وأحاديث.. ولوت طبائع الأشياء زمام الاستبداد
فى تركيا فتعددت فيها الاحزاب، ومضى الحزب الواحد الذى كان
حاكما بوزرسيئاته، بل وحسناته!

ولاتضربوا! لنا الامثال بروسيا .. فالعبرة بنهاية المطاف ..
لطالما لهجننا ببركات الحزب الواحد المستبد فى المانيا النازية ،
وايطاليا الفاشية.. فاین ذهباً؟
وروسيا بين احد امرين ..

فأما أن تكون الحريات فيها سائدة مترعرة. ومجالس الاتحاد
فيها من القوة والنضج بحيث تؤدي دور الاحزاب المعارضة
تمام الاداء .. وعندئذ لا يحتج بها علينا مع احتفاظنا بحقنا فى
استبعاد بلوغ «السوفييت» هذا المنسوب الذى يرشحها للنهوض
برسالات الاحزاب ..

واما ان يكون حزبها الواحد مصمتا صخريا . . لاشيء معه ،
ولا معقب لحكمه . . وعندئذ ، فالمصير المدخر للحزب الواحد ،
والشعب الذى يرتضيه ، فى الانتظار



يجب ان نعلم ان مصر لا يؤودها اختلاف احزابها . . بل تناحر
هذه الاحزاب . . اما الخلافات فلا مفر منها ، وهى باقية فى
الناس ما بقى لكل منهم عقله الخاص ، ومشاعره الخاصة . .
والخلاف الذى لا يجاوز دائرته ، ولا يتعداها ينفع ولا يضر . لانه
الوسيلة الناجعة لتقليب وجوه الراى ، وكشف اللثام عن
حقائق الاشياء

والذى يرهقنا بطفاوته - الخصومة لا الخلاف .

منذ اربعة اعوام نشرت صحفنا انباء احدى جلسات مجلس
العموم البريطانى - حيث وقف تشرشل يتهم بيفن بالعجز والعمل
لتصفية الامبراطورية البريطانية

فما كان جواب « بيفن » - ولعلها اقصى كلمات يستطيع ان
يستعملها : الا ان قال :

« ليس فى بريطانيا من ينكر ان تشرشل هو عبقرى الحرب
الذى كسب لبلادنا النصر . .

« ولكنه - وهذا عيبه - يستجيب احيانا لنداء اغراضه
الخاصة »



وصحيح ان هناك من السياسة والزعماء من يتهاترون والعراك
التاريخى الذى استمر بين دزرائيل وغلادستون لا يزال كأنه
مشبوب الاوار . . ولكن الارض المشتركة بين الاحزاب جميعا
مهما تختلف وهى - مصالح البلاد - لا يمكن ان يفرط فيها
حزب . . او يساوم عليها من أجل الكيد والاغاطة لخصومه
السياسيين

وليس معنى هذه المقارنة اننا نتهم زعماءنا بالخيانة . .
لا - وانما نتهمهم بالضعف . . الضعف حين يتحابون والضعف
حين يتخاصمون . .

الم تسمع يوما أن حكومة العمال انتدبت تشرشل لبعض
المهمات السياسية الخطيرة خارج البلاد . . ؟

ان هذا لا يمكن أن يحدث في بلادنا أبدا . .

فالحزب الذى يستأثر بالحكم يستأثر معه بكل شىء . . ويرفض
الافادة بما فى الاحزاب الاخرى من مواهب . . بل هو لا يعترف
بموهبة ولا ذكاء فى غير حزبه . .

ان حزبه وحده هو المتخيم بعشرات من أمثال بونابرت . .
وعشرات من طراز عمرو بن العاص . . !

ان الحزبية الرشيدة المتعددة من أهم المقومات لشخصية
الشعوب الحرة .

فلنغبط بتعدد الاحزاب عندنا ، ولا نجزع . . ولنطالبها
باصلاح ذات نفسها . ونفث روح النظام ، والديموقراطية ،
والشرف فى كيانها .

وهذه مقترحاتنا : -

١ - الرئاسة للأصلح - ان رئيس حزب ما هو رئيس
الحكومة يوم يظفر حزبه بالأغلبية - لذلك نجد رئاسة
الحزب ليست من مسائله الخاصة التى يحق له الاستئثار
بها . . بل هى قبل ذلك من حق الشعب الذى قد يحكمه هذا
الرئيس يوما ما . .

ولهذا يجب أن يختار الرئيس عن وعى وبصر . وان يكون
الرجل الذى تتمثل فيه قوة الحزب وقمة نضوجه . . وان

يجدد اختياره .. أما الرئاسة مدى الحياة ، فهي ترادف
- الفساد مدى الحياة ..

٢ - افساح الطريق للاكفاء .. والاحزاب فى الامم الراقية .

مدارس تربى الشباب ، وتعدده لأدوار البطولة ، وقيادة السفين
.. ولكنها عندنا «بورصات» للمضاربة والاقتناص .

وانه لشيء محزن ومخجل أن يكون النفاق جواز المرور
والوصول فى جميع أحزابنا - فانت كلما كنت بعيدا من الفطنة
تكون قريبا من الزعيم .. وسبب ذلك فيما نعتقد ضعف
الزعماء وهزالهم .. فرئيس الحزب اذا كان قزما - أبعد عن
نفسه العمالقة حتى لا تنكشف عورته .. وتنفض قماءته ..

وهؤلاء الصغار الذين يشبعون غرور رئيسهم بالتزلف والملق ،
هم الذين توسد اليهم فيما بعد مناصبنا الكبرى والوسطى ..
فاذا أرادت الاحزاب ان تكون عامل بناء فى بلادها ، فلتفسح
الطريق للاكفاء والصالحين فيها - والا انقلبت بؤرة تورود للأمة
الميكروب والآفات .

٣ - المنهج - المنهج هو الحزب - وأحزابنا هذه مامنا هجها؟

انها تهتف بالجللاء ، والسودان ، والعدل الاجتماعى . فاذا أتيت
لاحدها الحكم - توسل لكل هذه الاهداف بسياسة مرتجلة ،
وسلوك مضطرب - مما يدل على أنه كان فقط يهتف مع الهانفين
ويصرخ مع الصارخين دون أن تكون له فلسفته الخاصة ونهجه
المستقل حيال مشاكل البلاد جميعا ..

ان فائدة المنهج للحزب لا تتمثل فقط فى أنه سيكون دستور يوم
يحكم - بل أهم من هذا أنه يربط الحزب بالشعب رباطا
وثيقا .. لان المنهج نفسه يكون ثمرة اتصال الحزب بال جماهير
وتحسسه آلامها - وبحته أخص شئونها ..

ان الارتجال أفسد علينا حياتنا .. الارتجال في الحكم ،
والارتجال في المعارضة .. والمضحك أن احزابنا يقلد بعضها
بعضا حتى في الفشل ..! وهذا هو سر ما نجده من تشابه بين
سلوكها جميعا .

ان أرقى مظهر لسياسة الحزب - هو خطاب العرش -
الذى يعبر به الحزب الحاكم عن نفسه ونهجه ونواياه ..

ولقد سرت عبر خطاب عرش كثيرة في مضابط البرلمان . تكاد
الفروق الدقيقة تنعدم بينها .. وقطع على سبيري ، صوت
شيخ جليل ، وجدته قائما في إحدى جلسات مجلس الشيوخ
يوم ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ - يفسر نفس الظاهرة ، ويندد بها ..
فلنصغ له .. ان صاحب الدار أدري ..

- حضرة الشيخ المحترم محمد بك خطاب :-

- حضرات الشيوخ المحترمين - خطاب العرش اساس من
الاسس الهامة في الحياة الدستورية ، ولو اتبعت الحكمة
المقصودة منه ، لكان بناؤنا الدستوري الديمقراطي أقوى
مما هو الآن بكثير ..

« امامي الآن جميع خطابات العرش منذ سنة ١٩٢٤ الى
سنة ١٩٤٥ - اظن ان عدد هذه الخطابات يبلغ حوالى الثلاثة
والعشرين خطابا .. واذا قرأتم هذه الخطابات تجدونها جميعا
كانها نسخة واحدة من خطاب واحد ، مع بعض التعديل في
الالفاظ - لا في الموضوع - بعكس الحال في بريطانيا . اذ يمكن لاي
عضو من حضراتكم ان يقرأ الخطاب ، فيقول : هذا خطاب
حكومة العمال ، او حكومة المحافظين ، او حكومة الاحرار ..
» اذا كانت هذه الخطابات لا تتغير في عهد من العهود ولا في
حكومة من الحكومات ، فما الداعي اذن لهذه الفرقة بيننا ،
وهذا الخصام المتواصل ؟! ..

«الواقع يا حضرات الشيوخ المحترمين ان خطاب العرش بدأ
أولاً في صفحتين ونصف صفحة وقد جاء في هذا الخطاب القصير
كل ما جاء في خطابات العرش الأخيرة ..

أما خطاب العرش الأخير ، فقد زاد الله في حجمه ، وأصبح في
خمس وثلاثين صفحة - وكنت أعتقد ان زيادة خطاب العرش
من صفحتين ونصف صفحة الى خمس وثلاثين صفحة - أى بما
يعادل ١٤٠٠ ٪ ، قد يعود على البلاد بخير ، لا بنسبة
١٤٠٠ ٪ - ولكن على الأقل بنسبة ٧٠٠ ٪ ، أو ٦٠٠ في المائة
أو حتى ١٠٠ في المائة » (١)

اننا نفسر هذه الظاهرة بالافلاس . افلاس الحكومة ،
وافلاس الاحزاب التى تنشئها وتكونها ، من المناهج المرسومة
والدراسات الواعية ..

٤ - ديموقراطية الحزب ولكى نصحح شخصية الشعب ،

يجب ان نصحح شخصية الحزب مادامنا نرى الحياة الحزبية من
اهم مقومات الشخصية - شخصية الامة والدولة .
وشخصية الحزب لا تكون صحيحة سوىة حتى تصطبغ
بالديموقراطية الحققة . فهل احزابنا كذلك ؟

انها - وهذه هى الحقيقة - أندية سياسية تضم المترفين الى
العاطلين - مع محترفي السياسة والكلام ! ..

انها منصرفه ، بل عازفة عن الشعب ومشاكله - مما أدى
الى خلق جيل جديد لا يؤمن بأحزابه ، ولا بزعمائه .. مع اننا
في أمس الحاجة الى الايمان بأحزابنا ، وبقادتنا . حتى

(١) مجموعة مضابط الانعقاد العادى الحادى والعشرين ص ٢١٥ .

لانتقسم على أنفسنا ، وحتى نتطور - دون ان نتنكر - لمحاسن ماضيها .

ياأيها الزعماء - تعرفوا الى الشعب .. وامشوا معه في الاسواق ان كنتم تريدون لكم ، وله البقاء .. !

لقد سبقتموه في المعيشة سبقا بعيدا .. فعجزتم عن أن تحسوا احساسه ، وتشعروا بشعوره . ومهما تحاولوا اليوم أن تتمثلوا ، أو تتخلوا آلامه وعنايه ، فلن تستطيعوا حتى تعودوا اليه ...

كيف يحس رجل منعم ، تستقبله كل يوم مائدة متخمة بمناعم الطعام والشراب - احساس رجل أضنى أمعاءه القديد اليابس المتبل بالذباب والتراب .. ؟

لقد سكن غاندى في حى « الكناسين » ليستطيع أولا أن يحس نفس الاحاسيس التى يعانيتها سكان هذا الحى من المنبوذين .. ثم ليستطيع ثانيا أن يرفع عنهم آصار هذا التحقير من بنى وطنه الهنود ..

ونحن لا نكلف زعماءنا وسادتنا بمثل ما كلف غاندى نفسه .. لانهم لم يتمثلوا بعد فى وجداناتهم صورة صحيحة للزعامة الرشيدة .. انهم لا يزالون يرونها علوا فى الارض ، واشرافا على « المنبوذين » من مكان بعيد .

نعم . لن ندعوهم الى مساكنة الفقراء .. فتعالوا عن ذلك علوا كبيرا .

وانما ندعوهم - وحسبنا هذا منهم - أن يعيشوا فى احساس الجماهير ، ولو على ضوء ما يقرأون من أخبارها وشكواها ، وأن يجوسوا ، ولو مرة ، خلال النجوع والكهوف .. خلال الظلام والبلى .. ليعلم الشعب أن زعماءه يذكرونه ، ويشاطرونه ... فتقوم بينه وبينهم علاقات انسانية متأخية .

وأن يكلف زعيم الحزب جميع نوابه وشيوخه بزيارة دوائرهم

زيارات دورية فاحصة - ويرفع كل عضو من هؤلاء تقريراً دورياً
عن زيارته ومقترحاته

هذه هي بعض المقترحات التي تتيح لنا الانتفاع بأحزابنا ولابد
لنا من أن نقرر مرة أخرى - أنه إذا كان لأحزابنا خطايا وأخطاء
.. فهي ليست أصيلة ولادائمة .. ووصفها بذلك تشاؤم لا
مبرر له ولا دليل .

ووجود هذه الأخطاء لا يبرر التهوين من قيمة الأحزاب ،
وحتمية قيامها ، كما لا يبرر أبداً المطالبة بالغائها ، أو توحيدها .
إن غاية ما تثيره وتدعوننا إليه - هو الإصلاح الحاسم السريع .

* *

دور الشعب في تقويم الأحزاب

وللشعب في إصلاح الحياة الحزبية دور هام . فعلى أحداً
إذا شارك حزباً من الأحزاب طريقه ، أن يجعل صلته به صلة
تعاون - لا تعصب .

إننا نفسد رجالنا وزعماءنا ، حين نؤمن بهم إيمان الدراويش
بشيوخهم .. ونخون أنفسنا بخيانة كبرى حين نلأشئ وجودنا
وشخصياتنا في خضم الولاء الأبله ، والثقة العمياء .

في عام ١٩٤٦ - كان أحد الزعماء يحرض الشباب جهرة
على العمل لاسقاط الوزارة القائمة بحجة ممالاتها للإنجليز
برغبتها في مفاوضاتهم ..

وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة أخرى . وقررت مفاوضة
الإنجليز . وهنا نلتقى بنفس الزعيم يحث الطلبة على الهدوء
وينهاهم عن كل عمل قد يعرقل سير المفاوضات . فلما ذكروه
بنفسه . وبكلماته في الامس الرطيب . أجابهم في خبث ودهاء :
- إن الشعب الإنجليزي نائر على حكومته ، وهو يطالبها برد

ابنائهم المجندين بمصر وغير مصر من البلاد المحتلة . والحكومة البريطانية تعتذر عن تسريحهم أمام الشعب بأن هذه البلاد ومنها مصر ثائرة ضد بريطانيا ، فلا بد من ابقاء جيش الاحتلال فإذا حدثت أي شغب انتفعت به الحكومة البريطانية في اسكات شعبها اللوح .

لم يكن الزعيم - كما ستري - يؤمن بحرف واحد مما يقول - ولكن الاتباع المستسلمين مصمصوا شفاههم اعجابا ، وانطلقوا يبشرون من وراءهم بهذا المنطق العجيب !

واعجب الزعيم أيضا بذكائه فاستعرض وجوه جلسائه وقال :

- اظن اننا احسنا اختيار الشقيقة .. ؟

وخرجت ليلتها افكر : ما الذي أمسك بالسنة الطلبة عن مناقشة هذا المنطق المضلل المتهافت .. ؟

واجبت نفسي : انه الايمان الاعمى بالزعماء . وانما شخصية هذه الدمى الادمية وانطفاء نور الاعتداد فيها فإذا شئنا تقويم احزابنا ، لنفيد منها ، وننمو بها ، فلنحتفظ بشخصيتنا ازاءها ..

وشئ آخر لا يقل أهمية - وقد يزيد . هو أن نجل ثقتنا عن أن نلقى بها تحت اقدام الذين لا يستحقون سوى الصفع والازدراء .

وأن نمناها للذين هم بها جديرون في اناة وقصد .
وشئ ثالث - هو أن نكون دائما ممثلين للامة في الحزب ..
لا ممثلين للحزب في الامة - بمعنى أن نتوسل بالحزب لخدمة الشعب .. لا أن نتوسل بالشعب لخدمة الحزب

ج - القيم والمعايير

هذا ختام العناصر التي آثرناها بالعرض .. ودعونا للتواصي بها

حتى تتألف منها للجماهير شخصية أمرة مسيطرة ..
ومعايير الامة هي مناط تقدمها أو انحطاطها . ونعنى
بالقيم والمعايير - تلك الادبيات والتقاليد النفسية التى تسيطر
على وجدانها ، وتوجه نشاطها .

ارايتم امة يسود فيها مثلاً - الايمان بالقناعة ... انها تمسى
قنوعاً فى كل شىء .. ليس فقط فى لقمة الخبز .. بل وفى طلب
المجد كذلك ...

ولن نفيض هنا فى الحديث عن تلك القيم . فمجال الاسهاب
فيها كتب الاخلاق .

انما نعرضها من زاوية حاجتنا كشعب طامح الى الحرية
والخلاص .

لابد لنا من قيم عليا نابضة ، نثبط بها حياتنا .. وننظم حولها
نضالنا مع الايام .

فلنبحث معا عن محور تدور حوله معايير الشرف والمجد
جميعها ، ولنرفعه تجاه ابصارنا ، ثم نصبه صبا فى كياننا .

اما ان نختلف حتى فى اختيار القيم التى ينبغى ان نصل بها
انفسنا ، فضلال بعيد .

اننا لا نحاول فهم الاشياء ولا تحديدها .. والذى ينقصنا
هو « النظر المحددة لانفسنا ، وللحياة »

ما نحن ... ؟

بشرية نامية تدور حول الشمس ، وتتفاعل مع التطور
السيار ...

ام بشرية محنطة جعلتها الاقدار آية زاجرة للذين لا
يؤمنون بالمسيرة والتجديد ؟

وماذا نريد .. ؟

أن نظل سوائم ذللا - ننشد الراحة . ونخلد الى الارض ..
أم نحترم آدميتنا ، فننشد الحرية بلا وجل .. ونكرس
حياتنا لتحقيقها والظفر بها ؟

وما الحياة .. ؟

أهى الفوز ، ومعميات . غاية سعينا أن نفلسفها ونفهمها ..
أم هى سعادة متاحة تنادينالناها ونحيها ؟
نعم . نريد من الحياة أن نحيها . فكيف السبيل .. ؟
السبيل - أن نجيب أولا على هذا السؤال ...

هل نحن سكان غاب .. أم سكان وطن .. ؟
إذا كانت الاولى ، فلندع أمورنا تسير اذن على النحو
الذى تسير عليه حياة الغاب

وإذا كانت الثانية فلا بد - وهذه حقيقة يجب أن نتقبلها
بشجاعة - لابد من أن نستأنس ونحقق لانفسنا معنى المواطنة
- كاملا غير منقوص .

واذن، فالمواطنة . هى المحور الذى نختاره لننظم حوله شتى
قيمنا ، وكافة معاييرنا .

المواطنة - يا مواطنى العزيز هى من الآن مثلنا الاعلى .

المواطنة - هى من الآن هدفنا المجيد المفلدى .

المواطنة - أن تكون فى وطنك مواطنا - لا مستوطنا .. وأن
تكون فى المجتمع كفؤا وندا - لا تابعا ولا عبدا .

المواطنة - تقتضيك أن تكون فاضلا ، لا مجرد حب الفضيلة
وخيرا - لا مجرد الرغبة فى الخير .. بل لتكون يا صاحبى جديرا
بوطنك ..

ونستطيع الآن أن ننصت لمؤلف « التريسة لعالم حائر »
يحدثنا عن المواطنة حديثاً بليغاً (١)

« .. اذا نظرنا الى المواطنة نظرة صحيحة - وجب أن تشمل جميع أعمال الانسان التى تمس بنى جلده ، وتؤثر فى سلامة الدولة ورخائها - وتكاد تكون صنوا لواجباته نحو جاره ، وتتضمن هذه المواطنة كل شىء تقتضيه شرائع الدولة ، ويتطلبه الضمير الانسانى . »

« وليست المواطنة شيئاً سلبياً - أى مجرد امتناع المرء عن التصرفات الغير وطنية . بل هى عمل ايجابى . وفى هذا يقول «بركليس» - اننا لانعد الرجل الذى يقف موقف العزلة أمام الواجبات العامة رجلاً هادئاً . بل نعهده رجلاً لا خير فيه . . . ويقول «بيرك» الحياة العامة مركز للسلطان والنشاط . والرجل الذى ينام أثناء نوبة حراسته يذنب فى حق الدولة عليه ، شأنه فى ذلك شأن من ينضم الى أعداء بلاده .. »

ويستطرد لفنجستون قائلاً :

« والدولة المثلى هى التى يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على أن يكون جزءاً من المجتمع الذى يعيش فيه ، ويساهم فى اعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل مصلحته الخاصة .. »

« وهذه الدولة آلة لا نجد فيها جزءاً واحداً من أجزائها معطلاً ، أو خاملاً ، أو صائدناً ، أو مكسوراً ، أو موضوعاً فى غير موضعه .. وفيها يساهم كل ترس بقسطه الكامل من العمل فى سرعة وتناسق .. »

« فالرجل الذى يتملص من أداء الضرائب المفروضة عليه -

(١) هو سير وتشرد لفنجستون ومعرب الكتاب - الاستاذ وديع الضبع .

مواطن رديء ، ومثله ايضا الرجل الذي لا يفكر حين يدلى بصوته في الانتخابات البرلمانية الا في مصالحه الخاصة ، أو يهمل الاقتراع بتاتا - وتلك ايضا حال صاحب العمل الذي يضاعف مشاكل وطنه بسوء معاملة عماله ... ومثل هؤلاء ايضا ارباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعملاؤها ، والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم في كفة الاقدار .. »

بهذه البسطة من الفهم - صور لفنجان جغرافية المواطنة ، ووضح معالمها ، وضرب الامثال للتبعات الشداد التي تفرضها على اصحابها

ان المواطنة ، كما رأينا - دين يدعو المواطن الى بذل الواجب من أجل الوطن ... ويدعو الوطن الى تمكين الفرد من اداء الواجب

هي الاتعيش في بلادك محايدا - بل مجاهدا ...

هي أن تحترم حقوقك ، وتمارسها حقا حقا ..

هي أن تدوس مصالحك الخاصة - عندما تصبح مصاير بلادك في كف القدر ..

وهي ان تعامل الدولة اعضاءها - باعتبارهم مواطنين - لا رعايا ...

وأن توقف في ضميرها معاني الانسانية والكرامة ...

وأن تضع كل مواطن في مكانه . وتتحدى كل اعتبار آخر يفتح للمحاباة الطريق ..

وان تعدل - ليس فقط في توزيع الخبز .. بل قبل ذلك في توزيع الواجبات والحقوق .

وأن ترفع لواء المساواة - ليس فقط بين الناس ، والناس .. بل وبين العمل والجزاء ... فلاشراف العاطلون الذين لا

يعملون شيئاً . يجب أن يحرموا من كل شيء ، وإذا أغدقت الدولة عليهم تكريمها فقد انتهكت كرامة المواطنين ، وحطمت معنى المساواة ...

والعاملون الكادحون يستحقون التقدير والتوقير - فإذا بخلت عليهم الدولة ، وازدرتهم ، فقد بادت بشر ما يبوء به الظالمون !!
بقى شيء آخر ، هو اسمى ما تتيحه المواطنة للناس - الكرامة .

فاظمأ ان أبدى لى الماء منة ولو كان لى نهر المجرة موردا
ولو كان ادراك الهدى بتدل لصار الهدى الا اميل الى الهدى
واذا لم يجد المواطن من دولته الحرص على كرامته ، فما أصعب الاحتفاظ بها والحرص عليها ..
هؤلاء الذين جاعوا ، فسرخوا !

وهؤلاء الذين وجدوا طريق الوصول - التملق ، فتملقوا وناقوا وهانوا ...

وهؤلاء الذين رأوا الدولة تهملهم ، فأهملوها ..
وحسبوها تخونهم ، فخانوها

هؤلاء - وهؤلاء - ما الذى اغراهم بالكرامة والواجب .. ؟
انه اهمال الدولة لا ريب .. اهمالها الاخذ بمبدأ السوائية بين مواطنيها .

ومالم نقض على مظاهر التمايز غير المشروع ، فستظل امة
بطيئة الاحساس بكرامتها .. !

الغوا هذه الانقلاب

ومسألة الانقلاب فى مصر من اهم مسائلنا - قديرها بعضنا
مسألة شكلية تافهة .. وهذا منهم حسن ظن عجيب .

والحقيقة أن الالقاب فى بلادنا مصدر قلق وازعاج للكرامة القومية . بل والانسانية ..

انها اذلال لكبرياء الشعب ، وايفار لصدرة ، وارباء لروح الطبقة المقيمة فيه ..

واذا كان لابد من مثوبة شرفية تستحث بها الدولة مواطنيها نحو التبريز والتفوق والكمال، فلتكن كلمة « مواطن »

صحيح ان لقب « مواطن » حق طبيعى لكل فرد فى وطن .. ولكن الدولة حين تمنحه أحدا - يكون اعترافا منها بأنه قد ادى واجبات المواطنة، واستحق تكريم الدولة واحترامها ..

أما لقب « باشا » مثلا ، فهناك أكثر من سبب يحتم علينا هجره والقائه .. فهو -

أولا - لقب غير وطنى ، وهو من بقايا الاستعمار التركى العثمانى . والامة التى تعجز حتى عن تمصير ألقابها - أمة ساقطة من عين التقدم والنجاح .

ثانيا - هو رمز بغيض للباشوات الاتراك الذين كان السلاطين يولونهم أمرنا ، فيقتلوا آباءنا ، ويستحيوا نساءنا .. وينهبوا أرزاقنا ..

ثالثا - ان أول رتبة « باشوية » أنعم بها فى مصر - كانت ثمن خيانة اقترفها المنعم عليه ..

فقد حدث عندما غزا بلادنا سلطان البرين، وخاقان البحرين .. السلطان سليم - أن انحاز اليه أمير شركسى اسمه « خيربك » وقد لعب هذا الرجل دورا هاما فى تصفية المقاومة ، وتعبيد الجماهير للغازى سليم ، فاجتباه وأنعم عليه بلقب « باشا » .. !

وهكذا ظهرت الباشوية فى مصر .. وتوالت علينا بعد ذلك رجال الباشوات كأنها جراد منتشر ..

وكان لقب « باشا » رشوة تركية يغرى السلاطين بها سفهاء الاحلام والنهى ، ليتفانوا في خدمتهم التى تقوم على الجبي والظلم .. !

وكانت ايضا أداة يتوسلون بها لاذلال الشعب ، واشاعة الشعور بالدونية فى نفسه امام طبقة الباشوات العاطلين .. !

فلماذا اذن نبقى على القاب غير مصرية .. القاب حملها من قديم الزمن أناس شردونا ، واستباحوا دورنا وحمانا .. ؟ القاب كان لها منذ حين قريب سماسة يتجرون بها علنا ... ويبيعونها جهارا نهارا ...

يقول المواطن : « احمد لطفى السيد » فى مذكراته المنشورة بالمصور العدد (١٣٥٤) :

« من أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد ، وتحدثت بها الصحف عام ١٩٠٨ - وقد كان لها سماسة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، وأصبحت تعطى لا مكافأة على عمل من أعمال البسالة .. ولا على خدمة من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون القاب التشريف .. وكان السمسار يأخذ المقدم من المشتري ، فاذا تم التشريف أخذ المؤخر ..

« وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها عنهم .. فهى تلعب بأهوائهم ، وشهواتهم ، وتأسرهم بها ...

« وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت الى الحكومات الحديثة فكانت أثرا من آثار الاستبداد الاولى » ! أرايتم .. ؟

أولئك هم الباشوات الذين كان أجدادنا يرتعدون أمامهم فرقا .. لم يكونوا على شئ من العلم ، ولا من الصلاحية ...

ولكنهم اشتروا من السماصرة لقباً فضفاضاً يسترون به هزالهم ،
ويتألهون به على العباد .. !

ما أروع ابن عبد الله - حين ناداه صحبه - أنت سيدنا ،
فقال غاضباً :

لا يستهوينكم الشيطان .. ولا تقولوا عني « سيد » .. إنما
أنا عبد الله ورسوله !!

ثم ما أبلغ العبارة التي رفض بها « برنارد شو » الألقاب الكثيرة
التي عرضت عليه :

« إنها قيود من ذهب . تضطر الإنسان لان ينحنى كي
توضع في رقبتة » .. !

وما أشد حاجة الأمة التي تحلت شخصيتها وتلاشت الى
نبذ مظاهر التمايز ، واماطة « الألقاب » عن الطريق .. ان
اللقب دثار يغطى عرى لابسـه .. عريه الوطنى وعريه الاخلاقى
الم يكن كذلك ، لخير بك .. الذى صار خير بك باشا .. فغطى
خيانته الى حين ؟ ..

ونحن على يقين من ان الدين يسفكون كرامتهم .. ويهرقون
ماء وجوههم لينالوا لقباً - انما يحفرهم لهذا الرغبة المنحطة
فى التبذخ على الشعب .. فلنقطع عليهم السبيل .. ولننتزع عن
أعناقنا هذه الاطواق .

وبعد ، فهل يمكن أن نكون مواطنين بلا وطن ؟ ..
لقد وضحنا فى هذا الفصل الى حد ما الوسائل التى تفضى
بنا الى انهاض شخصية الشعب كى تعمل ..

ولكن أين تعمل اذا هى لم تجد لها مجالا . .
لابد لنا من وطن .. يكون خالصاً لنا دون المستعمرين
والمستغلين ..

ومصر - هي الارض التي درجنا منها ، ومهدنا فيها ،
ورضعنا بلبانها ..

ولكن الاستعمار اختلسها منا .. وصيرنا فيها غرباء وصبغ كل
مقوماتها بلونه ، ومن أردنا من الاستعمار صبغة ؟ ..

ومهمتنا الكبرى تحرير الوطن

فكيف السبيل ؟

تمهيد

« لتكن غايتنا في الحياة - بلادنا

» بلادنا وحدها ..

» وبلادنا كلها ..

» ولا شيء الا بلادنا «

دزرائيلي

في الفصل الاول من الكتاب رأينا كيف دخل الانجليز مصر وكيف دخلها قبلهم الاتراك . ثم كيف صار بعضهم لبعض ظهيرا . وقلنا - ان الاستعمار التركي قد اختفى حكامه - وبقيت تقاليد وشعائره واحكامه .

ولكى نمصر مصر .. لابد من أن ننفي عنها هذه البقايا - ونظهر حياتها من تلك الشعائر والاحراش وذكرنا ان الطريق لهذا - هو الحرية الغامرة ، وتقويم شخصية الشعب ، وشد زناد الكرامة والكبرياء فيها - وفي هذا الفصل نتدارس الوسائل المفصلة التي نمصر بها مصر من الاستعمار البريطاني .

وخليق بنا أن ندرك بادی الامر ، أننا حتى اليوم لم نحدد وعيننا لهذا الاستعمار ، ولم نحدد الوسائل المجدية في مكافحته وطرده .. ولعل سبب ذلك أننا لم نؤت بصرا كاملا بأخطاره وأوزاره ومدلوله .

فالكثرة الغالبة منا تولى وجهها شطر الجيوش الرابضة في القنال . ثم تتميز من الغيظ . وتظن أن هذا الاحتلال المسلح هو وحده - الاستعمار البريطاني

علينا أن نتعمق في فهم هذا الاستعمار ونفوقه .

وعلينا قبل الخطوة الاولى أن نعلم أن هذه الجيوش المعتدية التي « برطنت » منطقة فايد ، وجعلتها مدينة انجليزية كبرى هذه الجيوش التي تسبب لنا الضنك والغلاء بما تستهلكه من منتجاتنا الزراعية استهلاكاً تنوع بحمله الارقام .

هذه الجيوش التي تطأ بنعالها كرامة الشعب وطموحه - ليست الاحتلال البريطاني ، ولكنها فقط مظهر من مظاهر الاحتلال .

ومن الممكن جدا أن تجلوا القوات البريطانية عن ديارنا ..

ويظل جاثما ينشر وباءه وبلاءه . وانه لامر مؤسف أن تغيب هذه الحقيقة عن بصائرنا ..

الا تذكرون . الايام الغبية التي حشدت الدولة فيها كل مظاهر الحفاوة والفرح بعيد الجلاء . . جلاء بضع كتائب عن (القاهرة) فهللنا وكبرنا ، ونحن نعلم أنها استعسكروا على بعد خطوات . . ؟ !
لقد كانت هذه الظاهرة ، ولا تزال آية على اننا نحس حقوقنا احساس العبيد لا احساس الاحرار . ولقد كان مثل الانجليز معنا بهذا الجلاء . كمثال لصنوبر الابواب ، واقتحم الدار على أهلها ، وأشاع في البيت الرعب والغش والفساد . . ثم أخيرا تفضل وتكرم ، وقرر أن يدع لأهل البيت غرفة النوم . . ويذهب هو ببقية الحجرات ! . .

فلننظر الى الاستعمار نظرة واعية شاملة . ثم لنمض في طريق جلائه أو افنائه .

النفوذ ، والاحتلال

قلنا : ان الاحتلال العسكري لمصر مظهر من مظاهر الاستعمار - ولا يزيد . . وهو وان يك أكثر المظاهر بشاعة ودناءة ، وأفعله في اثاره كوامن الحق والثار - الا أنه لا ينبغي أن يشغلنا به وحده عن بقية المظاهر والآثار . . بل يجب أن يتجه كفاحنا اليها جميعا بعد حصرها وتحديدتها . .

والاستعمار يعتمد هنا على شيئين .

ا - النفوذ السياسي . .

ب - الاحتلال العسكري . .

ولنبدا بالحديث عن أولهما . . متتبعين نقط ارتكازه ثم باحثين عن طرائق ابادتها واجتثاثها . .

النفوذ السياسى .

ان بريطانيا تسيطر على حياتنا ووجودنا سيطرة سياسية محيطية .. وآراؤها ، وخططها هي عجالات الآلة الدوارة . . ونحن - شعبا ودولة - لسنا أكثر من الصوت الخارجى لهذه العجلات ..

اننا أمة لا تريد .. بل يراد لها ..!

● يراد لها أن تنشئ جامعة عربية ، تزيدنا وهنا على وهن ، فننشئها ..

● ويراد لها أن تبرم معاهدة لتؤكد مشروعية الاستعمار فتبرمها ..

● ويراد لها أن تخوض حروبا مرتجلة ، فتخوضها ..

● ويراد لها عام «١٩٢١» أن تدخل فى مفاوضات مع مستعمرىها لتمزق وحدتها ، فتدخل فيها ..

● ثم يراد لها الدخول فى مفاوضات أخرى - هى امتداد لنفس المفاوضات القديمة جدا .. فتسارع وتتهافت ..

● يراد لها أن يحكمها هذا الحزب ، فيحكمها .. ثم تتغير المشيئة ، ويراد لها أن يحكمها حزب آخر ، فتتم الامور على ما يراد ..

ونحن فى كل هذه النقل والتغيرات والاحداث نظن اننا نتحرك بارادتنا ، ونفكر بعقولنا ونقف على أرجلنا ..!

ان تطهير «الارادة المصرية» من هذا النفوذ السياسى ، لا يقل اهمية عن تطهير «الارض المصرية» من الاحتلال العسكرى - فاذكروا هذا جيدا . ودعونا نسأل : على أى شئ يركز النفوذ البريطانى؟ .

هذه نقط ارتكازه ..

عند ما يريد الاستعمار استعباداً واستثمارها يحاول جاهداً أن يربطها بعجلته عن طريق صك عبودي - يسمى في اللغة المظلومة .. « المعاهدة » ! وبريطانيا تعلم أن هذا العصر الذي تعيشه الإنسانية ليس عصر احتلال بالجيوش . فالشعوب تنفر من رؤية الفزاة يروحون في بلادها ويجيئون .. لذلك فهي تستعيز عن الاحتلال العسكري بالاحتلال السياسي - أى بالمعاهدات .

وعن طريق المعاهدات يصلون الى كل الاغراض التى كان الاحتلال المسلح يحققها لهم

وباسم المعاهدات يحرمون حليفهم من التسليح ..

وباسم المعاهدات - يثيرون فى الشعب الحليف كل أنواع الفتن والمؤامرات ..

وباسم المعاهدات - تجتاز طائراتهم المناطق الحرام عنوة واقتساراً ..

وباسم المعاهدات - يحاصرون قصر الملك الذى تحالفهم حكومته ...

وباسم المعاهدات - تؤخذ اقوات الشعب وخيراتهم ليطلع بها الجيش المحتل - ولتباع الى الدول المعادية التى أنشأها حلفاؤنا انشاء لتكون لنا شوكة الجنب على الدوام ..

وباسم المعاهدات يجترح الاستعمار - وهو يتسم - كل المقابح التى كان يقتربها ، وهو يزمرجر .. !

والدليل الذى ليس بعده دليل على أن المعاهدة هى بديل الاحتلال العسكرى .. تشبث بريطانيا بعقدها معنا .

لقد كنا نحسب أننا خلقنا فقط لنتألم .. ثم نموت .. بيد أننا

تبينا أخيرا - أننا خلقنا لتألم . ونحالف بريطانيا .. ثم نموت .! لماذا نحالفها ..؟ وهل تشجع سوابقها على بناء حلف معها .؟ لقد حالفناها بمعاهدة «٣٦» وكان لهذه المعاهدة معنا قصة الببغاء التى تجيد جميع اللغات .
أو تعرفونها معشر الزعماء .؟
اقرأوها ، فقد ترون فيها فائدة ودرسا ..

رووا - أن رجلا كان يملك « ببغاء » أعياء غباؤها المطبق ، فاجتهد أن يعلمها فقط هذه العبارة « لاشك فى ذلك » !
ثم خرج بها الى السوق ونادى :

- من يشتري ببغاء تتكلم بجميع اللغات ..؟ - وساق الحظ اليه زبونا مغفلا تقدم اليها وسألها :

هل تجيدين جميع اللغات .؟ أجابت : لاشك فى ذلك ..!
فاستخفه الطرب ، وتقدم صاحبها كل ما معه من مال -
وهناك فى قصره الكبير ، أقام لها حفل استقبال دعا اليه أصدقاءه من كل ناحية ولسان ،

وبعد تناول المرطبات قدم اليهم ، أو قدمهم الى ببغاء الشرف والكمال .. وأخذ كل منهم يخاطبها بلسانه . وهى لا تجيب بغير هذه العبارة - لاشك فى ذلك ..!

وأدرك صاحبنا هول الكارثة فلما انصرف الضيوف اقترب منها فى خطوات متهالكة ودار بينهما هذا الحوار : -

هو - اذن ، فأنت لا تعرفين شيئا .. ؟

هى - لاشك فى ذلك .

هو - واذن فانا مغفل مخدوع .؟

هى - لاشك فى ذلك !..

وحملها من فوره ، ومضى يبحث عن بائعها حتى اهتدى
اليه - وهناك اجلسها امامه وسألها : -

- ان بائعك هذا افاق وغشاش - اليس كذلك ؟..

اجابت - لاشك فى ذلك !.

قال - ويستحق الزجر والعقاب .. ؟ اجابت : لاشك
فى ذلك .

وقذف بها فى وجهه ، واسترد ثمنها ومضى ..

الست قصة هذه البغاء هى بالضبط قصة معاهدة «٣٦»
مع فارق هام .. هو ان مخدوع البغاء مسح الاهانة عن نفسه ،
واسترد حقه المنهوب ..

لقد رجع زعمائنا الينا ذات يوم يحملون معاهدة جعلوا منها
« ملكة جمال » المعاهدات !..

وفى غمرة الحفاوة بها ، وقبل ان يجف مدادها سألناها :-

- ايجوز ان يبيعنا الانجليز غداة توقيعك ذخيرة « كذابة » . ؟

اجابت : لاشك فى ذلك !

- ايليق ان يتخلوا عن التزاماتهم نحونا فى معركة
فلسطين ؟

اجابت - لاشك فى ذلك !.

- ايجوز ان يتقاضوا منائمن اسلحة .. ثم يحنثون بالعهد
ويبيعون السلاح لاسرائيل ؟

اجابت - لاشك فى ذلك !

- ايجوز ان يشيدوا فى بلادنا مدائن باذخة ، بعد ان كانوا

يسكنون قصرا متداعيا على ضفة النيل ...؟

أجاب : لاشك في ذلك .!

أيجوز أن يمحروا مياها حاملين البترول والمعدات
لإسرائيل التي لا تزال تتربص بنا ...؟

أجاب : لاشك في ذلك .!

— اذن ، فلست معاهدة شرف واستقلال .. ؟

أجاب : لاشك في ذلك .!

— واذن ، فنحن مغفلون مخدوعون ...؟

أجاب — لاشك في ذلك .!

ان كل معاهدة تعقد اليوم ، أو تبرم غدا مع بريطانيا لن تكون
أحسن حالا من سابقتها

وان الطريق الوحيد المفضى لعهد شريف أبى عزيز أن يجلو
عن بلادنا النفوذ السياسى والاحتلال العسكرى لبريطانيا .
ثم بعد ذلك نفكر بعقولنا ، ونريد لأنفسنا بأنفسنا .. أما معاهدة
يساوينا بها المستعمر على استقلالنا فأهون منها عدمها ..
وبقاء الاستعمار غير متلفع بأردية كاذبة خادعة من الاتفاقيات
والمعاهدات .

أيجوز بعد كل هذا أن نحالف الذين جعلونا سخريه وهزوا ؟

لقد خادع حلفاء الرسول حليفهم مرة واحدة ، فقطع الله
حبال هذا العهد فى سورة عاصفة أبى أن يبدأها بيسم الله الرحمن
الرحيم حتى تأخذ طابع القسوة والازدراء والهجوم فقال تعالى :-

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين »

ثم رسم الخطة لتنفيذ هذا الفسخ فقال :

— « خذوهم . واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد » . !
وانجلترا نفسها تأست بالقرآن في ظروف مشابهة .. مع أنها
كانت تمثل جانب البغى والعدوان .. فحين هب رشيد عالي
الكيلانى فى وجهها قالت : هذا خرق للمعاهدة . وبعد ساعات .
كانت السماء تمطر جنودا حاربوا العراق حربا خاطفة عسوفاً
ولقد كان الوضع الطبيعى ، وقد خرقوا ما بيننا من عهد أكثر
من مرة أن نصنع ما كانوا لابد صانعيه لو انهم مكانا — فنأخذهم
.. ونحصرهم .. ونقعد لهم كل مرصد وطريق .



قد يقال : ان بريطانيا اليوم غيرها فى الامس البعيد والقريب
— بريطانيا العمال — غير بريطانيا المحافظين ألا فلنستمع اذن لاية
فاصلة من انجليزى عريق تمر دعلى سياسة بلاده وحرص عليها
جميع البشر وكشف للناس عن « ثعبانيتها » وتأصل الغدر فيها
— ذلكم هو توماس بين

فلننصت لكلمته .. ولنحفظها ولنلقنها صغارنا والكبار ..

« هل تستطيع أن ترد الى المومس طهارتها الاولى ؟ ان
السياسة البريطانية كذلك — فقدت الى الابد شرف القصد ،
وطهارة الضمير » !!

ولكن قد يقتعنا الانجليز بأن « بين » كان رجلاً آبقاً عاقاً ..
فلندرس أخلاق سياستهم اذن على ضوء عبارة أخرى قالها
قطبهم الاكبر « دزرائيلى » واتخذوها مبدأ وشعاراً — تلك
هى : —

« اكذب ... واكذب ... ثم اكذب دائماً ، فلا بد ان تجد من
يصدقك » !!

ان الانجليز لا يصلح معهم عهد أبداً — الا اذا كان مع قوم

أولى بأس شديد يخافونهم ويرهبونهم ..

ونستطيع أن نفترض حسن نيتهم إذا عاهدناهم من جديد ،
وننسى طفاوتهم وفسادهم الكبير .. ولكن مع هذا أيضا لا يكون
من صالحنا قط أن نتخذهم حلفاء أو أصدقاء ..

لماذا .. ؟

لأن الانجليز تعودوا دائما أن يتخذوا من حليفهم « كبش
الفداء » ولقد ذاق الأمريكان أنفسهم مرارة هذه التجربة ،
وسربوا غيظهم أيام الحرب الأخيرة في سخریات .. فمثلا :

دخلت سيدة أمريكية المسرح ، فوجدت الجنود الانجليز يحتلون
جميع المقاعد الامامية ، فقالت :

— ان الانجليز فى المسارح يحتلون الصفوف الامامية —
ويتركون الخلفية لنا — ولكنهم فى الميدان يحتلون الصفوف
الخلفية ، ويتركون الامامية لابنائنا ! ..

هذا تعبير رائع ، وفهم دقيق لأخلاق الانجليز فالمعاهدات التى
تربط الضعيف بالقوى ستكون من باب أولى غير متكافئة ،
وستكون ثمرتها مشروعية الاحتلال وأحر بنا أن يحتلنا
الانجليز باكره ، من أن يحتلونا بمعاهدة ورضا واختيار .

شاهد من أهلها

ثم ان أى معاهدة جديدة تربطنا بالانجليز ، سيكون عصبها
الدفاع المشترك .. وهذا الدفاع المشترك .. كائنا ما كان اسمه
وطريقته — يقف فى الوجهة المغايرة للسيادة والاستقلال ..
ولسنا نحن الذين نقول ذلك — بل هو السيد « بيفن » نفسه
— والى زعمائنا الابرار .. تقدم هذه العبارات التى قد تنير
لهم الطريق .

فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ - وقف مستر بيفن يخطب فى
مادة الغرفة المصرية البريطانية فقال مخاطبا الاعضاء المصريين :
« .. ولكن يجب ان يبقى ما ندعوه بالدفاع المشترك . لانه
لا غنى لاحدنا عن الآخر - وان الاستقلال آت لا ريب فيه . ! »
اذن فالدفاع المشترك شىء آخر ينافى الاستقلال ولا يظهروه
وبيفن يريد منا سنة ١٩٤٥ ان نوافق على الدفاع المشترك .
ويطمئنا على ان الاستقلال آت فى ميقات مجهول . . قد يعلمه
« بيفن » ولكن المصريين آخر الذين يعلمون . . . والذين
لا يعلمون .. !

وبهذا المقدار من الحديث نرجو ان نكون قد وقفنا على مافى
الحالف مع الانجليز من غرم وبوار .

وستحدث عن وسائل الخلاص بعد ان نتم سرد بقية
القواعد التى يركز عليها نفوذ الاستعمار .

ب - الارجاف بالشيوعية والحرب

ان بريطانيا المومس - لن تسترد طهارتها الاولى - هذا اذا
كانت السياسة البريطانية قد اتى عليها حين من الطهر والنقاء ،
انظروا .. ان اسلوبها الاستعماري لم يتغير ..
والاحفاد من ساستها يسرون وراء الاجداد حذو النعل ..
بالنعل ..

فيوم دخلت بلادنا لأول مرة . زعمت انها آتية لتثبيت سلطة
الباب العالي ، وطرد الفرنسيين الطغاة ..

وكانت انجلترا يومئذ تتزعم حركة مقاومة عنيفة للثورة
الفرنسية .. ولما يمكن ان يترتب عليها من تغيرات اجتماعية
خطيرة ..

ويوم استولى هتلر على حكم بلاده . . وقف رئيس وزراء
بريطانيا آنئذ وقال : -

« يجب ان نعاون الالمان على النمو والتسلح حتى نشرد بهم من وراءنا من الروس الخطرين . »

وفي سنة ١٩٣٦ - بدأت انجلترا نفسها تتزعم مقاومة عاتية ضد النازية - وضحكت علينا يومها واختلست منا توقيعها على معاهدة فاشلة هي معاهدة « ١٩٣٦ »

واليوم لا خوف من ثورة فرنسية ، ولا خوف من النازية .
فيم تبرر انجلترا بقاءها . . ؟ بالشيوعية طبعاً . . !
فلتكن الشيوعية خطراً على بريطانيا كل الخطر . .
ولتكن بريطانيا موطدة العزم على محاربتها في عرينها الاول
روسيا . .

ليكن ذلك . .

ويبقى ان نتساءل : ما صلتنا نحن بهذه الفتنة ؟

ما لنا وبريطانيا تحارب او تحارب ، تظفر أو تهزم . . !

هل نحن احدى كتائب جيشها الثامن . . ؟

او نحن واياهم كما قال الشاعر العربي القديم :

أكلما حاربت خزاعة تدعو نى كائى لأهمهم جمل ؟

ان « الشيوعية » ضوء احمر تسلطه بريطانيا على عيون
الحاكمين لتزيح به ابصارهم عن الهدف المتمثل فى طردها ،
واجلائها

ما ذا كان يعنى بيفن حين قال اكثر من مرة - وفى مناسبات
عدة . . ان الشيوعية لن تسمح ببقاء الباشوات اذا دخلت مصر . ؟!

قالها مرة فى حديث صحفى . . وقالها لسفيرنا فى لندن ونشرتها
مجلة المصور ضمن الوثائق السرية التى اذاعتها عن محادثات
« عمرو - بيفن »

أليس ذلك ارجافاً وتخويفات هدف السياسة البريطانية بهما

الى فل ارادة الباشوات والحاكمين وعزلهم عن حركة المقاومة التى
يدخرها الشعب للانجليز . . . ؟

لكن الباشوات الذين عرض بهم يبن سيخلفون ظنونه . .
والذى يتخلى منهم عن جهاد امته لن يضرنا ولن نغير به -
لانه ساعثد لن يكون مصرىا .

الم يقل لنا « توماس بين » - ان المومس لا تسترد طهارتها
الاولى . . ؟

ان السياسة التى احتفرت وقبعة قديمة بين توفيق وعرابى،
وبين الباشوات والشعب . . تريد اليوم ان تلعب نفس الدور،
فتلقى فى روع الحكام والزعماء ان الشعب يترصد لهم لينهى
حيواتهم بفاجعة . . ويوهمون الشعب أن كبراءه ، وحكامه -
يعملون معهم ضده . .

ولن تقرر للمومس عين حتى تحقق اليوم نفس النتائج الاثيمة
والوخيمة التى حققتها بالامس .

وهذا يفتح أعيننا على نقطة الارتكاز الثالثة التى يعتمد عليها
نفوذ الاستعمار .

شحن بأسنا بيننا .

والسياسة البريطانية لكى تبقى وتسود ، تورى نار
البغضاء والفرقة ابراء موصولا . . وتذر شعبنا المسكين يبور فى
حديدها المفرغ ، وصخرها الاصم . .

وهى فى ذلك ذات براعة ومهارة . . ليست كالمغفل الاكبر
« موسولينى » الذى كان يقيم لرعاياه المتدمرين حرب « المقلع »!

بل هى تضن علينا حتى بثمان الرصاص الذى تفرغه فى صدورنا
. . وتتركنا نحن نشترى الرصاص بأموالنا - ثم تحرضنا،
فنطلقه لا فى دماغ الاستعمار فنفجره تفجيرا . . بل نمزق به
انفسنا ، ونهرق به دماءنا . .

وهي تعتمد في تأليب بعضنا على بعض على سلاح تناهى في
الخطورة هو - تشريد الثقة التي تربطنا ، وإشاعة روح الاتهام في
المجتمع .. ولقد أفضى سعيها الحثيث في هذا السبيل الى ما
نحن فيه اليوم من استرابة في كل اخلاص ، وتصديق لكل
شائعة واتهام .

لقد قلنا من قبل : ان لبريطانيا سفارة اخرى غير رسمية .
سفارة مجهولة تحيط بكل شيء علما .. وتملاً ضمير الامة شكاً
وريا ..

ومهمتها الاولى تشويه سمعة الزعماء والناصحين حتى لا يؤمن
بهم الشعب ..

وهذا نبأ قريب ، من آلاف الانباء التي تؤكد هذه الحقيقة
أعمق تأكيد .

- في اثناء الحرب الاخيرة ، اوفى بداءتها - وقف الاستاذ الاكبر
المبرور الشيخ « محمد مصطفى المراغى » وقال في خطاب احد
اعياد الهجرة :

« ان العالم الاسلامى لن يخوض حرباً لاناقة له فيها ولا جمل .. »
وفي صبيحة الامسية التي اذيع فيها هذا الخطاب - كانت
شعوب الشرق الاسلامى تردد - فيما نظن - هذه العبارة
المستنيرة ..

وأسرها الانجليز في انفسهم .. وأصدرت السفارة غير الرسمية
أوامرها الى « لجنة الاشاعات والتهم » ان تشكك الجماهير في
قيمة الشيخ المراغى ، وفي سلوكه .. وذات يوم ، وفي اعقاب صلاة
الجمعة ، اذا بالسماء تمطر سيلان المنشورات .. تزعم ان
الشيخ المراغى حضر ليلة « كذا » حفلة ساهرة بالسفارة الانجليزية
.. وانه شرب الخمر حتى فقد صوابه .. !

ان الانجليز لا يهدفون بمثل هذا التشهير الى هدم القيمة

الشخصية والشعبية ، للمواطن المخلص وحسب . . بل هم يستهدفون غاية ابعد ، وهدفاً خطراً . .

فهم يعلمون ان مجرى حياة الامة هو مزيج احساسها وتفكيرها - وتسميم هذا المجرى يتأتى بجعل الاتهام وسوء الظن بعض عناصر شعورنا وتفكيرنا - ليفسدوا علينا امرنا كله .

وهم قوم لا يعجزهم ان يفتاتوا ويكذبوا -

ان نبههم دزرائيلي علمهم أن يكذبوا - ويكذبوا دائماً . . فلا بد ان يجدوا من يصدقهم . .

ولقد وجدوا فعلاً من يصدقهم . .

وا أسفاه علينا . . !

ما اسرع ما نصدق ، وما اسرع ما نحاكى . . فنحن لم نصدق خرسهم فحسب . . بل ذهبنا نحاكيمهم في الارجاف ولتتمس بعضنا لبعض التهم والعيوب

كثيرون منا من أشبع بهذا السلوك النفسى روحه . . وصفا اليه قلبه . . وصار يعتمد في محاربة مخالفيه في الراى على هذا السلاح الموتور .

وان اقدامنا لتتعثر بهؤلاء الذين وقفت اخلاقهم عن النمو . . اذا جاءهم احد بما لا تهوى أنفسهم ، قالوا :

هذا صنيع جماعات تبشيرية - وطليعة حرب صليبية . . او مؤامرة شيوعية . . !

وقد تلتقى بهؤلاء المرجفين انفسهم يقولون في غباء مضحك : - ان الاسلام أخذ الشيوعية ، واخذ المسيحية ، وصنع منهما معاً نظاماً اسمه الاسلام . . ثم لا يتهمون انفسهم - طبعاً - بأنهم شيوعيون ، ولا صليبيون !

مساكين . . انهم ضحايا الاستعمار الذى افسد علينا انفسنا . . وشرّد ثقتنا بها ، وبالأخرين .

الخداع بالهيئات الدولية ..

ان الاستعمار يؤمن بعلم النفس ، ويعتمد عليه اعتمادا كبيرا .. وهو يعلم روح العصر الذى نعيش فيه .. هذا الروح الانقلابى المتحرر الذى لا يريد أن يرضخ لضيم ، ولا أن يسام كما تسام القطعان ..

لذلك اصطنع هيئات دولية تكون أداة تنفيس ، وتسرية ، ومماطلة ..

فلو لم يكن فى الدنيا آفة تسمى « مجلس الامن » لكانت مصر قد حلت قضيتها بسواعدها - يوم كانت تمور مورا عنيفا عقيب وضع الحرب أزارها ..

ولكننا اتجهنا الى مجلس الامن، وهيئة الامم .. وران علينا الركون .. وقامت فتن .. وأصبحنا اليوم فى شغل بأنفسنا عن عدونا - وهذا ما يريده الاستعمار ، وهيئاته الدولية ..! ماذا صنع لنا مجلس الامن ..؟

لقد أوصانا بالاناة ، والحلم ، وحسن الضيافة .. !

وماذا صنعت هيئة الامم ..؟

لقد استجابت لرغبة وزير خارجيتنا « صلاح الدين بك » وعظمت جلساتها يوم عيد الاضحى الماضى ، احتراما لنا ومجاملة كريمة منها .. !

هذه هى التضحية الوحيدة التى ضحت بها الهيئة من أجلنا . شكر الله لها ، ورعاها .. !

الا انه اذا أراد قادتنا وحكامنا أن يصيبنا جنون ، فليحدثونا عن قيمة هذه الهيئات ومناقبها كثيرا .

أما نحن ، فنريد لهم مزيدا من العقل والفهم .. لذلك لن نحدثهم عن مناقبها .. بل عن مساوئها ، وهم بها عالمون .

ان هذه الهيئات التى يخدعنا الاستعمار بها - ويتظاهر بالتفزع حين نلوح بالاختصاص اليها - هى « القابلة » التى استقبلت « اسرائيل » على كفيها الأثمين . وقالت لها كونى شوكة الجنب لهؤلاء العرب الصعاليك .. !!

هى التى وقف « النقراشى » تحت سقفها ، يقول ما لم يقله أحد قبله ، وما لن يقوله أحد بعده .. والاعضاء المحترمون يتشاءبون .. حتى اذا قام ممثل بريطانيا ليتكلم .. أصغوا اصغاء جميلا ، وصدقوا افكه - وتركوامصر لا تزال تعج فى قيودها الغلاظ - الثقال ! ..

وكل محاولة ، ولو فاجرة ، لدولة كبرى - تسارع هذه المنظمات الدولية لمناصرتها .

فاذا نوديت لغوث أمة ضعيفة مضطهدة ، فالهيئة نائمة .. ولعن الله من أيقظها ! ..

ان أحسن عبارة وصفت بها هذه المنظمات - تلك العبارة الجامعة لكاتب أمريكى نعتها بأنها « وكالة حكومات » ..

فلينكشف عن أبصارنا غطاء الوهم .. ولنوفر ما نسفكه فى تلك الهيئات من وقت ، وجهد

ولنأخذ الحكمة ، ولو من وايزمان .. الذى كتب لأمتيه يقول :

« ما من دولة فى العالم بنيت بوعد ، أو مرسوم .. انما يبنى الدول ، كفاح الشعوب عبر الاجيال .. »

لا مجلس الامن ، ولا هيئة الامم ، بقادرين على منحنا الحرية والاستقلال - الا اذا منحناهما نحن القدرة أولا .. من كفاحنا الحاد ، وصراعنا الرهيب .

د - الاحتلال العسكرى ..

وختام هذه المرتكزات التى يعتمد عليها - الاحتلال العسكرى

ان الانجليز متشبثون ببقاء جيشهم جائما فوق استقلالنا
وكرامتنا - لا خوفا من روسيا . ولكن خوفا منا نحن .. ان
تاريخهم الاسود معنا يفرعهم ، حريتنا كاملة ، فلن نختارهم
ويوحى اليهم أننا حين نملك حلفاء ، ولا أصدقاء ..

لقد قال الشعب رايه فيهم .. وهو لا يخرج عن رأى صاحبهم
« توماس بين » !

وقالت الحكومة رايها واضحا كفلق الصبح في مجلس الامن ..
قالت : (١)

« ان الانجليز فضوليون ، يعرقلون توثيق روابط الوحدة
بيننا ، ويعملون على هدمها .. ويخلقون الاقليات ويشجعونها ،
وييقون البلاد في حال من التأخر ، والشقاق ..

« .. أن العهد الذى بيننا وبينهم بمعاهدة « ٣٦ » ليس
سوى اثر من آثار القرصنة التى نجهد فى نسيانها .. ولم يبق فى
هذه المعاهدة الا ما يهدد السلام .

« .. ولا ريب أنكم ستكونون عوناً لنا على استئصال هذا
السرطان الذى ينتاب السلام فى وادى النيل .. »

بعد ابدائنا هذه الآراء فيهم - حكومة وشعبا - فقدوا كل أمل
فى مودتنا - واعتقدوا أننا سنختار أصدقاءنا من غيرهم ، وربما من
أعدائهم .. لهذا قرروا الاحتفاظ بجيشهم المسلح لينالوا ما ربهم منا
كرها ، واقتسارا ..

ان بريطانيا تضرر لنا زراية أكيدة ، واحتقارا كبيرا .. بل هى
لا تضرر ذلك .. وانما تنادى به وتصيح . وشاهدنا على ذلك
مستر اتلى نفسه ...

(١) من خطاب النقراشى باشا بمجلس الامن

لقد وقف خطيبا في المؤتمر السنوى لنقابات العمال البريطانيين
يوم ٩-٥-١٩٥٠ فقال بالحرف الواحد : - (١)

* *

« .. لقد قابلنا العدو ان الشيوعى فى الطريق حين تركنا
الهند ، والباكستان ، وسيلان - تتمتع بكامل حريتها وسيادتها!!

أرايتم يا زعماء مصر .. ؟

أسمعت يا شعب مصر .. ؟

بل أسمعتم يا ضحايا الاستعمار ، فى العراق وفى الشام ؟
لو كنا مصدر اخافة وخطر .. لتركنا بريطانيا نتمتع بحريتنا ،
وسيادتنا .. ولو أن بريطانيا ترجو لنا وقارا - مثل الوقار
الذى ترجوه للهند وجاراتها .. لتغير تاريخنا .. أو على الأقل ،
لم تكن سنجد ذلك الضابط البريطانى الذى يطرد من أمامه
ضابطا مصرية دخل عليه مكتبه فى « فايد » قائلا :

أخرج .. أنت هنا فى أرض انجليزية .. !

هذه - مجتمعة - هى الاستعمار ..

١ - المعاهدات ..

ب - التخويف بالشيوعية والحرب ..

ج - اغراء بعضنا ببعض ..

د - الخداع بالهيئات الدولية ..

هـ - الاحتلال العسكرى

والآن .. أين الطريق .. طريق الحرية والخلاص .. ؟

هذا هو الطريق ..

فى تقيض الوسائل التى يتوسل بها الاستعمار لدعم نفوذه - تتمثل

وسائل تحريرنا وظفرنا - فاذا كانت أولى وسائله ، المعاهدات .
فليكن نهجنا .. لا معاهدة !

اننا مع بريطانيا في مفاوضات منذ عام ١٩٢١ ولم نل منها سوى
تمزيق صفوفنا ، وتحطيم مقاومتنا .

وتاريخ بريطانيا معنا ، ومع سوانا - لا يشجع أبدا على التفاؤل
بمستقبل أخلاقها السياسية .. ستظل كما هي تتوسل بكل موبقة
لمنافعها الخاصة ، وأغراضها الاستعمارية ..

وما من زعيم مصرى ، الا وصرخ بهذه الحقيقة وهو خارج الحكم .
ونحن نهتم جدا بأراء زعمائنا خارج الحكم لانها غالبا لا تكون
ثمرة حرص ولا غرض ..

في يوم ٣١-٧-١٩٤٨ - صرح عزام باشا لجريدة المصرى هذا
التصريح :-

« ان موقف انجلترا معنا في هذه الحرب - يعنى حرب فلسطين
- دليل واضح على أن معاهداتنا معها لا قيمة لها ، الا حيث تكون
المصلحة الانجليزية .. ولا يمكن لعاقل بعد هذه التجربة أن يرضى
بحلف مع بريطانيا كل نتائج بالنسبة لنا أن تمتنع في أيام
شدتنا عن الوفاء بما فيه من التزامات »

هذا كلام رجل مسئول ، نختاره من دون الرجال والزعماء ،
لأنه شخصية محايدة - ويحتل مركزا محايدا - وهو لهذا أبعد
من غيره عن مواطن الريبة في أحاديثه السياسية - على الأقل .
ولنكن واقعيين ، فنسال :

من اذن نحالف .. غير بريطانيا ؟

هل نحالف أمريكا مثلا .. ؟

كلا .. ان أمريكا شريكة الاستعمار البريطانى في كل جريمة
منذ غادرت عزلتها .. وانطلقت في شره واستكلاب نحو السيطرة
السياسية على العالم ، وعلى البترول ..

ولقد جاهر أيضا بهذه الحقيقة سفيرنا بوشنطن في حديث مسهب
طويل ..

وكتب مراسل من امريكا صور وجهة نظر وزارة الخارجية
الامريكية في قضية مصر بالذات ، فاسمعوا ماذا يقول :-

« ان وزارة الخارجية الامريكية ترى أن جلاء القوات البريطانية
عن مصر ، لا بد أن يعقبه اشر المصّر في الكتلة الغريبة للدفاع
عن البحر الابيض المتوسط ، ومناطق الشرق الاوسط ،
وافريقيا .. وهذا يتطلب بطبيعة الحال مد برنامج الرئيس ترومان
ومد مصر بالاسلحة .. ثم ضمها الى ميثاق الاطلنطى خاصة
اذا ضمت تركيا اليه ..

«ولكن وزارة الخارجية الامريكية تشعر بان الوقت لم
يحن بعد لان تقف مصر كتركيا على قدم المساواة مع الدول
الكبرى في الدفاع عن الشرق الاوسط !..

«والسياسة الامريكية التي تخضع الى حد كبير للنفوذ
الصهيونى ، لن تسمح بهذا لانه يؤدى الى الاضرار بمركز
اسرائيل .. !

«وبالرغم من ان مصر دولة مستقلة ، فان وزارة الخارجية
الامريكية لاتزال تعتبرها منطقة نفوذ بريطانية - وهى
لاتنظر اليها نظرتها الى تركيا والباكستان ، كدولة ذات
شخصية دولية مستقلة .. !!

فليحفظ المصريون هذه الحقائق - كما يحفظون السورة
من القرآن .. أو الآية من الانجيل ..

● ان السياستين الامريكية والبريطانية شئ واحد فيما
يتصل بقضيتنا .

● الاتفاق تام بين الدولتين على عدم تسليحنا خوفا من أن
نستعمل السلاح ضد اسرائيل .. وليدهم الناشئ المدلل ..

● والاتفاق تام كذلك بينهما على أن تظل مصر دولة صغرى
.. ومنطقة النفوذ البريطانى ، يطلق فيها يده كما يشاء ..!
والدليل على هذا أن امريكانفسها تقدمت للمسئولين فى مصر
بنصيحة فحواها - أن نحل مشاكلنا مع بريطانيا عن طريق
المفاوضة ..

من اذن نحالف غير بريطانيا وامريكا ..؟
واجيب - فلنحالف أنفسنا .. ولن نجسد أحدا سوانا
يستطيع أن يدرا عنا الاعاصير . وصدق المتنبى :

خليك أنت ، لا من قلت خلى
وان كثو التجمـل والكلام
واذا كان الحيات اليوم قد أصبح منوطا بمؤثرات خارجة
من ارادة الامم التى ترغبه وتريده ..

واذا كان لاغنى لنا عن حليف فلنعمل بنصيحة عبد الرحمن
عزام باشا التى سلفت .. ولنستمع لصوت مصرى مسئول
آخر - هو الاستاذ حسن سليم بك - رئيس مكتب الاستعلامات
المصرى بـنيويورك :

لقد وقف فى النادى الدولى للطلبة بجامعة « كولومبيا »
وقال :

« ان روسيا لم تهاجم مصر قط .. اما انجلترا وفرنسا
فقد هاجمت كلتاهما مصر أكثر من مرة .. »
كلمة واحدة ، فاسمعوها ..

اما ان نحالف أنفسنا ، ونمنح صداقتنا ، وسلامنا لكل من
يريدهما .. واما اذا لم يكن من الحليف بد ، فلنحالف روسيا ..
روسيا .. ؟!

نعم .. روسيا .. وهل بدارة بالناس من عار ..؟

نحالف روسيا الدولة .. لا الشيوعية .. المذهب ..
لقد حالفها امريكا - ولا تزال ملاذ الرأسمالية ..
وحالفها بريطانيا ، ولم تصر شيوعية ..

ومنذ اربعة أعوام تقريبا حاولت امريكا ان تعقد خلسة
اتفاقا مع روسيا دون أن تعلم بريطانيا وفرنسا .. لولا أن أعلن
مولوتوف ذلك في اذاعة له فضحت الدولة المحترمة جدا ..
امريكا ! ..

ان دولتي «المحور» بريطانيا وامريكا - لا تساعدنا ، ولا
تدعان الغير يساعدنا ..

لقد حرمونا من السلاح .. بينما أبدت روسيا استعدادها
لتزويدنا بالسلاح الذي نريد .. ولكن « المحور الاستعماري »
هدد حكوماتنا ، وحذرنا .. فالى متى سنظل نجبن ، ونخاف ؟
لقد وافقت بريطانيا بعد طول تذلل ورجاء أن تورد لنا بعض
الاسلحة في عام ١٩٥٦ ..
أندرون - لماذا .. ؟

لكي تكون اسرائيل قد بلغت من القوة والتمكن ما يجعلنا نحجم
عن استعمال السلاح ضدها .. !
هؤلاء هم الحلفاء الشرفاء .. !!

وفي نفس الوقت عرض وزير روسيا المفوض باسم حكومته
على حكومتنا استعداد روسيا لتزويدنا بكل ما نحتاجه من
طائرات ، واسلحة ثقيلة وخفيفة - على أن تسلمها لنا من فورها
.. ليس ذلك فقط .. بل وأبدت استعدادها لتسليمنا
ما يلزمنا من آلات الصناعة والزراعة الحديثة ..
فماذا كان جواب حكومتنا .. ؟

تجيبنا على ذلك صحيفة تنطق باسم الحكومة فتقول :

« والمفهوم أن ولاية الامور قد تلقوا هذه العروض بالشكر » !!

كونوا انجليزا ..

لماذا تصر بريطانيا على أن تربطنا بعجلتها هي وامريكا ؟
لماذا تريدان أن تسخرانا لمحاربة روسيا .. ؟

أليس يرضى بريطانيا أن نكون بريطانيين .. وان نتخلق
بأخلاقها الطاهرة الفاضلة .. ؟!

سنصنع ذلك . !

واذن فاسمعوا .

عند مائتات بلغاريا على تركيا سنة ١٨٧٥ - طلبت روسيا ،
والمانيا ، والنمسا الى انجلترا ان توقع مذكرة احتجاج قاسية
على تركيا .. فرفض رئيس وزراء بريطانيا آنذ وهو ...
« دزرايلى » وقال :-

« كيف تساعد انجلترا فى القضاء على دولة لها صالح فى
بقائها .. ؟ »

« وكيف تتعاون مع بسمارك الصديق الذى لا يعتمد عليه ؟ »
رضى الله عن دزرايلى هذا .. وسنردد اليوم نفس كلمته ،
ونقف نفس موقفه .. ونقول :-

كيف تساعد مصر فى القضاء على دولة لها صالح فى بقائها ..
وهى روسيا .. ؟ -

وكيف نتعاون مع بريطانيا .. الصديق الذى لا يعتمد عليه .. ؟!
هذا اذا تسامحنا ، وافترضنا بريطانيا صديقا ..

واذا ماسئلت : كيف يكون لمصر صالح فى بقاء روسيا سليمة
قوية .. ؟

اجيب : سلوا مستر « اتلى » فهو الذى يقول ذلك - لاانا ..
واذا كنتم قد نسيتم .. ، فأعيدوا تلاوة كلمته التى مرت
بنا من قبل ، والتى قال فيها:

«لقد قابلنا الشيوعية فى الطريق . حين تركنا الهند
والباكستان وسيلان تتمتع بكامل حريتها وسيادتها »
اذن لولا خوف بريطانيا من روسيا ، مامنحت هذه الامم
استقلالها ..

ويوم يتابها نفس الحذر من جهتنا ، فلن تتردد قط فى أن
تسلم لنا بحقوقنا كافة ..

ان بريطانيا تتدلل علينا ، وتستهتر بنا - لانها على يقين
بأن سادتنا لن يمدوا أيديهم البضة المترفة الى روسيا ابدا
ووالله لو أحست أدنى احساس بأننا سنفعل لتكونن أسبق الى
ماتريد منا أنفسنا ..!

فلنحالف روسيا دون أن نكون شيوعيين - ان ذلك ممكن جدا
بدليل ما قلناه من ان بريطانيا وأمريكا حالفتاها دون أن تصيرا
شيوعيتين .

انه فى الوقت الذى تصرح فيه امريكا بأن مصر منطقة نفوذ
بريطانية .. يعلن وزير خارجية روسيا فى حديثه لجريدة المصرى
فى ٢٧ / ١١ / ١٩٥٠ ما يأتى :

«لقد سبق أن قلنا ورددنا على مسامع الزعماء المصريين
ان الاتحاد السوفييتى سىظل دائما فى جانب الشعب المصرى
فى نضاله ضد الاستعمار البريطانى ، وعند ما عرضت
المشكلة المصرية على هيئة الامم المتحدة منذ أربع سنوات -
دافع الاتحاد السوفييتى عن حقوق هذه البلاد التى أصيبت
فى كرامتها بوجود القوات الاجنبية فى أرضها - وفى كل عمل
تريد ان تقوم به الحكومة المصرية والشعب المصرى للتخلص

من القوات البريطانية سيجدان الاتحاد السوفيتى دائما الى
جانبهما ..

« ان مكافحة الاستعمار لاتحدد فى نظرنا ، ضمن نطاق
بلد أو بلدين ، بل اننا نرى وجوبها فى كل بقعة من بقاع العالم »
« ان الحقوق الشرعية ، والمطالب الطبيعية للشعب المصرى
يجب أن يعترف بها ، وان تتحقق .. »

فهل بعد المقارنة بين هذين الموقفين .. موقف بريطانيا
وامريكا من جانب .. وموقف روسيا من جانب آخر نتردد
فى اختيار حليفنا ، اذا كان لابدلنا من حليف ؟

الاشتراكية .. والسلام .. !

واذا كان المركز الثانى للاستعمار فى بلادنا هو تخويفنا
بالشيوعية ، وبالحرب .. فليكن موقفنا من الشيوعية أن نسبها
بالاشتراكية .. ونطبق من نظمها ما يسمح به تطورنا
وامكانياتنا ..

ثم لماذا نخاف الشيوعية ؟

لقد أعلن «ستالين» ، وأعلن أيضا «فيشنسكى» أن الشيوعية
والرأسمالية تستطيعان أن تعيشا بلا حرب ولا خصام ..

ولكن الانجليز يخوفوننا بالشيوعية لترتمى فى أحضانهم ،
بل ويصنعون لانفسهم حركة معينة موسومة بالشيوعية
لينفذوا عن طريقها اغراضهم الاستعمارية الخبيثة .. !

واذا خوفونا بالحرب ، فليكن موقفنا السلام ...

انه يوم يقر فى ذهن السياسة البريطانية اننا لن نحارب معها
ولا فى سبيلها .. واننا لن نسمح لبريطانيا ولا لامريكا ولا
لروسيا - أن تكون بلادنا ميدانا لجيوشها .. وحقلا لتجربة

أسلحتها ، فان بريطانيا ستفكر في مسألتنا تفكيرا سيديدا .
فلنردد كلمة المراهى من جديد لن نخوض حربا لاناقة لنا فيها
ولا جمل ..

ولنعلن من اليوم أننا «سلاميون» نريد السلام ، ونقف
بجانبه ..

ولكن - اى سلام نريد .. ؟

لقد صار السلام فى عالم اليوم صنوفا وألوانا ..

اننا نريد السلام الذى ثمره مصالحنا الخاصة ، وتكيفه
ظروفنا الخاصة دون أن نتأثر فى هذا بأية مؤثرات أجنبية
أخرى .. وبعد ذلك لن يضرنا أبدا ان نـ تـاصر السلام ،
وتشبت به ..

لقد وقف رئيس جمهورية فرنسا يخطب فى مؤتمر نقابة
المحامين الفرنسيين يوما فقال :-

« لقد عرفت فرنسا الاحتلال الاجنبى ، وذاقت مرارة الاعتداء
ولذلك فشعبنا سوف يدافع عن استقلاله الوطنى بكل شجاعة -
الا اننا لانريد ان نخاطر بكياننا بمخاطرة جنونية .. ولذلك نريد
السلام لان السلام العالمى شرط أساسى للاستقلال الوطنى . . »

واذا كان الشعب البريطانى قد وجد من الحرية ما يجعله
يصرخ يوما فى وجه وزير حربيه لا حرب من أجل الدولار . . .
فاننا نمنح أنفسنا من الحرية ما نصرخ به فى وجه المستعمرين
« لا حرب من أجل الدولار ، ولا من أجل الاستعمار ..

وخطب السنيور (جونلر) وزير المعارف الايطالية ، وعضو الحزب
الديمقراطى المسيحى فقال :-

« ان السياسة الخارجية للوزارة الايطالية قائمة على مبدأ

دستورى هو - اننا ضد الحرب .. وضد أى عدوان على ارض الوطن .. »

ان الاستعمار يعمل فى كل مكان لاعداد ضحاياه للحرب وان خبراء الحرب من رجاله ليجوبون البلاد لينشئوا القواعد والمسكرات .. وبكل تبجح ووقاحة يتصرفون فى أخص شئوننا كما لو كنا أحدشوارع لندن ، أوباريس ، أووشنطن ! ولقد بلغت الجراة بالمقيم الفرنسى أن قال :

« اذا قامت حرب عالمية أخرى .. فسأركض الارض برجلي ، فينبثق منها جيش جرار من المغاربة » ..!!

وأجابه الامير عبد الكريم الخطابى بمنشور لافح خاطب فيه بنى وطنه قائلا :

« ان عقيدتكم ، وعزتكم ، ووطنيتكم لتحتم عليكم ان ترفضوا دعوة الفرنسيين الى التطوع فى جيوشهم . لانهم يدفعون بكم الى التضحية فى سبيل المحافظة على امبراطوريتهم المتداعية .. »
« ان ساعة تحريركم من ظلم المستعمر قد دقت .. فلا تؤخروها بانضمامكم الى جيوشه »!

مؤامرة على مقدساتنا ..

وبلغت الجراة بأمريكا أن تجعل من « الظهران » قاعدة حربية لضرب روسيا بالقنابل الذرية ...
وما الظهران هذه ... ؟

انها ارض بالحجاز بينها وبين المسجد الحرام ، ومسجد الرسول مثل لمح البصر بالطائرة أو هو أقرب ...
ترى هل ستظل روسيا ساكنة ساجية ازاء هذه القاعدة الحربية التى ستنقذ منها حاملات الموت والدمار .. ؟
كلا .. وعندئذ ستحاول لامحالة ضربها ، وضرب ما حولها

.. والذي حولها - يا أربعمائة مليون مسلم - هو مسجد رسولكم ، وبيت الله العتيق .. !

لماذا لم تتخذ أمريكا من الفاتيكان قاعدة حربية .. ؟

لأنها تخاف عليه ، وتقدهه .. وتغار على ساحة القديس بطرس أن تسمى مقبرة ضخمة لما هناك من مقدسات .. !

لقد نشرت صحفنا كلها خبر اختيار أمريكا للظهران قاعدة حربية بحروف بارزة صارخة .. ومع هذا لم يتحرك أولئك الذين استطار بهم الذعر يوم همت بعض أعمدة المسجد النبوي أن تنقض وتتداعى .. !

ترى هل المسألة من السهولة واليسر الى الحد الذي لا يستجيشهم ، ويثير غيرتهم .. ؟!

انها مؤامرة خطيرة جدا تدبرها أمريكا يا سادتنا المؤمنين ..

فنحن لانضمن ، وفي ضباطها يهود كثيرون - أن يضرب أحدهم في غمرة الحرب مقدساتنا من الجو ، فينسفها ويذروها .. بل لا نضمن أن تصنع أمريكا نفسها ذلك لتصطاد عصفورين بحجر .. فتدمر هذه المقدسات أولا .. وتذيع أن روسيا هي التي اقترفت الجريمة ، لتنتفع بحقدنا عليها ثانيا .. !

ان هذه الخطة الوقحة ، التي اختطها الاستعمار الامريكى ، لتفتح ابصارنا على حقيقة مستيقنة - هي أن أى تمكين دبلوماسى او تجارى لدول المحور الاستعمارى فى بلد يفضى بها الى كارثة ...

لقد دخلت أمريكا الحجاز تاجرة ... تستخرج البترول وتبتاعه ... وبعد عشية وضحاها أصبحت مستعمرة .. مستعمرة بكل معانى الكلمة .. وانشأت دون اكتراث العالم الاسلامى كله قواعد حربية فى ارض يجب أن تظل محايدة نائية عن كل قتال وعراك ..

لترجع أمريكا عن غيها ، ولتفادر الأرض المقدسة التي
دنستها .. والتي تريد بهامزيها من الدنس والدمار ...

ولتخرج انجلترا من بلادنا اذا كانت تخاف علينا من الشيوعية ،
فاستعمارها اكبر محرض عليها ، وداع اليها ..
واذا كانت تحتلنا بدافع الحرب .. فلتعلم اننا - حكومة
وشعبا - قد آثرنا السلام ، وقررنا الا نكون الحنطة التي
تدور عليها طاحونة الاستعمار.

ليثق بعضنا ببعض

واذا كان الاستعمار البريطاني يتوسل ايضا لبقائه بتبديد ثقة
كل منا بمواطنيه .. ويرسل الاشاعات الكاذبة ليفسد بها
ضمائنا فلنضع نحن أصابعنا في آذاننا ..
وليس ثمت واجب يتجلى فيه الالتزام الفردي ، كهذا
الواجب .

فلاتصدقوا اشاعة ولا اتهاما .. ولا تروجوا لاشاعة ، ولا
اتهام ..

لقد سأل الرسول عليه السلام رجلا يتهم آخر فقال :
« اترى هذه الشمس ؟ .. »

قال : نعم ..

قال الرسول : على مثلها فاشهد ، أو دع ..
وكان يقول :

« لا تبلغوني عن اصحابي شيئا ، فاني احب ان اخبر
اليهم منشرح الصدر .

وأخبر ان أبغض الناس اليه، وشرهم مكانا عند الله ..
الملتسمون للأبرياء العيب .

اذا جاء من يتهم مواطننا لك .. فأعرض عنه ، واذكر دائما

— ان السفارة البريطانية غير الرسمية . تعمل ليلا ونهارها لهذا الغرض الدنيء ، فافسد عليها امرها ومسعاها .
ان زعماءنا — مهما نشد في تقدمهم — ليسوا شرا خالصا .
وانما هم على اسوأ الظنون والفروض ، قوم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا . فلننتفع بما فيهم من خير ، ولنعاونهم على التخلص مما بهم من سوء .

* *

نحن .. وحدنا .

واذا كان الاستعمار يلهينا بالمنظمات الدولية ، فلنكن ايقاظا .. ولنعتمد على انفسنا وحدها . ولنجعل صلتنا بتلك المنظمات صلة شكلية نبرز بها شخصيتنا الدولية فقط .. اما حقوقنا ومطالبنا فلنسلك اليها الطريق وحدنا .. وهذا يفضي بنا الى النقطة الاخيرة وهى :

* *

الاحتلال المسلح .

فى سنة ١٨٧٥ . قال دزرائيلى: ان روح انجلترا هى الحرب — مادام ذلك دفاعا عن كيانها ..

وفى سنة ١٩٤٢ — قال تشرشل: اذا خیرنا أعداؤنا بين الحرب أو العار ، فسنختار الحرب .. وسنقاتل على الشواطىء ، ونقاتل على المهابط ، ونقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وفى الجبال ... سنقاتل من أجل حريتنا .. ولن نستسلم أبدا .»

وبعد ان وضعت الحرب الاخيرة أوزارها ، وفشلت المفاوضات الدائرة بين هولاندا واندونيسيا — اذاع « احمد سوكارنو » رئيس جمهورية أندونيسيا هذا الامر على الشعب !

— عندما تدق الساعة الرابعة من صباح الغد . ستكون اندونيسيا جميعها — الحكومة والجيش والشعب — فى حرب فعلية مع

هولاندا الفاصبة .. وسنقاتل بكل الاسلحة .. بالمدافع ..
والبنادق .. والخناجر .. والهراوات .. والعقارب ..
والثعابين .. ولينصر الله الوطن .

**

في هذه الكلمات الثلاث - يامصر - تتمثل الوسيلة الواحدة
لاجلاء البريطانيين الفزاة .. وكل طريق أخرى لن تفضى الا
الى مذلة ودمار .

واذا كانت الحكومة المصرية قد عاونت الثوار سنة ١٩١٩
فان واجبها في سنة ١٩٥٠ أن تقود بنفسها الثورة المشروعة
ضد الاحتلال الرجيم متأسية بمبادئ انجلترا نفسها - التي
وضعها دزرائيلي ، وتشرشل .

نعم - اذا خيرتنا انجلترا بين الحرب والعار .. وجب أن
نختار الحرب فورا

ولقد خيرتنا فعلا .. وبقي أن نختار .. فلنذكر جيدا -
أن الحياة لا تستحق أن نشترىها بالعبودية والرق ..
وان البريطانيين لن يغادروا بلادنا طوعا .. بل كرها ، وهم
صاغرون .

اذا لم نطرد الاستعمار

الى هنا نكون قد اجملنا الحديث في وسائل تمصير مصر،
وتخليصها ..

بقي أن نذكر - انه ليس حب الاستقلال وحده هو الذي يحتم
علينا هذا التمصير .. بل يحتمه قبل ذلك حب البقاء ..

ان الحوادث تمر بنا بسرعة، وهي تجلجل كدقات ناقوس
هائل - بأننا اذا لم نشئت شمل الاستعمار، فسيشتت الاستعمار
شملنا .. انه يهيء لحرب أهلية تقوم في مصر ليدفن تحت
أنقاضها مصيرنا .

لابد من الصراحة ، فاسمعوا ..

لقد بث الاستعمار الغامه في حياتنا كلها ، وأعدّها للتفجير .
ولقد خلق «الفتنة الكبرى» بين هيئة كبيرة وحزب كبير ..
ولعب لعبته من وراء وراء .. وحقق للأسف - دون أن يظهر
على المسرح - كل ما يشتهى ويريد .. وأفلح بهذا في أن
ملأ بحوافز الثأر ، ودواعى الانتقام - نفوسا كانت مفعمة
بحوافز الانقضاء على الاستعمار ، ودولته ، وجيوشه ! ..

ومن ناحية أخرى - خلق نشاطا شيوعيا انجليزيا -
وأقنع الحاكمين بأن العاصفة فوق رؤوسهم ، فمضوا يندكسون
بمواطنيهم .. وملئت نفوس أخرى بالحقد . لاعلى الانجليز .
بل على مصريين مثلنا ! وصار الشعب يلعن حكوماته والحكومات
تتعقب الشعب .. والمفسد الأكبر - ذلك الاستعمار البغيض
- رابض يقهقه في نشوة وجدل !

* *

فإذا كنا حريصين على وحدتنا ، وبقائنا - فلنرفع تجاه القلوب
المتناحرة ، والوجوه المتنافرة أملها القديم - يوم أن كانت
جميعا .. ولم تكن شتى .. أملها في الظفر بالاستعمار وطرده
واقصائه .

وإذا لم نفعل ، فستنطلق الاحقاد المكظومة ، والترات
المولولة فتمزقنا شر ممزق .. وعندئذ تذرع جيوش الاحتلال
شوارع القاهرة مرة أخرى . وتدوس الأشلاء المهينة .. أشلاء
الذين واتتهم الفرصة غير مرة ليتحرروا .. فأبوا .. وضلوا
ضلالا بعيدا .

يا ليت قومي يعلمون ! ..

إذا لم نلاق الاستعمار في ملحمة عاجلة ، فسنلاقي أنفسنا
.. حيث يفنى بأسنا بيننا ، ويضرب بعضنا رقاب بعض .
ولو وجد فينا اليوم رجل رشيد ، فلن تكون رسالته سوى

أن يركمنا جميعا فى قذيفة واحدة يقذف بها الاستعمار
البريطانى فريديه ، ويحيينا ..

* *

اتخافون انجلترا يارجال ٤٠

اذن ، فاقراءوا - وهذا خير ما نختم به الحديث - نداء
الانجليزى العظيم «توماس بين» الى الامريكان يوم وقف يحرضهم
على قتال بريطانيا فى حرب الاستقلال .

«سلونى عن الانجليز ، فانا اعرف بهم منكم .. انهم لن
يخرجوا من بلادكم الا كرها .. ولن يغادروها الا مقهورين .
فلا تجبنوا عن لقاءهم ..

» ليس على وجه الارض انسان يمكن أن يكون جبانا -
المسألة كلها موازنة .. اما أن الخير فى الاقتحام ، أو الخير
فى الهرب .. وليس العيب عيبكم .

» انكم توشكون ان تجعلوا أقوى دولة فى العالم تجثو على
ركبتيها ، ولذلك فأنتم ترتعدون

» أيها الأخوة ..

» ثقوا بالنصر ..

» اجعلوا أيديكم تدافع عن اسلحتكم ، وليس العكس ..

» غطوا وجه الارض بأساطيركم

» اغنوا ، واستبسلا ..

» وأحبوا ، وقتلوا ..

» دعوا زوجاتكم ، وأولادكم يفرحوا بموتكم شجعانا ..

» فكروا فى النصر وحده ..

وبعد..

« ان الحوادث لا تفسرنا .. ولكن الذي
يفسرنا بحق ، هو تقديرنا لها .. وهنا
التقدير متروك لنا وحدنا ... »

مونتان

الى هنا تنتهى فصول الكتاب ويبدأ ختامه .. ولقد حاولنا
جهد هذا البحث المقتصد الموجز - أن ننفض عن أمتنا طغاوة
البغى، ورهج الانكسار، ونعاونها في فض قيودها وأغلالها
وإذا كان الله لا يساعد إلا الذين يساعدون أنفسهم ، فمما
لا ريب فيه اذن أن أمرنا متروكة اليها .. وأن مصايرنا قد
وضعت بين أيدينا . وهذه حقيقة يجب أن تملأ وعينا . ان
الشعوب التي كانت تبيع نفسها فتوبقها، قد ضجت في قيودها ..
وهي اليوم غادية لتبتاع نفسها وتعتقها ..
أترانا من هذه الشعوب الميممة وجهها شطر التحرر والانتعاق؟
إذا لم نكن منها - فيجب أن نكون .

وعلينا أن نبذل من أنفسنا طيب البذل لنبلغ ما نريد
ونحن مصرون على أن يعود الضمير « نا » الى الشعب ،
والحكومة معا .. ان الاثنين مجندان اليوم لنضال شاق نبيل
يحرر مصر من أعدائها - ومن نفسها .. وقد يرى بعض
المواطنين أن استنجادنا بالحكومة وتشبثنا بمزاملتها للامة في
الكفاح . نتيجة عدم الثقة ، أو ضعفها بالشعب . وهذا خرس
يحتاج الى الفطنة وحسن التقدير فنحن لانسى أن حركات التحرير
لم ترفع ألويتها قط الا على اكتاف الحفاة العراة الكادحين .. ولكننا
لا ننسى أيضا أن سواس الامم اليوم غير سواسها بالامس ،
وانهم مهمما يحاولوا تجاهل الشعوب وحقوقها ، فانهم
يخشون بأسها ، ويحذرون انتفاضها .. ويحاولون جهد
وعيمهم أن يقابلوها في الطريق . فلماذا لا نتيح لهم هذا اللقاء - ؟
ولبلادنا بالذات وضع يحتم علينا أن نعمل معا - حكومة
وشعبا - فنحن متفقون على أن محاولات النهوض جميعها مكتوب
لها البواء بالفشل ، ما دام ذلك السرطان الوقح يجوس خلالنا ،
ويبعث في بلادنا .. .

ومن سوى الاستعمار البريطاني نغنيه بالسرطان .. ؟!
ونحن متفقون أيضا على ان عصر الخيانات قد تولى وتقوض
.. واستيقظ في الشعب وجدان تائر مستريب يقظان . لا يزدرد

الخيانة في سر ، ولا يتجرع الافك في صمت ..

ومتفقون مرة ثالثة على ان ضعف شعب من الشعوب لم يعد مبررا لاستغلاله وهوانه . فالشعوب كلها تتآخى اليوم تآخيا واعيا وهادفا . ولا يسمح شعب حر ان تطوق حكومته شعبا آخر بالسلاسل والاصفاد .

من كان يظن - ان يقف في فرنسا رجل من بينها ، هو «موريس توريز» وتقف من ورائه صفوف الجماهير التي لا تنتهى عند مد البصر . فيعارض والجماهير معه - ارسال جيش فرنسي الى الهند الصينية لمحاربتها ، واخضاعها للاستعمار الفرنسي الطائش . ويقول قولته الحرة :

« لن يحارب ابناؤنا واخوتنا من اجل استعمار غريبا .. دعوا الهند الصينية تتحرر .. انهم بشر مثلنا » .. !

بل من كان يظن ، عندما تمادت الحكومة الفرنسية في استهتارها .. وطفقت تعد حملة عسكرية لتأديب تلك البلاد - ان يدعو « توريز » هذا جهارا علنا ، الى عرقله المجهود الحربى الظالم الذى تكتله حكومته ضد الهند الصينية .. ثم يساهم ، ومعه نجل رئيس الجمهورية الفرنسية مساهمة عملية في تعويق الحملة ، وعرقلتها .. ؟

علام تدل هذه الظاهرة الخطيرة في تاريخ الحرية ..

انها انبثاقات ضمير جديد يتكون حيثما في البشرية الجديدة .. البشرية التى تريد ان تسوى في التقدير والاحترام بين سائس الخيل ، وحامل الصولجان .. وبين اضعف الشعوب ، واقواها .. البشرية التى قررت ان تضع حكوماتها في خدمة مبادئها .. لا ان تسخر مبادئها لاغراض حكوماتها .. البشرية التى وقفت على سرظفر الذئب بها .. وهو انها كانت تسير في موكب الحياة متصدعة متشتتة .. قد شطت نواها .. وانشقت عصاها - تظفر الذئب منها بكل مستفردة قاصية .. فتعلمت وعرفت .. وقررت ان تجمع شملها ، وتضم الفتها ،

وتصل نظامها ، وتتحرك في الموكب العتيد متشابكة الايدي . موصولة
الصفوف ..

الا انه من الغفلة ان يستهين اليوم حاكم بحق شعبه وحرية
- كائنا ما كانت قوة الحاكم ، وضعف الشعب ..
ومن الصفاقة المتأزمة .. الا يرى حاكم شعبه جديرا بالحرية
- ثم يرى نفسه جديرا بالتفرد والاستبداد .. !
فلنذكر جيدا - ان الشعب مهما تكن ضالته وانحطاطه ،
جدير بالحرية جميعا . لان الحرية ليست مثوبة يثاب
الشعب بها ، او نوطا من انواط الزينة والتكريم يزين صدره ..
بل هي حياته .. هي وجوده .. هي ضرورته الكبرى التي لا ينهض
بسواها ، ولا يحيا ..

واذا كنا قد اهتدينا في مسيرنا عبر هذا الكتاب الى وسائل
التحرير والخلاص كما نراها .. وربما ايضا كما يراها بقية
المواطنين ، فقد بقى امامنا ادراك حقيقة هامة .
يقول الفيلسوف « جوته » :

« ان التفكير سهل . . لكن العمل صعب . . والعمل وفاقا
للتفكير هو اشق واجبات الحياة ، واهدائها سبيلا . »
ونحن الى اليوم شعب يحس كثيرا .. ويفكر قليلا .. ولا يعمل
ابدا . !

ولكنه مع ذلك ، وللاسباب التي ابديناها آنفا - يستحق
الحرية .. جميع الحرية .
والواجب الذي يتوسل به لحقه . يشع من كلمات ذلك
الفيلسوف .

فلنفكر لانفسنا في دقة وعمق .. ولنكون لها ، ونحن نفكر -
ارادة العمل .. فاذا ما انتهينا من انضاج الفكرة .. انتهينا ايضا
من انضاج الارادة .. عندئذ نعمل في ثبات وجراءة وفق تفكيرنا
الواعي - لا وفق عواطفنا المتميعة .
انا حتى الآن - لا نجيد فن التفكير ، ولا فن العمل .. فتفكيرنا

وساوس غامضة . . وعملنا انفعالات غريبة .

هكذا نحن - الدولة والمجتمع

فالدولة لا تزال تؤمن ان خلاصها من المستعمر يأتى
بالسلم عن طريق المفاوضات . . ويأتى بالحرب عن طريق التمثيل
والمظاهرات . . والشعب على دينها من المؤمنين . . !

وهنا يبين حظنا الوافر من قلة التفكير . . فلو اننا فكرنا
تفكيراً مركزاً لا انتهيننا الى انجلترا دولة تحترم القوة ،
وتحتقر الحق . .

دولة تؤمن بحقوق الانجليز اولاً . . ثم حقوق الانسان ثانياً !

دولة يجلد رجالها عراً . . فتنشئ للجلادين دولة . .

ويكرم رجالها في نادى «العلمين» فتعض الأيدي التى أكرمتمهم ،
وتبصق على الوجوه التى استقبلتهم . . !

نعم - لو اننا فكرنا ، لاعرضنا عن كل حاكم يتظاهر ضد الانجليز
. . لانه فقط يخدعنا ، ويطيل امد مكثهم بيننا . . ولبحثنا عن
الحاكم الذى يصنع كما صنع «احمد سوكارنو» - فيقود الامة
والجيش الى التحام هائل مع قوى الشر والضلال التى افنتنا
وسوت بنا التراب . . !

ما ذا وراء هذه المخاطرة من عاقبة . . ؟

الموت . . ؟

ما عذب الموت اذا حان الاجل !

ان رائداً من خيرة رواد الحرية ينادينا ويقول :

« هل بلغ من قيمة الحياة ، وحلاوة السلم ان نشترى بهما
بالاغلال والرق ؟ وقانا الله ذلك . ! »

« لست أدري اى نهج ينجيه غبرى ، اما انا فأقول : الحرية . .

او الموت . ! »

وضعف تفكيرنا ايضا هو الذى يجعلنا نسيء الظن بالحرية ،
ونخاف على النظام من ضراوتها . ونحاصر الامة بسلسلة عاتية من
القوانين والاجراءات ..

ولو اننا فكرنا جيدا لعلمنا ان الجهد الذى نبذله لترويض
الشعب على احترام القوة ثم لا يجدى - خير منه جهد يبذل
لترويض الشعب على احترام اواجب ، ثم يجدى ويفيد .

وضعف تفكيرنا ، هو الذى جعلنا عزيزين واشتاتا .. يكيد
بعضنا لبعض ، ويلعن بعضنا بعضا ...

ولو اننا فكرنا قليلا ، لرأينا الارض المشتركة التى تجمعنا
كافة - من كل الهيئات ، والاحزاب - هذه الارض المشتركة
هى « ارادة التحرير » ..

كلنا - نحن الشعب - متفقون على ارادة التحرر مما نحن
فيه من ذل واستعمار واستبداد . والخلاف بيننا فى الوسائل ،
وهو لهذا خلاف صغير لا يعتاق سوى القلوب الصغيرة ، والعقول
الصغيرة .. فلنتكتل معا فى هذه التخوم المشتركة ، والارض
الجامعة

التفكير السديد - والعمل وفق هذا التفكير - هما الخطوة
الاولى يا رواد التحرير والانقاذ

والشعب الذى يكتظ فكره بالبغضاء ، والثأر ، والحسد ،
والتربص ، والعجز ، والتلاوم - لن يكون شيئا ما ، فى يوم ما ..
وسيظل رمزا لما تستطيع هذه الافكار الرديئة السوداء أن
تصنعه لتمزيق الامم والجماعات

فلنغسل تفكيرنا من هذه الاوضاع .. ولنواجه مشكلتنا
الكبرى بأفكار مستقيمة مستبشرة بأسلة .. ولنحول
طاقة الثأر والحقد التى تغص بها نفوسنا الى عدونا الحق -
المستعمر ، والمستبد ..

لماذا تتخاذل أفكارنا وتراجع عندما نوجهها لملاقاة مشكلة
الاستعمار البريطاني ... ؟

ولماذا تقاحم وتندفع من تلقاء نفسها لتضرب بعضنا ببعض ،
وتجعلنا عبرة وأحاديث .. ؟

لماذا تجبن في الأولى - وتستبسل في الثانية .. ؟
السبب أنها أفكار طائشة ... بل هي ليست أفكارا على
الاطلاق .. لكنها انفعالات غريزة مجنونة تسرب خلالها -
وأسفاه - كل طاقتنا .. حتى اذا يممنا كفاحنا شطر الاستعمار
- لم نجد من أنفسنا ناصرا ولا ملتحدا .. !
يقول فيلسوف حكيم :

« ان المرء لا تضيره الحوادث ، وانما الذي يضيره بحق - هو
تقديره للحوادث .. »

فلنقدر الحوادث التي تقع بيننا - نحن المواطنين - تقديرا
كريما يرتفع بنا عن التناحر ..

ولنقدر الحوادث التي تجرى بيننا وبين الاستعمار تقديرا
يندفع بنا الى مناهضته ومقاتلته

ما أروع محمدا عليه السلام ، وهو يقول لصاحبه في الغار :
ما ظنك باثنين .. الله ثالثهما ... !

ان هذا التفكير المؤمن بالنصر ، الواثق بالفوز ، والعمل وفق
هذا التفكير ، وكان ساعته يمثّل في الهدوء ورباطة الجأش
- هما اللذان صرفا عنه ابصار الذين لو نظر أحدهم تحت قدمه
لرآه .. ورأى صاحبه معه .. !

لقد انتهى العهد الذي كنا نتساءل فيه : ماذا نعمل .. ؟
وحل عهد جديد شعاره : يجب أن نعمل
وبعد - فما أنت ذا تبلغ ختام الكتاب .

لتظن أن ما بينك وبينه قد انتهى ببلوغ هذا الختام ؟

كلا .. فالان يتلقفه عقلك الكامن ، ووعيك الباطن ليصوغا
لك منه فكرة .. ويرسما نهجا .. ويصطنعا ارادة تحدث بعد
ذلك امرا ..

فلندعهما الى حين ..

ولنتصور من جديد ذلك الشوط الذى قطعناه .. لقد
سرنا هكذا ...

شعب فى السلاسل .

الحرية .. هى الخلاص .

الشخصية .. كى تعمل

تمصير مصر .

* *

ان هذه الشمس التى تشرق علينا كل صباح تذكرنا بدفء
الحرية ..

وهذا الفجر الذى تتشقق عنه ارحام الليالى واكامها -
يذكرنا بضوء الحرية ..

وهذا الربيع فى مهرجانه الطليق الحافل .. يستجيش حنيننا
الى الحرية ..

وصيحة آتية من وراء القرون تنادى الطفافة :-

متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟
تسوقنا سوقا عنيفا لمعركة الحرية ..

واذا سئلنا - ما نحن .. ؟ كان جوابنا :

نحن شعب يريد ان يصحح شخصيته .

ويحقق حرية ..

ويعلن فى ربوعه ونجوعه حقوق الانسان .

CLUB LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

AUB LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00496288

